

مغامرات النساء عبر التاريخ

فاروق الجمل

الطبعة الثانية

مغامرات النساء
عبر التاريخ

الناشر

دار الفاروق للاستثمارات الثقافية (ش.م.م)

E-mail: marketing@daralfarouk.com.eg

الفرع الرئيسي: مبنى دار الفاروق للاستثمارات الثقافية: قطعة رقم ١٨ - المنطقة الصناعية - أبو رواش - منطقة الامتداد - إمبابة - خلف القرية الذكية - بجوار السنترال - محافظة الجيزة - مصر .

تليفون: ٣٥٣٩٤٠٥٠- ٣٥٣٩٤٠٦٠- ٣٥٣٩٤٠٧٠ - ٣٥٣٩٢٠٠٠ (٠٠٢٠٢)

فاكس: ٣٥٣٩٣٠٠٠ (٠٠٢٠٢)

الجمل، فاروق رمضان السيد.

مغامرات النساء عبر التاريخ/ تأليف: فاروق رمضان السيد الجمل، ط ٠١ - الجيزة: دار الفاروق للاستثمارات الثقافية (ش.م.م)، ٣٢٠ ص؛ ٢٢ سم.

تدمك: 978-977-754-549-5

رقم الإيداع: ٧٣٣٩/ ٢٠٢١م

١- الرقيق - تاريخ

أ- العنوان.

ديوي: ٩٢٠,٧٢

الطبعة العربية الأولى: ٢٠٢٢

www.daralfarouk.com.eg

www.darelfarouk.com.eg

مغامرات النساء عبر التاريخ

فاروق الجمل



إهداء

إلى روح خالي وصديقي

أكرم يوسف

ذلك الرجل الذي تعلمت منه عشق

الكتابة والقراءة والكتب

وإلى

روح أخي الحبيب الذي فارق عالمنا قبل أن يُكمل تحقيق

حلمه في الحياة

معتز الجمل

كنت أتمنى أن تشاركوني لحظة الاحتفاء بهذا الكتاب

لكي أشعر بأرواحكما الطاهرة حولي

مقدمة

مخطئ هو من يحسب نفسه قد فهم المرأة تمام الفهم .. مخطئ هو من يتصور أن المرأة مخلوق ضعيف، أو أن هناك شيء ما لا تستطيع فعله، أو أن هناك مكانةً ما لا تستطيع بلوغها .. مخطئ جدًا من يتصور أنها في كل حالتها هي ذلك المخلوق الملائكي الحاني العطوف ذو القلب والمشاعر الرقيقة.

ربما تكون ذاكرة البشر ضعيفة، وربما يبهرهم مظهر المرأة الجذاب، أو أنوثتها الطاغية، أو كلامها المعسول، لكن التاريخ لا ينسى ولا يرضخ لكل تلك المغريات، فهو يكتب ويسجل ويدون بين ثنايا صفحاته كل شيء، من دون أن يغفل أي شيء .. لهذا إذا أردنا حقًا أن نعرف أكثر عن المرأة، فما علينا سوى القيام برحلة عميقة عبر التاريخ.

وهذا ما سنفعله الآن .. ففي هذا الكتاب سنخوض معًا رحلة في عالم مليء بالأسرار والتجارب والحكايات المشوقة .. تلك الحكايات التي كانت بطولاتها المطلقة لعدد من النساء. سننتقل معًا في سرد قصصي تاريخي عبر الأزمنة والبلاد والعصور المختلفة لنتتبع سيرتهن ومغامراتهن التي سجلها التاريخ في شتى المجالات .. سنتجول معًا في رحلة تتضمن قصصًا حقيقةً في السياسة والحب والعلم والوفاء والخيانة والخير والشر.

بالطبع، ربما تكون قد سمعت، عزيزي القارئ، من قبل عن أسماء النساء اللاتي سنتحدث عنهن في هذا الكتاب، ولكن من المؤكد أنك ستجد بين سطوره الكثير من الجوانب المختلفة في حياة هذه الأسماء، تلك الجوانب

التي لم تسمع بها من قبل، أضف إلى ذلك الكثير من الحكايات الأخرى التي ستسمع عنها لأول مرة.

فقط، كُنْ على استعداد تام الآن لأنواع مختلفة الحكايات والمفاجآت. كُن على استعداد لمعرفة الكثير من الجوانب التي ربما لم تخطر ببالك من قبل عن حياة أولئك النساء، تلك الجوانب التي قد تجعلك تنبهر ببعضهن، أو تكره بعضهن. سترى صورًا لهن ربما قد تكون مغايرة تمامًا لتلك الصور الحالمة التي في مخيلتك عنهن، صورًا حتمًا ستخرج منها بقناعة واحدة مفادها: «إن المرأة قادرة على فعل أي شيء .. وربما بصورة أفضل وأكثر إبهارًا من الرجل».

لهذا، قررت أن يكون السرد في هذا الكتاب سردًا قصصيًا. ستجد تحت كل اسم عنوانًا يُعبّر عن مغامرة صاحبته .. عنوانًا سيكون مدخلاً لكل تلك التفاصيل التي ستعيشها مع مغامرة صاحبة الاسم .. تلك التفاصيل التي ستمكنك من رسم صورة في خيالك لها وللأحداث التي سأرويها لك وكأنك تعيشها وتراها بنفسك.

وبعد نهاية كل مغامرة، ستجد عددًا من الصفحات التي لتمثل رأيي الشخصي وتحليلي للمغامرة، إضافة إلى بعض ما قيل عن الشخصية صاحبة المغامرة وما تحدّث به البعض عنها. عزيزي القاريء، يمكنك أن تتجاهل تحليلي ورأيي الشخصي إذا أحببت، لكن لو لي الحق في أن أنصحك، سأخبرك بأنه لا يتوجب عليك فعل هذا، لأنك ستجد في تلك الصفحات معلومات إضافية وأمورًا أخرى عن تلك الشخصيات لم يتسن لي وضعها ضمن أحداث المغامرة كي لا أفسد عليك السرد التاريخي لها.

يجب أيضًا أن أوضح أنك قد تجد بهذا الكتاب سردًا جديدًا للكثير من القصص التي قد سمعتها من قبل. قد يكون هذا السرد مختلفًا عما سمعته من قبل، وقد يغير تمامًا من مفهومك للقصة ولصاحبتها. لكن هذا الاختلاف لا يعني أن تلك القصص قصص جديدة، ولكنه يعني أنني قررت أن أحكيها لك وفقًا للوقائع التاريخية المجردة مع استبعاد كل الموروثات الشعبية التي دخلت على العديد من هذه القصص على مر الزمن.

فقط لدي رجاء شخصي منك عزيزي القارئ .. واسمح لي أن أقول لك عزيزي، لا تتعامل مع هذا الكتاب على أنه كتاب تاريخ، ولا على أنه كتاب سياسي ولا على أنه كتاب قصصي ولا على أنه حتى كتاب وعظي، ولا على أنه واحد من تلك الكتب التي تتحدث عن السير الذاتيه لشخصيات معروفة، ذلك لسبب بسيط آلا وهو أن هذا الكتاب الذي بين يديك الآن يُعتبر كل ما سبق ذكره من نوعيات الكتب وربما أكثر. نحن هنا، كما اتفقنا، سنعيش معًا رحلة عبر الأزمنة والعوالم المختلفة، رحلة هدفها الاكتشاف والتأمل والاستمتاع والمعرفة بأمور وتجارب وجوانب مختلفة في حياة نساء سجّل التاريخ أسمائهن لأسباب مختلفة.

والآن لنبدأ رحلتنا .. مع أطيب الأمنيات بأن تكون رحلة سعيدة.

فاروق الجمل - القاهرة في 2020

حتشبسوت

زوجة الأب التي غيَّرت مجرى التاريخ



«لقد جاء وحي عظيم في حضرة هذا الإله الطيب ليهبني ملك الأرضيين، ليهبني مصر العليا و السفلى .. كان ذلك في السنة الثانية .. وفي اليوم الثالث من احتفال الإله آمون و تم تنصيبي على الأرضيين».

الملكة «حتشبسوت»

كانت مصر عند ميلاد الملكة «حتشبسوت» تمر بمرحلة شديدة الخصوصية، لقد كانت خارجة لتوها مما يُطلق عليه «عصر الاضمحلال الثاني»، أو «عصر الظلام الثاني». قبل ميلاد «حتشبسوت» بأعوام كان المناخ السياسي والاجتماعي والديني بمصر يمر بمرحلة من الارتباك الشديد، فقبل تأسيس الأسرة الثامنة عشر، التي تنتمي لها «حتشبسوت»، على يد الملك «أحمس» كانت مصر ممزقة تمامًا حتى إن شمالها كان محتلاً من الهكسوس، وانهارت القوة العسكرية .. الفنون .. الثقافة .. التجارة .. في البلاد. لقد كانت فترة من الكساد والاضمحلال الكبير.

قبل ميلاد «حتشبسوت» بعشرات الأعوام، كان أجدادها، الذين حكموا جنوب مصر وجعلوا من مدينة «طيبة» عاصمه لها، قد بدؤوا في إعداد خطة لتوحيد البلاد مرة أخرى ودحر الهكسوس وطردهم خارج البلاد. كانت البداية من «سقن رع»، ثم «كامس» وأخيرًا جاء الملك العظيم «أحمس»، الذي نجح في تحقيق ما فشل فيه أبوه وأخوه الأكبر وهزم الهكسوس وطردهم من مصر و أعاد توحيد البلاد مرة أخرى وأسس الأسرة الثامنة عشر.

كل هذه الأحداث السياسية والتوترات كانت سببًا رئيسيًا في ترك الملوك الأوائل لتلك الأسرة لمدنهم بشكل دائم من أجل محاربة الهكسوس وإعادة

تحرير وتوحيد البلاد، ذلك الأمر الذي ألقى بمسئولية كبيرة على زوجاتهم الملكيات اللاتي شاركنهم في العرش، حيث بات يتوجب عليهن الجلوس على عرش «طيبة» أثناء غياب أزواجهن الملوك عن البلاد في الحرب، والحفاظ على وحدة أبنائها وتوفير الدعم اللازم من أجل استئناف الحرب ضد الهكسوس، مما يعني أن النساء كان لهن دورٌ كبيرٌ ومهمٌ وفعالٌ في تأسيس الدولة الفرعونية الحديثة والتي عُرفت فيما بعد باسم «العصر الذهبي».

«أحمس نفرتاري» .. كانت واحدة من أولئك النساء العظيمات، فهي زوجة الملك «أحمس» طارد الهكسوس ومؤسس الأسرة الثامنة عشر، وجدة الملكة «حتشبسوت». لم تكن يومًا «أحمس نفرتاري» زوجة ملكية عادية، لقد حصلت على العديد من الألقاب المهمة التي لم يسبقها لها ملكة في مصر، منها «الزوجة الملكية» .. «الزوجة الإلهية» .. «الكاهن الثاني لآمون»، وإن كان اللقب الأخير هو أهمها على الإطلاق لأنه لقب كهنوتي صرف، وهي وظيفة لم تكن موجودة من قبل وتم استحداثها خصيصًا من أجلها، الأمر الذي لم يكن ليُرضي كهنة «آمون» حيث كانت الوظائف الكهنوتية حِكرًا على الرجال فقط.

أصبح من الواضح أن تلك المرأة العظيمة التي عاشت طوال عصر «أحمس»، ثم «أمنحتب الأول» وبداية عصر «تحتمس الأول» (والد «حتشبسوت»)، كان لها دور مهم في إدارة شئون البلاد ورقابة الأحداث السياسية وتوجيه دفتها أيضًا والتأثير بشكل ملحوظ ومباشر على نظام اعتلاء العرش بصفتها الملكة الأم .

أتوقع أن تكون قد بدأت تتململ، وتسأل نفسك ما علاقة كل هذا بالملكة «حتشبسوت» ومغامرتها في التاريخ؟! .. ولماذا لم أدخل في الأحداث مباشرة؟ .. هنا اسمح لي أن أطلب منك ألا تكون عجولًا .. لأن مغامرة «حتشبسوت» العظيمة ستبدأ حالاً.. والبداية تأتي من عند الملكة «أحمس نفرتاري».

كانت الملكة الأم «أحمس نفرتاري» تولي اهتمامًا خاصًا بالأميرة الصغيرة «حتشبسوت» دونًا عن غيرها، وهو الأمر الذي جعل «حتشبسوت» تتلقى في طفولتها وفترة مراهقتها تعليمًا خاصًا، حتى إنها برعت في شتى أنواع العلوم وبخاصة العلوم الحسابية والهندسية، لكن اهتمام الملكة الأم بالأميرة الصغيرة لم يتوقف عند هذا الحد، حيث قامت بمنحها لقب «الزوجة الإلهية»، وهو اللقب الذي يضفي على صاحبته صفة كهنوتية غير عاديه، فبموجب هذا اللقب تصبح صاحبته هي «زوجة الرب» ويده التي تنفذ مشيئته في الأرض.

من هنا تحديدًا بدأت مغامرة «حتشبسوت» في التاريخ. لقد كان لمنحها هذا اللقب أكبر الأثر في تثبيت حكم والدها الملك «تحتمس الأول» ومنع أي صراع على العرش. وبالرغم من أن الملكة العظيمة توفيت عندما كانت «حتشبسوت» في السابعة من عمرها، فإن اللقب الذي منحتها إياه ساهم بشكل كبير في تشكيل الحياة المستقبلية للأميرة الشابة، فكما أنها ساهمت في تثبيت حكم والدها الملك «تحتمس الأول» بفضل لقب «الزوجة الإلهية»، كانت أيضًا السبب في تثبيت حكم أخيها وزوجها الملك «تحتمس الثاني»، الذي كان لأم ثانوية، وهو ما يعني أن شرعيته في حكم مصر كانت مستمدة من زوجته الملكة «حتشبسوت».

يبدو أن القدر أيضًا كان يعد «حتشبسوت» لمكانتها التاريخية التي أصبحت عليها فيما بعد. فحينما تجاوزت الأميرة الشابة مرحلة الطفولة وبدأت مرحلة الشباب، توفي أميران من أبناء الملك «تحتمس الأول»، وكان الابن الثالث «تحتمس» لا يزال طفلاً يفتقر للشروط اللازمة لرفقة والده في أعمال التعبد وشئون الحكم بصفته الوريث، الأمر الذي جعل «تحتمس الأول» يُبقي الأميرة الشابة «حتشبسوت» إلى جواره دومًا؛ أي أنها بدأت منذ سن مبكر جدًا في القيام بأعمال وأمور كانت خاصة بالرجال فقط، وهو ما سيساعدنا في تفسير الكثير من تصرفاتها المستقبلية.

يمكننا أيضًا أن ندرك مدى أهمية «حتشبسوت» حتى قبل أن تتولى الحكم رسميًا، ذلك من خلال أحد النصوص التاريخية الموجودة في الصرح الثامن من معبد «الكرنك» وبالتحديد في الواجهة الشمالية في النصف الغربي، حيث يقول النص: «**عندئذٍ قال «تحتمس الأول» في حضور الإله الذي خلقه وهو يمجده ويمجد جلال حكمه .. إنني أركع أمام جلالتك وأطلب منك بما سمحت لي به بأن تكون الأرض السمراء والأرض الحمراء تحت إمرة ابنتي ملك مصر العليا والسفلى ولتعش للأبد .. وكما فعلت هذا من أجلي فأطلب منك أن تكرر هذا من أجلي وتقدم لي النبوءة التي تدعم ابنتي «وسرت كاو» («حتشبسوت») لتكون ملك مصر العليا والسفلى .. فهى تحبك وتتحد بك وتطلب منك أن تُدخل النماء على هذه البلاد عن طريقها وأنت تدعمها في حكمها الملكي .. اسمع دعائي وصلواتي من أجل تلك التي أحبها**».

وهو ما يعني أن «حتشبسوت» التي اعتلت عرش مصر في فترة مراهقتها – أغلب الظن في سن السابعة عشرة– بخلاف كونها شديدة الذكاء والقوة،

كانت تدرك جيدًا مصدر قوتها وأحقيتها في عرش مصر، وهو ما ساهم بشكل كبير في زيادة تسلطها على زوجها «تحتمس الثاني»، حيث نجد أن اسمها كان يوضع إلى جوار اسمه دائمًا في كل شيء وهو الأمر الذي لم يكن معتادًا وقتها، بل إن أغلب الوثائق والبرديات تؤكد على أن الملك كان لا يتخذ قرارًا أبدًا دون الرجوع إلى زوجته الملكة الشابة .. على أي حال لم يكن للملك «تحتمس الثاني» تأثيرًا قويًا في التاريخ ولم يكن له الكثير من الأعمال المهمة باستثناء عدد من الأبنية الجنائزية، ويبدو أنه كان رجلاً متواضع الشخصية والعقل والنفوذ في ظل زوجته «حتشبسوت». هنا، يجب أن أذكر أيضًا أن كبير خدم «آمون » في ذلك الوقت كان رجلاً يُدعي «إنيني» ذكر في كتاباته أنه حينما صعدت «حتشبسوت» و«تحتمس الثاني» إلى عرش مصر بعد وفاة والدهما «تحتمس الأول» في العام العاشر من حكمه، كان الملك الشاب «تحتمس الثاني» والذي يصغر «حتشبسوت» في السن ببضع سنوات غير مؤهلٍ لحكم مصر، واصفًا إياه بأنه شاب غير ناضج بعد ولا يستطيع الدفاع عن نفسه تماما كـ «صقر في العش».

وإذا أردت أن تتخيل الصورة للأوضاع داخل قصر الحكم في ذلك الوقت فلن يكون الأمر صعبًا. لك الآتي: ملك لا يزال في مرحلة الطفولة يصف نفسه بـ «ابن الإله»، لا يفعل شيئًا سوى اللعب واللهو، تتناقله أيادي النساء، ذلك في الوقت الذي تجلس فيه «حتشبسوت» على عرش مصر تمارس سلطاتها بكل قوة وحزم، وتطالب الموظفين بالتقارير لمتابعة شئون البلاد. ليس هذا فقط بل كانت الملكة الشابة تحظى بثقة النبلاء والشعب على حدٍ سواء، ذلك على الرغم من أن النبلاء في بداية الأمر حاولوا ترويض الملكة الشابة والتعامل معها على أنها مجرد زوجة الملك، ولكن يبدو أنها هي

من قامت بترويضهم جميعًا والسيطرة على مقاليد الحكم في مصر بكل قوة وثبات.

وبالتالي، فإنه خلال ثلاثة عشر عامًا هي فترة حكم الملك «تحتمس الثاني»، لم يكن هناك أية مشكلة تواجه الملكة «حتشبسوت» في الحكم، حيث نجحت في قيادة البلاد نحو الاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي كما هو ثابت تاريخيًا من خلال البعثات التجارية وبناء المعابد. كان كل شيء على ما يرام في تلك الفترة بالنسبة للملكة القوية الشابة باستثناء شيء واحد فقط؛ هذا الشيء هو أنها لم تنجب سوى البنات وكان لزوجها الملك من امرأة ثانوية، لم تكن يومًا زوجة له، ولدًا سيكون هو الوريث للعرش في حال موته.

وبالفعل، حدث ما كانت تخشاه «حتشبسوت». لقد مات الملك الشاب بشكل مفاجئ .. مات في ظروف غامضة لم يتم الكشف عنها ولا عن تفاصيلها حتى يومنا هذا. وهنا عادت الأمور مع «حتشبسوت» إلى نقطة الصفر، الوضع نفسه يتكرر تقريبًا ولكن بصورة مختلفة. فبدلاً من أنها كانت تحكم مصر إلى جوار زوجها صغير السن، باتت وصية على عرش مصر وتحكم البلاد إلى جوار ملك لا يزال طفلاً وهو الملك «تحتمس الثالث» ابن زوجها.

لكن كان هناك شيء مختلف .. هذا الشيء هو «حتشبسوت» نفسها. فبعد ثلاثة عشر عامًا من ممارسة السلطة بشكل فعلي، لم تعد تلك الملكة الشابة التي كانت في ريعان شبابها في تلك الفترة، حيث أشارت كل الوثائق التاريخية أنها كانت في أوائل الثلاثينيات من عمرها وقت وفاة زوجها، هي الأميرة الشابة نفسها التي توجت على عرش مصر قبل ثلاثة عشر عامًا إلى جوار أخيها

الصغير. لقد اكتسبت الكثير من المهارات والقدرات في الإدارة، وباتت أكثر خبرة وإقناعًا وقوة مقارنة بما كانت عليه قبل ذلك.

هنا، يجب أيضًا أن أشير إلى أن كل الظروف كانت تلعب لصالح «حتشبسوت»، فالملك الجديد المتوج على عرش مصر كان لا يزال طفلاً بكل معاني الكلمة، ذلك في الوقت التي كانت هي فيه ملكة يافعة قوية تجري في عروقها دماء ملكية، يرجع نسبها إلى الملكة العظيمة «أحمس نفرتاري»، التي منحتها في طفولتها أحد ألقابها ألا وهو «الزوجة الإلهية»، كما أنها متوجه على عرش مصر من قِبل الإله «آمون». بالطبع لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فقبل وفاة زوجها بفترة قليلة ابتعد كبير خدم «آمون» والقصر «إنيني» عن وظيفته، وتم تعيين الوزير «سنموت» بدلاً منه. هنا، يجب أن أذكر أن «سنموت» كان أحد أهم أسباب قوة الملكة الشابة وذراعها الأيمن في الحكم، حتى إنها استطاعت بفضله تغيير كل الموظفين الملكيين عقب وفاة زوجها واستبدالهم بموالين لها بشكل كامل، وبهذا تكون قد فرضت سلطتها الكاملة على البلاد، حتى من قبل أن تُعين كوصية على الملك الشاب «تحتمس الثالث».

يجب أن نؤكد على أن «حتشبسوت» قد تعاملت مع الموقف الذي وضعت فيه للمرة الثانية بذكاءٍ شديدٍ. بالرغم من عدم استعدادها للتنازل عن عرش مصر لأي شخص، فإنها لم تُظهر هذا للعلن أبدًا، ولم يشعر أي شخص أن هناك صراعًا على السلطة بينها وبين الملك الطفل «تحتمس الثالث»، أو إنها حتى تسعى للإطاحة به. على العكس تمامًا كانت الملكة الشابة في البداية، على الأقل في أول عام ونصف من فترة حكم الملك «تحتمس الثالث»، تحتضن

الملك وتعامله معاملة الأبناء مما جعل الصورة التي تظهر بها للجميع أنها بالفعل تجلس على عرش مصر من أجل حمايته للملك حتى يبلغ من العمر والقوة ما يؤهله لقيادة البلاد، حتى إنها في مرحلة متقدمة زوجته من ابنتها «نفرو رع»، لتكون له شرعية حكم مصر، فكما ذكرت من قبل ولد «تحتمس الثالث» لأمراه ثانوية لم تكن زوجة للملك، وبالتالي كان محتمًا عليه الزواج من امرأة تكون وريثة مباشرة للفرع الشرعي الحاكم للبلاد.

لكن في هذه الأثناء، كانت «حتشبسوت» تزيد من سيطرتها على مقاليد الحكم في البلاد وتنفذ خطتها شيئًا فشيئًا. بعد عامين من عملها كوصية على العرش أعلنت نفسها شريكة في الحكم إلى جوار الملك الطفل «تحتمس الثالث»، ذلك بالطبع بمساندة الوزير «سنموت» وكبير الكهنة الموالي لها «حابو سنب». ليس هذا فقط بل نجد أنها منذ هذا التاريخ أيضًا قد تسلمت من جديد مهام وظيفتها الكهنوتية بصفتها «الزوجة الإلهية» و«يد الرب» و«المتعبدة الإلهية».

وهنا تحديدًا بدأت ملامح شخصية زوجة الأب في الظهور. فبعد أن اطمئن قلبها حيال استقرار الأوضاع في البلاد وتعامل الجميع معها على أنها ملكة مصر وليست مجرد وصيه على العرش، أخذت في تنحية «تحتمس الثالث» نهائيًا عن البلاط الملكي، وأمرت بوضعه في وضع يمكن وصفه بالاعتكاف العلمي، وبررت ذلك للجميع بأنها تريد أن يتربى الملك الجديد تربية عسكرية صارمة تؤهله لحكم مصر حينما يبلغ سن الرشد، حتى إن كل النقوش المتوافرة عن تلك الفترة تُظهر «حتشبسوت» على أنها هي التي ربته وأعدته ليكون ملكًا. ولكن الحقيقة كانت مخالفة لذلك تمامًا، لقد

كانت «حتشبسوت» تسعى إلى إبعاده نهائيًا عن كل مراكز صنع القرار وعن الصورة، حتى لا يعرف الشعب ولا النبلاء ولا الكهنة غيرها.

من الواضح أن «حتشبسوت» كانت غير متعجلة، وكان الوزير «سنموت» يساعدها ويدعمها في كل قرار تتخذه. يمكن قول أنها لم تكن تخطو خطوة واحدة للأمام في طريقها للاستقلال بالعرش إلا بعد أن تطمئن لاستقرار الأوضاع السابقة. وما يبرهن على ذلك بقوة هو استمرار الأوضاع على ما هي عليه حتى العام السابع من حكم الملك «تحتمس الثالث» فحتى ذلك التاريخ كانت ألقاب «حتشبسوت» كما هي، ولم تكن قد وصفت بعد بصفتها ملكة مصر ولم تصور بعد في صورة رجل على حوائط المعابد والجداريات.

منذ هذا التاريخ تحديدًا أصبحت «حتشبسوت» فرعونًا على مصر، وصارت تحمل الصولجان ويوضع إلى جوار اسمها كل الألقاب الملكية والكهنوتية التي تُمنح للفرعون. ومنذ ذلك التاريخ أيضًا انقطع ذكر الملك «تحتمس الثالث»، أو وصفه بأنه الملك وفرعون البلاد إلى أن اعتلى عرش مصر بعد وفاة «حتشبسوت». كان ذلك بعد 22 عامًا من حكمها لمصر بصورة منفردة.

في الواقع، تذكر بعض النصوص القليلة أن «تحتمس الثالث» في تلك الفترة كان قد زهد في الحياة السياسية وتفرغ للحياة العسكرية، وكان يسعى بكل طاقته لأن يصبح واحدًا من أفضل القادة العسكريين في تاريخ مصر، وهو ما نجح في تحقيقه بالفعل.

نعود إلى «حتشبسوت» مرة أخرى، حيث بدأت الملكة الشابة -التي أصبحت فرعونًا للبلاد- عصرًا جديدًا اهتمت فيه بالاقتصاد والعمارة والزراعة والتجارة، ولكنها لم تهتم كثيرًا بالفتوحات العسكرية شأنها شأن الفراعنة السابقين لها، حتى إن الكثير يصفون الفترة التي حكمت فيها بأنها كانت «فترة سلام». لكن هذه الفترة أثرت كثيرًا على البلاد بعد وفاتها، حيث أعلنت الكثير من البلاد الخاضعة لحكم مصر العصيان عليها، ذلك قبل أن يخضعهم الفرعون الجديد «تحتمس الثالث» جميعًا مرة أخرى.

اختفت «حتشبسوت» تمامًا من كل سجلات التاريخ بعد 22 عامًا من حكمها. اختفت هي وكل رجالها وعلى رأسهم الوزير «سنموت» ولم يعد لهما أي ذكر مطلقًا، وحتى يومنا هذا لا تزال وفاتها لغزًا يحير العلماء. ويمكننا أيضًا أن نقول أن الفرعون الشاب «تحتمس الثالث» سعى لمحو ذكرها من التاريخ تمامًا، حيث أمر بمحو اسمها من على جميع النقوش التي توجد على الجداريات والمعابد والمسلات، حتى تلك المعابد التي بنتها بنفسها. وبالرغم من الإعلان عن اكتشاف مومياء الملكة «حتشبسوت» في عام 2007، فإن هناك الكثير من النظريات العلمية التي رفضت الاعتراف بأن تلك المومياء تخص الملكة الأسطورية.

إذا ما نظرنا إلى التصرفات الانتقامية التي قام بها الملك «تحتمس الثالث» تجاه الملكة «حتشبسوت» ومحو اسمها وذكرها بشكل كامل من على كل شيء، يمكننا تخيل شكل العلاقة بينهما وما فعلته الملكة الأسطورية بهذا الملك الشاب أثناء طفولته، وكيف قامت بإبعاده تمامًا عن الحكم والحياة السياسية والاستيلاء على ملكه وتتويج نفسها فرعونًا على البلاد في وقت كان الحاكم

الفعلي للبلاد على قيد الحياة. ولكل هذه الأسباب وصف الكثير من الباحثين تصرفات «حتشبسوت» تجاه «تحتمس الثالث» بأنها تصرفات زوجة الأب القاسية، التي كانت تسعى إلى الاستيلاء على ميراث زوجها وإبعاد وريثه الشرعي عن كل شيء. ولكن للإنصاف لم يكن الوضع كذلك بالنسبة إلى «حتشبسوت»، فكما ذكرنا من قبل كانت الملكة تتعامل مع عرش مصر على أنه من حقها بموجب نبؤة الإله «آمون» لوالدها «تحتمس الأول»، وبالتالي كانت ترى أنها طالما كانت حية فهي أحق بعرش مصر من أي شخص، وكان يتوجب عليها أن تدافع عن هذا الحق بأية صورة وبأية طريقة كانت.

على أي حال، مهما كانت الأسباب ومهما كانت النتائج، لا يستطيع أحد أن ينكر أن «حتشبسوت» كانت ولا تزال إحدى الملكات الأسطوريات التي خلد التاريخ أسمائهن، وستظل تجربتها تُروى أبد الدهر نظرًا لكونها قامت بفعل شيء لم يسبقها إليه أحد من قبل، ولا عجب في أني أرى الكثير من الكتب والصحف العالمية يصفونها بأنها واحدة من أقوى النساء والملكات في تاريخ العالم.

تمت

قبل أن يتحرك قطار رحلتنا إلى مكان آخر وشخصية أخرى وزمان آخر، يجب أن أحدثك عن بضعة أمور تتعلق بشخصية الملكة «حتشبسوت» وحياتها، بضع أمور لم يتسن لي وضعها خلال ما سبق حتى لا تؤثر على السرد التاريخي للأحداث وعلى التجربة.

في البداية، لا يمكن لأي شخص أن يختلف على عظمة شأن الملكة «حتشبسوت». لقد كان لها الكثير من الأعمال المهمة والآثار بالغة الأهمية

والتي على رأسها معبد «الكرنك» مثلاً. ولكن بعض الباحثين أخذوا في الهجوم عليها حينما تناولوا سيرتها الشخصية بالبحث، واتهموها بالكثير من الاتهامات منها على سبيل المثال، اغتصابها لعرش مصر ومدى قسوتها في التعامل مع ابن زوجها الملك الشاب «تحتمس الثالث»، حتى إن عددًا كبيرًا من الأفلام الوثائقية العالمية وصفتها بتلك الأوصاف، بل إن البعض شرع في إتهامها دون دليل واحد على تأمرها مع وزيرها «سنموت» على زوجها الملك «تحتمس الثاني» وقتله في ظروف غامضة.

نعم، قد تكون وفاة الملك «تحتمس الثاني» قد حدثت في ظروف غامضة، ولكن هذا لا يعني أنها شرعت في قتله، فالتاريخ بشكل عام والفرعوني بشكل خاص لا يزال يحتوي على الكثير من الأسرار والألغاز التي لم نتوصل إلى حلها، أو كشفها بعد.

تنقلنا هذه النقطة إلى نقطة أخرى لا تقل أهمية عنها؛ تتمثل في طبيعة علاقة الملكة «حتشبسوت» بوزيرها «سنموت». إن الكثير من المؤرخين والباحثين ذهبوا إلى أن العلاقة بينهما كانت أكثر عمقًا من كونها علاقة ملكة بوزيرها المخلص، واستدلوا على ذلك بوجود عدد من النقوش التي تظهر الملكة و«سنموت» معًا، ويظهر فيها «سنموت» على النقش مساويًا للملكة في الطول، وهو الأمر الغريب وغير المعتاد، حيث جرى العُرف أن يصوَّر الفرعون دائمًا في حجم أكبر من أي شخص آخر يوجد إلى جواره في النقوش.

ولكن هذا الدليل وغيره لا يعني أبدًا وجود علاقة عاطفية، أو حميمية بين الملكة و«سنموت» خاصةً أنه لا يوجد دليل مادي واضح على ذلك. لو نظرنا إلى الأمر من زاوية أخرى أكثر عقلانية، دون إغفال طبيعة العصر الذي

عاشت فيه الملكة «حتشبسوت» سنجد إنها كانت بحاجة إلى رجل مخلص إلى جوارها تستطيع أن تعتمد عليه في الكثير من الأمور وعلى رأسها مواجهة كهنة «آمون» الرافضين لتولي امرأة عرش مصر، أو أي منصب كهنوتي، كانت بحاجة لرجل يتمكن من التصدي للكثير من المؤامرات التي قد تحاك ضدها دون أن يكون له أي أطماع في العرش. وبالمناسبة هذه ليست المغامرة الوحيدة في التاريخ التي جرت على هذا الشأن. فكما سنرى معًا في المغامرة القادمة، لقد فعلت الملكة «كليوباترا» الشيء نفسه مع «يوليوس قيصر» أولاً، ثم مع وريثه «أنطونيو»، ذلك مع اختلاف التفاصيل والأحداث.

ما أريد أن أقوله هنا هو أن وصول امرأة إلى حكم بلد عظيم الشأن مثل مصر، ويقع تحت حكمها الكثير من الأراضي ذات المساحات الشاسعة والبلاد الخاضعة لها التي تقدم الجزية سنويًا أمرًا لا يستهان به، وكان لا بد من وجود أحد إلى جوارها يساعدها.

الثابت تاريخيًا هنا أن «سنموت» وزير «حتشبسوت» هو الشخص المخلص الذي أشرف بنفسه على بناء كل التحف الأثرية التي خلفتها لنا «حتشبسوت». لقد كان مؤمنًا بها، ومؤمنًا بحقها في العرش. كان يرى فيها ما لم يره كهنة «آمون»، وكان يسعى بكل قوة لدعمها، ودعم حكمها. إن الوثائق والمخطوطات لم تُظهر فقط مدى احترام «سنموت» وحبه لملكته، بل أظهرت مدى فخره وسعادته بالتعاون معها. ويتضح ذلك في أحد كتابات «سنموت» التي قال فيها نصًا: **«أنا واحد من الرعية يحب سيدته «حتشبسوت» صاحبة الجلالة .. وآمنت بطبيعتها الإلهية نظرًا لأنها أعلت من شأني في الأرضين فعينتني مديرًا لبيتها وقاضيًا على كافة أنحاء البلاد .. كما**

قمت بتربية الأميرة، الابنة البكر، الزوجة الإلهية «نفرو رع»، حتى تحيا ولقد قمت بذلك وكأنني أب إلهي وذلك كنوع من الاعتراف بولائي للملك».

وهو ما يجعلنا نرى بوضوح مدى امتنان «سنموت» للملكة «حتشبسوت» على ما فعلته معه، وهو الأمر الذي يبرر كل تصرفاته تجاه الملكه وإخلاصه لها، وما يجعلنا ندرك عمق العلاقة بينهما ومدى ثقتها فيه. الغريب في الأمر هنا أن كثير من المؤرخين والباحثين يغفلون الكثير من الجوانب الإنسانية والقيم المجتمعية كالصداقة، مثلاً، وكأن الإنسان في تلك العصور لم يعرفها ولم تصل له تلك المشاعر. عندما تتمعن في القراءة والبحث في تلك الفترات من تاريخ الإنسانية تجد أن أغلب المؤرخين يرون الكثير من الأمور من منظور مغاير، ذلك على الرغم من أن وقائع التاريخ قد أثبتت ورصدت الكثير من حالات الصداقة والوفاء بين الملوك والوزراء من الرعية، ولم يكن شرطًا أن تكون كل العلاقات قائمة على الجانب الجنسي، أو الجسدي بين الطرفين.

أما النقطة الثالثة والأخيرة هو ما فعلته «حتشبسوت» من أجل وصلها إلى الحكم. لو نظرنا إلى الأمور من وجهة نظر أخرى يمكننا أن نرى أن ما فعلته كان عين الصواب. ففي المرة الأولى، كان زوجها ملك البلاد لا يزال طفلاً يلهو ويلعب. وفي المرة الثانية، كان الملك الوريث للعرش لا يزال أيضًا طفلاً تجاوز بالكاد مرحلة المهد، فما كان يمكنها أن تفعله للحفاظ على وحدة وسلامة البلاد التي كانت خارجة لتوها من مرحلة عصيبة. لقد كانت البلاد تخطو خطواتها الأولى كبلد موحد بعد فترة من التمزق والاحتلال الأجنبي.

هنا، يجب أن أشير إلى أن كل ما يُذكر فعليًا عما فعلته «حتشبسوت» مع

«تحتمس الثالث» من سوء معاملة لا يوجد دليل مادي واضح عليه باستثناء إبعادها له تمامًا عن الحكم في السنة السابعة من حكمه، وما قام به هو بعد ذلك من محو اسمها واسم أي شخص عمل معها من كل النقوش والمعابد والبرديات، ولكن تفاصيل ما حدث بينهما لا أحد يعرفه، وكل ما يقال مبني على توقعات وتحليلات قام بها كبار المؤرخين.

على أي حال، مهما كان الأمر ستظل «حتشبسوت» واحدةً من أعظم النساء في التاريخ الإنساني وسيظل اسمها محفورًا في تاريخ البشرية بحروف من نور .. والآن، لننتقل إلى المغامرة الثانية ..

كليوباترا

كيد النساء الذي كاد يقضي على روما



«وما أن خلت بنفسها حتى ارتدت ثيابها الملكية ووضعت الأفعى على ذراعها فلدغتها لدغة قاتلة. وهكذا أنقذت ابنة «رع» نفسها من أن يلحق أعداؤها العار بها، ولم تشأ خادماتاها الوفيتان أن تعيشا بعد سيدتهما».

نص تاريخي يتحدث عن آخر لحظات في حياة «كليوباترا»

لست أظنك تتوقع مني أن أحكي لك هنا عن تلك الحكايات والقصص المكررة المملة عن جمال «كليوباترا» وأنوثتها التي جعلت أعظم رجال العالم يجثون تحت قدميها عاشقين مغرمين بها .. بالطبع لن أشارك هنا في تلك المهزلة التاريخية التي جعلت من تلك الملكة العظيمة أقرب ما تكون إلى عاهرة تبيع نفسها وجسدها من أجل السلطة و العرش.

لهذا، اخترت أن يكون حديثي هنا عن مغامرة «كليوباترا» الكبرى، تلك المغامرة التي تجسد مدى دهائها ومدى حبها لمصر وأرضها وسعيها لاستعادة إمبراطورتيها العظيمة .. والقضاء على نفوذ وقوة الإمبراطورية الرومانية وهيمنتها على منطقة البحر المتوسط.

على أي حال، تبدأ مغامرة «كليوباترا» مع وفاة والدها الملك «بطليموس الثاني عشر»، أو «بطليموس الزمار»، تاركًا خلفه ابنتين هما «كليوباترا» التي كانت تبلغ وقتها الثامنة عشرة من عمرها و«أرسينوي» التي كانت تصغرها بثلاث سنوات، إلى جانب ولدين هما «بطليموس الثالث عشر» الذي كان في العاشرة من عمره، بينما كان الأخ الآخر في سن الثامنة. وقد أوصى «بطليموس الزمار» بأن يخلفه على العرش أكبر ولديه «بطليموس الثالث عشر» و«كليوباترا السابعة»، على أن يتزوجا ويشتركا في الحكم.

ولما كان «الزمار» يعرف مقدار كراهية حاشيته من أهل «الإسكندرية» له ويخشى عدم احترامهم لوصيته فإنه عهد إلى الشعب الروماني الإشراف على تنفيذ الوصية التي أودع نسخة منها في «روما»، كما أودع الأخرى في «الإسكندرية» حتى لا يتصرف الرومان في تنفيذ وصيته كما يشاءون.

بعد تولي «كليوباترا» برفقة أخيها عرش مصر بدأت المشاكل تحاصرها، إذ نشب صراع ونزاع شديدان بينها وبين رجال القصر. ضاقت الملكة الشابة الطموحة ذرعًا من تسلط رجال القصر الذين كانوا يفرضون الوصايا على الملك الصغير، وحينما أرادت «كليوباترا» أن تمارس سلطاتها بشكل مستقل وقفوا في طريقها، مما أدى إلى تأزم العلاقة بينها وبينهم، حتى إن رجال القصر استغلوا صغر سن «كليوباترا» وعدم حنكتها السياسية حين ذاك وحاكوا لها مؤامرة. لقد اتهموها بالتآمر على حياة شقيقها كي تنفرد بالعرش، ونجحوا بالفعل في إثارة شكوك أخيها، بل وفي إثارة جماهير «الإسكندرية» ضدها.

لم تجد «كليوباترا» أمامها سوى الهرب من «الإسكندرية» واللجوء إلى الحدود الشرقية للبلاد، حيث استطاعت أن تجمع جيشًا من البدو، ثم تأهبت للزحف نحو «الإسكندرية» لاستعادة عرشها مرة أخرى. لكن رجال القصر قاموا بتجهيز جيش لصد قوات «كليوباترا» وجعلوه رابضًا على مقربة من «الإسكندرية».

وقتها لم تكن الملكة الشابة الطموحة التي كان كل هدفها استعادة عرشها وإبعاد رجال القصر الراغبين في السيطرة على مقاليد الحكم تتخيل أن تلك الأزمة المحلية سيتعلق عليها مصير العالم القديم كله .. ففي تلك الأثناء وعلى الجانب الآخر من البحر المتوسط حيث تقع «روما»، كان هناك صراع أشرس

على سلطة الإمبراطورية الرومانية نتج عنه حرب أهلية كبيرة بين «بومبي» زعيم الحزب الأرستقراطي و«يوليوس قيصر» زعيم الحزب الشعبي. نجح الأخير في حسم الصراع لصالحه مما اضطر «بومبي» للفرار إلى «الإسكندرية» من أجل الحصول على دعم صديقه المقرب «بطليموس الزمار»، لكنه حينما وصل إلى مصر فوجئ بأن «الزمار» قد مات وأن صراعًا آخر على السلطة قد نشب بين الأخوين. لم يجد أمامه وقتها سوى التوجه إلى معسكر «بطليموس الابن» لكنه بمجرد وصوله إلى شواطئ «الإسكندرية» طعن بواسطة أحد ضباط الحامية الرومانية هناك بأمر من قائد الجيش البطلمي والذي أراد بذلك أن يثبت ولاءه إلى «يوليوس قيصر».

أراك تسأل نفسك الآن مرة أخرى ما علاقة صراع «بومبي» و«يوليوس قيصر» بالصراع الذي نشب بين «كليوباترا» وأخيها، وسأخبرك مرةً أخرى ألا تتعجل. كما قلت لك في السطور الماضية ذلك الصراع المحلي البسيط على السلطة سيكون له أكبر الأثر في تغيير شكل العالم القديم بأثره.

على أي حال في تلك الأثناء كان «قيصر» قد توجه إلى مصر في أعقاب «بومبي»، وحينما وصل إلى «مصر» قام قتلة «بومبي» بعرض رأسه وخاتمه على «قيصر» ظنًا منهم أن هذا التصرف سيرضيه وسيجعلهم يكسبون ثقته، لكن العكس هو ما قد حدث. لقد حزن «قيصر» بشدة، وكان رجال الجيش من البطالمة ورجال القصر يظنون أن «قيصر» سيغادر المياه المصرية بعدما علم بموت عدوه ولكن هذا لم يحدث، بل نزل إلى «الإسكندرية» وسار في طرقاتها التي تزينت بشارات الحكم الروماني بوصف «قيصر» قنصلاً، بل واتخذ أيضًا من قصر البطالمة مسكنًا له معلنًا أنه جاء إلى مصر لينفذ وصية

«بطليموس الزمار» التي أودعها في «روما» والتي تقضي بتولية أبنائه العرش تحت وصايا رومانية.

هنا، بدأت «كليوباترا» تشعر بأن أزمتها قاربت على الحل، خاصةً بعدما أعلن «قيصر» أنه سيتولى التحكيم بينها و بين أخيها ورجال القصر، حتى إنه أمر كلاهما بتسريح جيوشه والامتثال أمامه في القصر، وهو ما فعله أخوها حيث امتثل بالفعل إلى «قيصر» في قصر البطالمة، ولكنه لم يُسرح جيشه بل جعله تحت إمرة أحد أوصيائه على مقربة من «الإسكندرية» لمنع دخول «كليوباترا» إليها ولقاء «قيصر».

كان هذا الوضع يُشكِّل ورطة كبيرة بالنسبة إلى «كليوباترا». إن عدم الامتثال أمام «قيصر» سيُضعف من موقفها، ولكنها في الوقت ذاته كانت تدرك تمامًا أنها لن تستطيع تجاوز جيش أخيها الذي وضعه على مقربة من «الإسكندرية»، كما كانت تخشى أيضًا أن يحدث أي شيء يُفسد علاقتها بـ«قيصر» قبل أن تبدأ. هنا لم يكن أمامها سوى استخدام الدهاء واللجوء إلى مساعدة كاتم أسرارها «أبولودوروس»، حيث قام الأخير بالترتيب لعبورها إلى «الإسكندرية» عبر البحر خفية. لقد هرَّبها داخل بُساطٍ وثيرٍ، ثم حملها داخله إلى مقر إقامة «قيصر» على أنه هدية يريد أن يقدمها له. ولما دخل «أبولودوروس» القصر ووقف أمام «يوليوس قيصر» حل البساط أمامه فخرجت منه «كليوباترا»، كأنها «أفروديت» ربة الجمال، وهو المشهد الذي سحر عيني «قيصر» وجعله يقع في حب «كليوباترا» من النظرة الأولى كما يقولون.

من هذه اللحظة تحديدًا وبهذا اللقاء، يمكننا أن نقول أن مغامرة «كليوباترا» مع التاريخ قد بدأت فعليًا. لقد سحرت الملكة الشابة «يوليوس

قيصر» ليس فقط بجمالها ولكن بذكائها وثقافتها. لقد كانت «كليوباترا» مولعة بالدراسات الأدبية وكانت تتحدث عددًا كبيرًا من اللغات منها: اليونانية والمصرية والآرامية والعبرية والعربية والفارسية والأثيوبية. وهنا يجب أن نذكر أن «كليوباترا» كانت تدرك جيدًا أنه لم يعد لمصر البطلمية قوة تقارن بقوة «روما»، التي تسيدت أغلب العالم آنذاك، بينما كانت هي تحلم باستعادة مجد الإمبراطورية المصرية. وبالتالي، وجدت في إعجاب وحب «قيصر» لها فرصة قوية في تحقيق حلمها وبسط سيطرتها على «روما» أيضًا. وهنا تحديدًا يجب أن أوضح أن «كليوباترا» كان شأنها شأن الشعب السكندري والمصري آنذاك يكره «روما» ويرى فيها مستعمرًا يسعى لجعل مصر مجرد ولاية رومانية بعدما كانت إمبراطورية لها مجدها. لهذا، أرادت «كليوباترا» أن تعكس الصورة وأن تجعل مصر هي القوة الحقيقية في المنطقة بمساعدة الديكتاتور الروماني «يوليوس قيصر».

كانت «كليوباترا» تدرك جيدًا أن علاقتها مع «يوليوس قيصر» تصب في مصلحة مصر وكانت تعلم جيدًا أنها حال إنجابها لولد منه ستتغير ملامح العالم بأثره، حيث سيحكم هذا الولد الذي تجري في عروقه دماء مصرية بطلمية، حيث اجتمعت مصر وروما معًا. لا تتعجب حين تعرف أن «كليوباترا» كانت تخطط لأن تجعل من مصر عاصمة للإمبراطورية الرومانية، نعم كانت تخطط لهذا. لقد كان حُبها لمصر شديدًا. بالرغم من أصولها المقدونية فإنها تشبعت بالحضارة والبيئة المصرية، فغالبًا ما كانت ترتدي ثياب «إيزيس» وتحمل شارتها وتضم حاشيتها عرَّافين وسحرة مصريين. لقد أحبت «كليوباترا» المصريين وهم أيضًا أحبوها.

كما ذكرنا قبل لحظات، كان لقاء «كليوباترا» بذلك العجوز الخمسيني «يوليوس قيصر» نقطة تحول خطيرة في تاريخ العالم القديم. استدعى «قيصر» في اليوم التالي لهذا اللقاء «بطليموس الثالث عشر» للتوفيق بينه وبين أخته ولكن رد فعل الملك الصغير كان صبيانيًا للغاية. فحينما شاهد أخته في رواق «قيصر» غضب بشدة وخرج يجري إلى الشارع يصرخ بكلمة «خيانة». ورغم أن جنود «قيصر» قد أعادوا هذا الصبي مرةً أخرى إلى القصر، فإن صرخاته أثارت إضطرابات كبيرة بين الجماهير الذي حاصروا القصر، مما اضطر «قيصر» للخروج بنفسه لتهدئة الجماهير داعيًا إلى اجتماع شعبي قام فيه بقراءة وصية «بطليموس الزمار»، وهي الوصية التي تمنحه الحق في التدخل في هذا النزاع. ولكي يكسب «قيصر» تعاطف الشعب المصري وقتها وعدهم بإعادة «قبرص» إلى مصر كهدية.

يمكننا قول أن «يوليوس قيصر» قد نجح في الصلح بين الآخوين وفي ترتيب شئون الحكم بينهما. لكن هذا الصلح لم يكن في مصلحة «بوثينوس»، كبير الأوصياء على الملك الذي كان يريد السيطرة على الحكم الأمر الذي جعله يشعر بالخطر الكبير من عودة «كليوباترا» للحكم تحت رعاية ووصاية «يوليوس قيصر»، لأنها بذلك ستصبح الحاكم الفعلي للبلاد ولن يمكنه الوقوف في طريقها. لقد كان يعرف جيدًا أنها ستحاسبه حسابًا عسيرًا على ما فعله معها. سعى «بوثينوس» إلى إحداث الوقيعة داخل القصر، فأخذ في مضايقة الجنود الرومان وإثارة الملك الشاب ضد «قيصر»، بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك حيث خطط إلى اغتيال «قيصر» بدس السم له، ودعوة الجيش البطلمي للزحف نحو «الإسكندرية» للقضاء على «قيصر» وجنوده القلائل

الذين صاحبوه إلى «الإسكندرية»، وهو ما أدى إلى اندلاع ما عُرف تاريخًا باسم «حرب الإسكندرية» في عام 48 قبل الميلاد.

واجه «قيصر» العديد من المواقف الصعبة والحرجة في هذه الحرب، ولولا دهاء «كليوباترا» التي كانت تدعمه وتقف إلى جواره وتقدم له النصائح بحكم درايتها بالجيش البطلمي لكان «قيصر» نفسه قد قتل. لقد ساعدت «قيصر» في التغلب على الكثرة العددية للجيش البطلمي لحين وصول إمدادات له وقوات من اليهود و الأنباط الذين قادهم «قيصر» بنفسه حتى حقق النصر. وبعدما انتصر «قيصر» أعلن «كليوباترا» ملكة منفردة على عرش مصر، وقام بتزويجها من أخيها الأصغر «بطليموس الرابع عشر»، وقضى الشتاء كله في مصر بصحبة حبيبته «كليوباترا»، حيث اتفق الاثنان على إعلان زواجهما بعد عودته إلى «روما».

أشعر أن هناك شيئًا ما لا تفهمه هنا، ألا وهو كيف تم تزويج «كليوباترا» من أخيها الأصغر، وكيف سيتم الإعلان عن زواجها من «يوليوس قيصر» عقب عودته إلى «روما»، وكيف أصلاً يتم زواج الأخوة من بعضهم البعض. حسنًا، اسمح لي أن أوضح لك هذه النقطة.

في البداية، دعني أخبرك أن زواج الأخ بأخته كان طقسًا ملكيًا في مصر القديمة. ويمكننا هنا أن نقول إنه كان زواجًا الهدف منه هو الحفاظ على وحدة الدم والنسل، وكان أشبه ما يكون بالزواج السياسي، وفي أغلب حالته كان زواجًا صوريًا. وهنا أيضًا يجب أن أوضح أن هذا الزواج كان لاينطبق إلا على الآخوين اللذين سيتوليان العرش دونًا عن غيرهما، ولم يكن يحدث بين الأخوة الباقين، أو الأخوة من عامة الشعب مثلاً.

على أي حال، لنكمل مغامرة «كليوباترا» .. بالفعل أثمرت علاقتها مع «يوليوس قيصر» عن طفل اسمته «بطليموس قيصر». وهنا، سعت «كليوباترا» لإثبات شرعية علاقتها مع «يوليوس قيصر»، حيث سجلت على جدران معبد «أرمنت» أنها أنجبت ابنها من الإله «آمون رع» الذي خالطها في صورة «قيصر»، وهو ما يعني أن «كليوباترا» هنا قد أذاعت على الملأ أن «يوليوس قيصر» هو زوجها الشرعي، وصاحب ذلك اعتراف «قيصر» ببنوة ابنه «بطليموس قيصر».

بعد ذلك بعام واحد وتحديدًا في عام 46 ق.م، لحقت «كليوباترا» بـ «يوليوس قيصر» الذي كان قد ذهب إلى «روما» قبلها ببضعة شهور، حيث أنزلها «قيصر» في قصر مهيب على نهر «التيبر» وسط مظاهر الترف والأبهة الشرقية الذي مكثت فيه قرابة العامين .. ولكن اسمحوا لي أن أعود إلى الوراء قليلاً .. حيث يوجد مشهد لا يمكن أبدًا إغفاله، أو تجاهله، ذلك على الرغم من تجاهل الكثير من المؤرخين له والتعامل معه على أنه شيئًا عابرًا. هذا المشهد هو مشهد دخول «كليوباترا» إلى «روما»، وهو المشهد الذي يعد ذروة المغامرة التاريخية لـ «كليوباترا»، فما فعلته كان شيئًا يفوق كل التصورات للدرجة التي أصابت «روما» عاصمة الإمبراطورية بالجنون. لم يكن أحد من سكان تلك المدينة العريقة الذين كانوا يدركون وقتها أنهم أسياد العالم يتخيل، أو يدرك ما يحدث.

حينما دخلت «كليوباترا» إلى «روما» دخلتها في موكب نصر في أعقاب انتصارها هي و«يوليوس قيصر» في حرب «الإسكندرية». المشكلة لم تكن

هنا فقط ولكن في أن هذا الموكب الذي كان مهيبًا وسار أمامها فيه كل الأسرى الذين خلفتهم تلك الحرب، بالإضافة إلى الزرافات وغيرها من الحيوانات جعلته موكبًا احتفاليًا وكأن «كليوباترا» هي التي فتحت «روما». ليس هذا فحسب، بل كانت «كليوباترا» ترتدي ملابس فرعونية هي وابنها «قيصر الصغير» الذي جلس إلى جوارها أثناء دخولهما «روما» محمولين على الأعناق.

هنا، يجب أن أشرح لك شيئًا مهمًا فعلته «كليوباترا» عند دخولها «روما» بهذا المظهر وكأنها ملكة متوجة على عرشها. لم يثر هذا المشهد غضب وغيظ شعب «روما» وحده، بل أيضًا زوجة «يوليوس قيصر» التي كانت لا تزال حية ولها مكانتها المرموقة في عاصمة الإمبراطورية. كانت «كليوباترا» تدرك جيدًا أن القانون الروماني يمنع أن يتزوج الرجل بأكثر من زوجة واحدة وكان يمنع تعدد الزوجات. مع ذلك، كانت «كليوباترا» تتعامل من منطلق أنها زوجة «قيصر» الشرعية ضاربة بقانون «روما» عرض الحائط، بل وحرضت «يوليوس قيصر» على فعل -في عيون الرومان- ما هو أبشع من ذلك.

حُبًا في «كليوباترا»، سعى «يوليوس قيصر» إلى تغيير القانون الروماني وأعد قانونًا عُرف وقتها باسم «قانون زوجات القيصر»، وهو القانون الذي يستثني «القيصر» من قانون منع تعدد الزوجات. ليس هذا فحسب، بل إن «يوليوس قيصر» الذي كان قد تم انتخابه ديكتاتورا لمدة عشر سنوات في عام 46 ق.م الميلاد قد عُيِن قبل شهر واحد من وفاته ديكتاتورا مدى الحياة، بل وجمع في يده كل المناصب الأخرى مثل «القنصل» و«كبير الكهنة» ومُنِح

الكثير من الألقاب المهمة مثل «أبو الوطن»، حتى إنهم أقاموا له تمثالاً مهيبًا في معبد «جوبيتر» وسط تماثيل الآلهة الرومانية.

بدأ الشعب الروماني يدرك خطورة «كليوباترا» وبات يدرك أن مصير «روما» قد أصبح في خطر. إن «كليوباترا» تخطط مع حبيبها «يوليوس قيصر» إلى إلغاء النظام الجمهوري في «روما» وتحويلها إلى ملكية تجلس هي وهو على عرشها، بل وأخذت أنباء وإشاعات تتردد عن نقل عاصمة الحكم إلى «الإسكندرية»، وهو ما يعني أن «روما» العظيمة ستصبح مجرد ولاية في الإمبراطورية الملكية التي سيحكمها «قيصر» و«كليوباترا» ومن بعدهما ابنهما «بطليموس قيصر».

في تلك الأثناء، كانت الحرب بين الرومان والبارثيين قد اشتعلت. استغلت «كليوباترا» بدهاء نبوءة تقول إن الرومان لن يهزموا البارثيين إلا إذا كانوا تحت قيادة ملك. أخذت تروج لهذه النبوءة في مجالسها مع نبلاء وعِلية القوم في «روما» والذين كانوا يأتون إليها في قصرها المهيب ذي الطابع الريفي على نهر «التيبر». وبالفعل، نجحت الخطة حيث تقدم عدد من أنصار «القيصر» باقتراح يقضي بمنح «قيصر» لقب «ملك» على الولايات حتى يتثنى لهم الفوز في الحرب. وبالفعل، تم تحديد جلسة لمجلس «السناتو» يوم 15 مارس عام 44 ق.م لمنح قيصر ذلك اللقب. وهنا لاح في الأفق أن ملكة مصر قد بلغت قمة نجاحها وباتت على وشك تحقيق غايتها. لكن أنصار النظام الجمهوري كان لهم رأي آخر حيث قاموا باغتيال «القيصر» وهو يهم بدخول القاعة ليتوج ملكًا. لم يكن أمام «كليوباترا» وقتها سوى الهروب من «روما» سرًا إلى مصر.

أشعر أنك تسأل نفسك الآن عن قصة حب «كليوباترا» و«أنطونيوس» وهل سأحكيها لك أم لا؟ أعتقد أني سأفعل ذلك ولكن ليس بالصورة التي تتوقعها. ليس هناك ما يدعو لتكرار ما ذُكر عنها من حب وهيام وعشق مفعم. ولكن سأحكي لك ما لم تسمعه عنها من قبل وسأخبرك كيف لم تتخل «كليوباترا» عن حلمها في إعادة عظمة ومجد الإمبراطورية المصرية والقضاء على هيمنة «روما» على العالم.

بعد عودة «كليوباترا» إلى مصر قامت بعزل أخيها الصغير «بطليموس الرابع عشر» وتعيين ابنها بدلاً منه ليكون بذلك حاكمًا معها على عرش مصر تحت اسم «بطليموس الخامس عشر». لكنها في الوقت ذاته أخذت تتقرب أكثر إلى الشعب المصري، فأصبحت تتكلم لغته بشكل دائم وترتدي دائمًا الملابس الفرعونية، حتى إنها صورت نفسها في صورة الإلهة «حتحور» على جدران معبد «دندرة». كما أعلنت «كليوباترا» أنها سليلة «أنوبيس» وسائر الآلهة المصرية. ونهضت بشكل كبير بالاقتصاد المصري وبالزراعة مما جعل مصر تعود إلى أهميتها الدولية كأكبر دولة إنتاجًا وتصديرًا للقمح في العالم.

ومن مصر أخذت «كليوباترا» تراقب عن كثب الموقف في «روما» والحرب الأهلية التي اندلعت هناك في أعقاب اغتيال قيصر، تلك الحرب التي فاز فيها أنصار قيصر بقيادة «أوكتافيوس» و«أنطونيوس»، الأمر الذي ترتب عليه تقسيم حكم الإمبراطورية الرومانية بينهما. حصل «أنطونيوس»

على مهمة الإشراف على الولايات الشرقية ومن بينها مصر التي كانت تحت الوصاية الرومانية وقتها.

هنا، أخذت «كليوباترا» تستغل ذكائها السياسي مرةً أخرى. لقد كانت تدرك جيدًا أن الشرق كان يتطلع للتخلص من السيطرة الرومانية ومن احتلال الرومان لبلادهم. لذلك، حينما ذهبت للقاء «أنطونيوس» ذهبت إليه في موكب بحري مهيب، جعل تلك البلاد ترى فيها الزعيمة المرتقبة التي ستخلصهم من هذا الاحتلال؛ خاصةً بعد ما وصل لهم من أخبار عما فعلته في «روما» من قبل، ذلك الأمر الذي استغلته «كليوباترا» جيدًا، حيث روجت لنبؤه تنذر بسقوط «روما» على يد ملكة وهو ما جعل الكثير من تلك البلاد تلتف حولها.

وبالفعل، نجحت «كليوباترا» في السيطرة على «أنطونيوس» حتى إنه قد أعلن في عام 37 ق.م زواجه منها رسميًا والاعتراف بشرعية أبنائه الاثنين اللذين انجبهما منها، الأمر الذي اعترفت به كل دول الشرق وأيدته في الوقت الذي رفض «أوكتافيوس» الاعتراف به للعديد من الأسباب يأتي في مقدمتها أن أخته «أوكتافيا»، كانت هي الزوجة الشرعية في نظره لصديقه وحليفه «أنطونيوس» ولكن عدم اعترافه بهذا الزواج لم ينجح في تغيير الوضع.

في الواقع لم يكن «أوكتافيوس» يدرك في ذلك الوقت أن زواج «أنطونيوس» من «كليوباترا» لم يكن آخر الكوارث التي ستقع على رأسه وعلى رأس الإمبراطورية الرومانية. بعد ذلك بما يقرب من العام وتحديدًا في عام 36 ق.م، نجحت «كليوباترا» أخيرًا في تحقيق حلمها بإعادة عظمة الإمبراطورية

المصرية والقضاء على الإمبراطورية الرومانية وتمزيقها. أعلن «أنطونيوس» في احتفال مهيب في «الجمنازيوم» بـ «الإسكندرية» تقسيم أراضي الشرق على أبنائه من «كليوباترا» حيث وضع في الاحتفال ستة عروش، عرشان له ولـ «كليوباترا» وهما الأكبر حجمًا، ثم ثلاثة عروش لأبنائه من «كليوباترا» وهم «بطليموس هيليوس»، و«كليوباترا سيلني»، و«بطليموس فيلادلفوس الثاني»، أما العرش الأخير فكان من نصيب «قيصر الصغير».

بالطبع كنت أتمنى أن تنتهي الحكاية، أو المغامرة هنا بتحقيق «كليوباترا» لحلمها. لكن مع الأسف لم يستمر هذا الحلم لأكثر من ست سنوات فقط. ففي عام 30 ق.م نجح «أوكتافيوس» في هزيمة «كليوباترا» و«أنطونيوس» في موقعة «أكتيوم البحرية»، مما أدى إلى انتحار «كليوباترا» بعد سماعها بمقتل «أنطونيوس». انتحرت «كليوباترا» لأنها أبت أن تُعرض كأسيرة في موكب النصر في «روما». انتحرت مستخدمة الأفعى تحديدًا، ظنًا منها أن ذلك سيمنحها الخلود الإلهي وفقًا للعقيدة الفرعونية. وبالتالي، أفسدت على «أوكتافيوس» فرحة انتصاره. لقد كان يعلم جيدًا أن موت «كليوباترا» بهذه الطريقة تحديدًا سيجعلها مقدسة في نظر الشعب المصري وشعوب الشرق أجمع. ومن ثم، قد يكون «أوكتافيوس» قد فاز بالحرب، لكنه خسر الانتصار.

تمت

قبل أن أذكر تعليقي على قصة «كليوباترا» ومغامرتها، يجب أن نتفق على قاعدة مهمة نتعامل بها دومًا مع كل الشخصيات التي سنتحدث عنها في هذا الكتاب، تلك القاعدة هي: التاريخ يُكتب دائمًا وفقًا لهوى المنتصر، وهو ما يعني أن تلك الحرب التي هُزمت فيها «كليوباترا» و«أنطونيوس» على يد القائد الروماني «أوكتافيوس» لو كانت انتهت بعكس ما انتهت عليه حتمًا كنا سنرى تاريخًا مختلفًا وكنا سنرى وصفًا مختلفًا لشخصية «كليوباترا» عبر التاريخ. وربما كانت كتابات المؤرخين المعاصرين لتلك الفترة ستتغنى بعبقرية ودهاء وحكمة «كليوباترا» بدلاً من نعتها ووصفها الدائم بالعاهرة إرضاءً للإمبراطور المنتصر في الحرب. هنا، يجب أن أخبرك أن تلك القاعدة يمكنك أن تطبقها على أي حدث تاريخي مهما كان. أفهم جيدًا يا عزيزي أن التاريخ يكتبه دائمًا المنتصر. فعلى سبيل المثال لا الحصر، اسال نفسك تُرى ماذا ستكون صورة «هتلر» وسيرته الآن إذا ما كان قد انتصر في الحرب العالمية الثانية؟ هل كانت الكتب والمصادر التاريخية ستصفه بما تصفه به الآن، في الواقع أشك في هذا.

هذا تمامًا ما أريد قوله .. ما وصل لنا وما نعرفه عن «كليوباترا» استقاه أغلبنا من الأفلام الأجنبية التي تحدثت عنها، أو من المصادر الأجنبية المعاصرة للفترة التي عاشت بها «كليوباترا»، إن هذه الأفلام لم تظهر لنا تلك الملكة سوى إنها أنثى فاتنة الجمال .. طاغية الأنوثة .. محورحياتها الجنس، لذلك سيطرت على «يوليوس قيصر» عن طريق جمالها، ثم حدث الشيء

نفسه مع «أنطونيوس». إن تلك الأفلام والمصادر لم توضح لنا أي شيء عن فكرها، أو ثقافتها، أو عن اهتمامها بالعلوم، أو حتى عن عقليتها الاقتصادية والسياسية، تلك العقلية التي كادت أن تنقذ الدولة البطلمية من الفناء، وكادت أن تعيد للإمبراطورية المصرية القديمة مجدها لولا سوء الحظ ليس إلا.

حينما نتحدث عن «كليوباترا» يجب أن نضع في اعتبارنا الظروف الاقتصادية والسياسية التي كانت عليها البلاد حينما اعتلت العرش. ليس هذا فقط بل الظروف الإقليمية المحيطة بها، ومدى قوة البلاد العسكرية .. يجب أن نعرف جيدًا أن «كليوباترا» قد ورثت تركة ثقيلة من الديون والمشاكل الاجتماعية والثورات الداخلية والصراعات على الحكم، و بالطبع لم يكن لها ذنب في كل هذا. إن الحالة المزرية التي كانت عليها الدولة المصرية وقتها كانت نتاج تراكمات من الأزمات، ونتاج توقف النمو في الوقت الذي بدأت تظهر فيه على الساحة قوى إقليمية أخرى أكثر تنظيمًا واهتمامًا بالتوسع والقوة العسكرية تحديدًا.

ليس كل ما سبق هو الشيء الغريب في قصة «كليوباترا». لكن الشيء الغريب هو أنه بالرغم من مدى العظمة التي كانت عليها تلك الملكة، فإننا حتى الآن لم نكتشف مقبرتها، ولم نتوصل بعد إلى المومياء الخاصة بها. وهنا يجب أن أوضح أن كل المصادر التاريخية المعاصرة لم تتحدث عن أي تمثيل بجثتها، أو حتى العبث بها. ولكي نكون منصفين يجب أن نعرف أن شخصية

«أوكتافيوس» لم تكن تلك الشخصية التي تفعل هذا بأعدائها. ففي ذلك الوقت، كانت الحروب لها قيم ومبادئ يُطلق عليها مبادئ الفروسية. يمكن أن انتصر عليك في الحرب وأهزمك هزيمة منكرة لكني لا أقبل أبدًا أن أُمثل بجثتك، أو أن أفعل بها أي شيء. يمكننا أن نقول هنا أنه ثبت تاريخيًا أن الكثير من القادة العظام المنتصرين في تلك العصور القديمة قد بجَّلوا جثث قادة آخرين. ليس هذا فحسب، بل أحسنوا معاملة أسراهم من القادة الحربيين العظماء الذين خسروا أمامهم بشرف ورفضوا أن يجردوهم من سيوفهم، لأن السيف في ذلك الوقت كان شرف الفارس.

لهذا، يمكنني أن أقول بكل ثقة إن التاريخ ينتظر بفارغ الصبر اكتشاف المزيد من الوثائق عن تلك الفترة الأخيرة في حياة «كليوباترا» وفترة ما بعد موتها مباشرةً، ربما سيكون بها المزيد من التفاصيل التي نجهلها عن تلك الملكة العظيمة التي كانت مبجلة في الشرق كله وليس في مصر فقط. نعم «كليوباترا» كانت كذلك ويمكننا القول بكل ثقة إنها الملكة المقدونية الوحيدة التي تم تبجيلها من قِبل الشعب المصري والتعامل معها على أنها ملكة فرعونية بعد «الإسكندر الأكبر» الذي كان له مكانة خاصة في نفوس المصريين، وهو الآخر لم نجد مقبرته أو مومياؤه بعد.

أتمنى أن يكون كل ما ذكرته لك عن «كليوباترا» قد ساهم في تغيير تلك الصورة النمطية التي دأبت السينما العالمية على رسمها لها .. وأتمنى أن تكون قد تعرفت بحق على مغامرتها في التاريخ .. وأتمنى أن يصل البحث

العلمي الأثري قريبًا إلى أي شيء يُمكننا من معرفة الكثير من المعلومات عن تلك الفترة التي لا تزال تتسم بالغموض نوعًا ما، ربما لأنها كانت فترة من الاضطرابات العالمية، وكانت بداية العصر الذهبي للإمبراطورية الرومانية التي حكمت العالم لمئات السنين فيما بعد. والآن، لنكمل رحلتنا مع شخصية جديدة .. ربما تكون هي الأكثر غموضًا في التاريخ.

بلقيس

المرأة الأكثر غموضًا في التاريخ



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النمل: ٢٠-٢٤].

«بلقيس» هي واحدة من أصعب الشخصيات التاريخية التي يمكن أن نتحدث عنها .. فالحديث عنها ليس سهلاً لما يكتنفه من تعقيدات ولما يتخلله من جوانب إيمانية وتاريخية وأسطورية، خاصةً أن تلك الملكة قد تم ذكرها في الكتب السماوية الثلاثة بداية من التوراة ووصولاً إلى القرآن الكريم. كما أنها شكلت في الوقت ذاته بؤرة للحكايات والأساطير والقصص المتداولة جيلاً بعد جيل عبر شعبي اليمن وفلسطين. لهذا، نحن الآن بصدد الحديث عن شخصية ليست عادية. ليست عادية لأن كل ما ورد من ذكرها ليس عاديًا. ليست عادية لأن حكايتها يختلط فيها التاريخ بالأسطورة. وكان من الصعب على المؤرخين على مر السنين تحري الدقة في قصتها الحقيقة، ولكن ما أجمع عليه الجميع أن «بلقيس» لم تكن شخصية عادية في التاريخ.

ربما يمكننا القول إن مغامرة «بلقيس» في التاريخ بدأت في الأيام الأخيرة لوالدها على قيد الحياة. يُحكى أنه حينما حضر الملك «شرحبيل بن الهدهاد» الموت دعى وجهاء قومه إلى منزله وأمرهم بقبول أن تخلفه ابنته «بلقيس» في الحكم، وهو الأمر الذي لم يقبل به الكثير منهم بطبيعة الحال، حتى إن منهم

من سأله كيف له أن يترك كل هؤلاء الرجال ويختار امرأة للحكم. ولما كان الملك حكيمًا فقد ابتكر قصة تُرضي قومه وتجعلهم يقبلون «بلقيس» ملكة عليهم. هذه القصة مفادها أن أم الملكة «بلقيس» كانت جنية من بنات ملوك الجان.

هنا اسمح لي بوقفة مبكرة معك عزيزي القارئ، حيث يجب أن أوضح لك أن اختيار الملك لتلك القصة يدل على مدى الذكاء الذي كان عليه حتى في لحظاته الأخيرة في الحياة. كان الملك يُدرك طبيعة قومه وطبيعة الحياة في ذلك الوقت، حيث كان مفهوم الجن في عقول الناس آنذاك مرتبطًا بالخوارق والمعجزات. ومن ثم، كون أم ابنته جنية يعني أن ابنته ستتمكن من حكم قومها، بل وسيجعلها تتميز بقوة لا يملكها كل هؤلاء الرجال. ويجب أن أوضح هنا أن خطة الملك قد نجحت ووافق المجتمعون على أن تخلف «بلقيس» الملك «شرحبيل» على كرسي العرش. لكن هذه القصة التي أجمع المؤرخون على أنها كانت من محض خيال الملك «شرحبيل» تسببت فيما بعد في الكثير من اللغط التاريخي. لقد كانت السبب في انتشار الكثير من الأساطير حول الملكة «بلقيس» وحول علاقتها بالجن، حتى إنه يمكنك أن تجد الكثير من الكتب التي تصفها بأنها «ملكة الجن»، معتمدة في هذا على الكثير من المصادر والإسرائيليات التي وردت عن تلك الفترة. كما كانت السبب الرئيسي في ضياع حقيقة قصة «بلقيس» بين الأساطير التي انتشرت عنها.

نعود مرة أخرى إلى الملكة «بلقيس» التي عُرف عنها أنها كانت شديدة المكر والدهاء والجمال. فقد قيل إنها كانت أجمل نساء الأرض في وقتها. على

أي حال، بعد أن تولت «بلقيس» المُلك لم يُرضي هذا الأمر بعض الرجال وكان منهم رجل قوي يهابه الناس ويخافونه يُدعى «عمرو ذو الأذعار». لقد توجه إليها بجيش لأنه لم يقبل أن يتولى أمر البلاد امرأة. وقتها، لم تكن «بلقيس» على استعداد لمواجهته مما جعلها تهرب هي وأخوها في ملابس أعرابيين. ولكن أثناء هروبهما قام أحد صعاليك العرب من قُطّاع الطرق ويدعى «عمرو بن عباد»، وكان رجلاً يخافه الناس بشدة نظرًا لإجرامه الشديد، باختطاف مجموعة من النساء والأطفال ومنهن نساء من بنات عِلية القوم. فلما علمت «بلقيس» وأخوها بما حدث تراجعا عن الهرب وقررا التدخل لتخليص النساء والأطفال من يد هذا الرجل الهمجي. ويمكن القول أن تلك الحادثة كانت البداية الحقيقة لمغامرة «بلقيس». ولقد نجحت «بلقيس» بالدهاء والحيلة في قتله. دخلت عليه «بلقيس» بدلاً من إحدى النساء اللائي خطفهم، وكانت تخفي في شعرها سكينًا. وحينما انفردت به طعنته حتى الموت وخلّصت النساء وقبائل «حمير» منه. ويذكر المؤرخون أنه حينما سمع «عمرو ذو الأذعار» بما فعلته «بلقيس» وبشجاعتها قال لها أمام الجميع إنها أحق بالمُلك منه وبايعها ملكة على مملكة «سبأ».

اسمح لي أن أتدخل هنا ثانية، وأرجوا منك أن تعتاد على تدخلي في هذه القصة تحديدًا نظرًا لما فيها من تفاصيل كثيرة تختلط فيها الأسطورة بالحقيقة. على أي حال، أود أن أوضح لك أن هذا الجزء من القصة قد ورد بشكل مشوق للغاية في كتاب «التيجان في ملوك حمير» لمؤلفه «وهب ابن منبه»؛ فهذا الكتاب بالرغم من أنه يعيبه خلط الأسطورة بالحقيقة في قصة الملكة

«بلقيس»، فإنه يُعد من أهم المصادر التاريخية التي تتحدث عن تلك الفترة باستفاضة، حتى إنه حكى تلك الواقعة بوصف تفصيلي مبهر للغاية. ولكن كما ذكرت من قبل اختلطت الأسطورة بالحقيقة فيه.

بالطبع، بعد تلك الواقعة استتب أمر المُلك لـ «بلقيس» حتى إن البلاد ازدهرت في عهدها بشكل كبير. أخذت «بلقيس» في توسيع رقعة بلادها حتى امتدت حدود مملكتها إلى «نهاوند» و«أذربيجان» و«بابل» في العراق، بل وتتحدث بعض المصادر التاريخية عن أن نفوذ حكمها قد وصل إلى «مكة». وهذا يعني أن الملكة «بلقيس» كان لها جيش عظيم تقوده، تمامًا كما جاء ذكرها في «سورة النمل» في قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ **[النمل: ٢٩ - ٣٣]**

نعم، كان لدى «بلقيس» جيش عظيم. كانت بلادها مزدهرة اقتصاديًا وماليًا بشكل كبير، مما ساعدها في بناء حضارة قوية وفي بناء الكثير من المعابد والقصور، التي جعلت بلادها لا يضاهيها بلد آخر في ذلك الوقت. هنا، يجب أن نعرف أمرًا مهمًا ألا وهو أن الملكة «بلقيس» قد نجحت في النهوض ببلادها بهذا الشكل المذهل وتكوين جيش عظيم في سبع سنوات فقط، وهي مدة زمنية قياسية في تلك الحقبة الزمنية. ربما كان ذلك أحد أهم الأسباب في

انتشار الكثير من الأساطير عنها، بل وتأكيد الحكاية الملفقة التي حكاها أبوها عنها عند احتضاره، تلك التي مفادها أن أم «بلقيس» هي إحدى بنات ملوك الجن. لم يكن سهلاً على الناس في ذلك الوقت تقبل فكرة هذا النمو السريع على كل المستويات خاصةً لو كان يجلس على كرسي الحكم امرأة يأتمر الرجال بإمرتها. بعد سبع سنوات من حكم «بلقيس» وصلت بلادها إلى مرحلة من القوة لا يستهان بها حتى إنه يُحكى أن تلك القوة والعظمة كانت السبب في تكبر الكثير من أهلها، حيث شعروا أنهم أقوى وأفضل شعوب الأرض.

هنا، نأتي إلى النقطة الأكثر جدلاً وتشويقًا في قصة «بلقيس» ملكة «سبأ»، ألا وهي علاقتها بنبي الله «سليمان» عليه السلام وذلك اللقاء الذي حدث بينهما الوارد ذكره في القرآن الكريم وفي كل الكتب السماوية.

قبل أن ننتقل لهذا الجزء من القصة اسمح لي عزيزي القارئ أن أتدخل ثانيةً لكي أخبرك أن هذا الجزء تحديدًا مليء بالغموض وبه الكثير من التفاصيل المختلفة التي وردت في الكتب السماوية الثلاثة. هذا بخلاف ما جاء في الإسرائيليات وما جاء في كتب المصادر التاريخية المختلفة، إلى جانب الكثير من الأساطير التي اختلطت بالحقيقة. ولكي يطمئن قلبي إلى ما أنقله لك من تفاصيل اسمح لي أن يكون الأساس الذي سأبني عليه القصة هنا هو ما جاء ذكره في القرآن الكريم. ونظرًا لأن تفاصيل قصة «بلقيس» ونبي الله «سليمان» عليه السلام لم تُذكر كاملة في القرآن، سيتم تتبع بقية أحداثها من الكتب السماوية والمصادر التاريخية بما لا يختلف مع ما ورد في القرآن الكريم. هذا يعني أن

بدايتنا هنا ستكون من عند هدهد «سليمان» عليه السلام، وهي الرواية نفسها التي ذُكرت في كتابات اليمنيين اليهود.

كما تعلمون كان لنبي الله «سليمان» عليه السلام جيوشه من الحيوانات والطيور والجن، سخرهم الله له كما سخر له الريح تجري بأمره. كان نبي الله «سليمان» عليه السلام يعرف لغة الحيوانات أجمع، ويسيطر على الجن بكل أشكالهم وخواصهم ويسخرهم في الكثير من أعمال البناء. ذات يوم، تفقد النبي الكريم جيشه، فلم يرَ الهدهد في مكانه فغضب غضبًا شديدًا وتوعد بمعاقبته وتعذيبه إذا لم يأتِ بعذر يبرر غيابه دون إذن. وحينما عاد الهدهد جاء ومعه خبر قوم «سبأ» .. حيث أخبر الهدهدُ نبيَّ الله «سليمان» عليه السلام أنه قد اطلع على أمر قوم يعبدون الشمس من دون الله وتحكمهم امرأة لها عرش عظيم. إن وصف العرش بكونه عظيم يدل على مدى قوة ورخاء هذه المملكة التي كانت تحكمها «بلقيس». ولما انتهى نبي الله «سليمان» عليه السلام من سماع حديث الهدهد أمره أن يذهب إليها برسالة فيلقيها عليها، ثم ينتظر ليرى ماذا ستفعل. ففعل الهدهد ما أمره به النبي وألقى كتاب نبي الله في حِجر الملكة «بلقيس». طلب النبي في هذا الكتاب من ملكة «سبأ» أن تُسلِم هي وقومها إلى الله وأن يتوقفا عن عبادة الشمس من دون الله.

وقتها لم تدرِ «بلقيس» ماذا عساها أن تفعل. فما كان منها إلا أن جمعت مستشاريها التي اعتادت أن تأخذ برأيهم في كل شيء. يوضح هذا لنا هذا التصرف مدى ذكاء «بلقيس» كامرأة حاكمة. فبالرغم من أن المُلك قد

استتب لها، فإنها لم تهمش رجال قومها، ولم تتجاهلهم، أو تُصغر من شأنهم، بل جعلت لهم مكانة تشعرهم دومًا بأن لهم دورًا عظيمًا في المملكة. على أي حال، جمعت «بلقيس» رجالها وأطلعتهم على الرسالة التي وصلتها من نبي الله «سليمان» عليه السلام. وهنا يذكر عدد من المصادر التاريخية أن قومها ورجالها حاولوا أن يسخروا من نبي الله سليمان عليه السلام، ذلك نظرًا لقوة جيشهم وعظمتهم حتى إن بعض الكتب تذكر أن أحد مستشاري «بلقيس» قال لها: «مَن سليمان هذا؟ لم أسمع به من قبل». وتتفق هذه الحكاية مع ما جاء في القرآن الكريم حيث ذُكر في سورة النمل أن قومها قالوا لها إنهم أصحاب قوة وبأس، وهو ما يعني أنهم كانوا يحرضونها على عدم الانصياع لكلام نبي الله «سليمان» عليه السلام والاعتماد على القوة و الحرب.

وفي هذا الموقف يظهر أيضًا مدى حكمة «بلقيس»، حيث رفضت اللجوء للحرب كخيار أول، وأخبرت مستشاريها أن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة، وهو الأمر الذي يوضح أنها كانت لا تفضل اللجوء إلى الحرب أولاً نظرًا لما تعرفه عنها من مخاطر وأهوال. وبالتالي، قررت أن تسلك سبيلاً آخر هو طريق السِلم والتودد لنبي الله «سليمان» الذي كان في ذلك الوقت أعظم ملوك عصره.

يجب أن نذكر هنا أن «بلقيس» لو لم تكن شخصية حكيمة وتتميز بالذكاء لغرها كلام مستشاريها وقوة جيشها، وانجرفت في طريق الحرب مع النبي «سليمان» عليه السلام. ولكن رغم كل القوة التي كان عليها جيشها، وهو الأمر

الثابت تاريخيًا، فإنها لم تفعل هذا ولم تنخدع بقوة بلادها ولا جيشها، وهو الأمر الذي يوضح لنا أنها كانت أكثر ذكاءً وحكمة من كل الرجال الذين أحاطوا بها رغم عظمة شأنهم. ويجب أن نشير هنا أيضًا أنه كان من السهل عليها الانصياع إلى ما قاله رجالها، ولكنها كانت لا تعلم إلا القليل عن نبي الله «سليمان»، وهو ما يعني أنها كانت ستواجه عدوًا مجهولاً بالنسبة لها. لهذا فضّلت «بلقيس» الحلول الدبلوماسية.

قررت «بلقيس» أن ترسل إلى نبي الله «سليمان» عليه السلام ما يمكننا وصفه بالوفد الدبلوماسي المُحمَّل بالهدايا العظيمة أملاً في كسب وده من ناحية ومن ناحية أخرى الاطلاع على ملكه وقوة جيوشه ومملكته. هذا يعني أن وفد «بلقيس» للنبي «سليمان» عليه السلام كان له مهتمين: الظاهرة هي التفاوض معه والباطنه هي الاستطلاع ومعرفة مدى إمكانات ملكه. ولكن حينما رأى النبي الكريم الهدايا التي أتوا إليه بها أوضح لهم أنه يدعوهم إلى عبادة الله وأنه لا يغريه المال ولا الهدايا لأن ما منحه الله له أكبر بكثير من كل ما يملكونه، وتوعدهم بأن يغزو بلادهم بجيوش لا قِبل لهم بها من الأنس والجن والحيوانات إن لم يفعلوا.

حينما عاد إليها رسلها وأخبروها بما شاهدوه في مملكة نبي الله «سليمان» عليه السلام، وما اطلعوا عليه من قوته ومن قوة جيوشه وعظمتها، أدركت «بلقيس» أنه لم يعد أمامها غير التوجه إليه بنفسها طلبًا في السلام والرضا لعله يكف بأسه عن بلادها .. في الوقت نفسه كان نبي الله «سليمان» عليه السلام

يجهز لخطة تجعل «بلقيس» تدرك أنه لا سبيل لديها غير الإيمان بالله وعظمته. طلب النبي من خدمه من الجن المسخرين له بأمر الله أن يأتوا له بعرشها العظيم، وهو ما قد تم بالفعل. أصاب «بلقيس» الذهول والدهشة والحيرة حينما رأت عرشها في قصر نبي الله «سليمان» عليه السلام، ولم تكن تدرك إن كان هذا هو عرشها فعلاً أم أنه عرشًا يُشبهه. وبالطبع، لا يمكن أن نغفل انبهارها بقصر نبي الله. لقد كانت أرضيته من الزجاج ويقبع على سطح الماء، حتى إنها انخدعت من المظهر وحسبت أن الأرض ممتلئة بالمياه فرفعت طرف ثوبها خوفًا من أن يبتل بالماء.

بعد هذا اللقاء الذي جمع بين «بلقيس» ونبي الله «سليمان» عليه السلام استسلمت هي وقومها وتخلوا عن عبادة الشمس وغيرها من الأشياء التي كانوا يعكفون على عبادتها. وهنا، يجب أن أوضح أن تفاصيل ذلك اللقاء كانت تتصف بالغموض. ولا توجد أية تفاصيل مذكورة عنه سوى في بعض المصادر التاريخية وفي بعض كتابات الإسرائيليات وكتابات اليهود اليمنيين التي أوضحت أن الملكة «بلقيس» قد حاولت اختبار حكمة ومعرفة نبي الله «سليمان» عليه السلام بطرح مجموعة من الأسئلة عليه، وهذه الأسئلة في طبيعتها أشبه ما تكون بالفوازير، لكنه تمكن من حلها. وبالطبع لا ترقى تلك الحكايات إلى مستوى الحقيقة لعدد كبير من الأسباب التي تأتي في مقدمتها الأسباب العقلية. كيف لملكة بقوة «بلقيس» وحكمتها أن تترك كل المعجزات التي رأتها بعينيها من صرح ممرد من قوارير إضافة إلى عرشها الذي نُقل من اليمن إلى فلسطين، وكل ما هو تحت إمرة نبي الله «سليمان» عليه السلام من ملوك

الجان والطيور والحيوانات، ثم تطرح عليه مجموعة من الفوازير الساذجة لتتأكد من نبوته وحكمته.

إلى هنا تكون قصه ومغامرة هذه الملكة العظيمة قد انتهت تاريخيًا ودينيًا، ولكن يجب أن نوضح أن الكثير من علماء الدين والتاريخ، قد ذهبوا إلى أن نبي الله «سليمان» عليه السلام قد تزوج من الملكة «بلقيس». ولكن أمر هذا الزواج غير مؤكد ولم يُذكر إلا في المصادر التاريخية التي تعود إلى اليهود فقط، لكن هناك شبه إجماع على أن هذا الزواج قد تم. وعلى الرغم من أن قصة الملكة «بلقيس» قد انتهت فعليًا هنا، فإنها واقعيًا لم تنته. إن حياة هذه الملكة ومملكتها لا تزال قصة مشوقة للكثير من علماء الآثار الذين لازالوا يقتفون أثرها في اليمن، ولا زالت الأرض تحتوي على الكثير من الأسرار والحكايات التي لم تُكشف بعد. ربما نكتشف فيما بعد الكثير من الأسرار التي تصحح سيرة تلك الملكة العظيمة وتساهم في تنقية سيرتها من الأساطير التي دخلت عليها.

تمت

من المفارقات الغريبة أن حكاية الملكة «بلقيس» ظلت في نظر الكثير من المؤرخين المعاصرين مجرد حكاية أسطورية ليس لها أي وجود سوى في التراث الشعبي وفي العقلية الدينية للمسلمين واليهود على حدٍ سواء. ظل هذا الاعتقاد راسخًا لدى الكثير حتى عام 1988، وهو العام الذي تم فيه اكتشاف ما يُعرف حاليًا بمعبد «القمر» في اليمن، ذلك الصرح الأثري الذي ضرب كل النظريات المشككة في وجود الملكة «بلقيس» في مقتل.

هذا الكشف الأثري هو قصر الملكة «بلقيس» الذي ظل مدفونًا تحت الكثبان الرملية حتى تم الكشف عنه بالصدفة. وربما ترجع القيمة العلمية والتاريخية لهذا الكشف إلى تلك الكتابات التي وجدت مدونة على الجدران إلى جوار عرش الملكة. إن هذه الكتابات تصف الإنجازات والنجاحات على المستويين السياسي والاقتصادي بالإضافة إلى مدى النمو والازدهار العسكري والزراعي والتجاري. ولعلنا نفهم هنا مدى القوة التي وصلت لها تلك المملكة في عهد «بلقيس».

أما الجزء المهم في ذلك الكشف فيتمثل في عرش الملكة «بلقيس»، وهو العرش الذي وصف في القرآن الكريم بأنه عرش عظيم. وبالفعل كان كذلك. فالعرش الذي تم الكشف عنه يعد أكبر عرش ملكي تم الكشف عنه في التاريخ حتى الآن، حيث كان يحيط به ستة أعمدة عملاقة، بالإضافة إلى مساحته الكبيرة. فعندما كانت تجلس الملكة عليه، كانت ترى كل من يجلس معها في بهو الحكم من النبلاء، أو حتى العامة في صورة أصغر من حجمهم الطبيعي؛ ذلك بسبب وجود العرش على ارتفاع من المقاعد المخصصة لبقية الأشخاص. وكانت الملكة تصعد عددًا من الدرجات التي شكلت جزءًا لا يتجزأ من العرش للوصول إلى مجلسها في العرش.

كما ذكرت لكم في الوقائع التاريخية لقصة الملكة «بلقيس» إن تاريخها يكتفنه الكثير من الغموض بسبب العديد من الأساطير التي تداخلت به، وربما كان أكثر تلك الأساطير تشويقًا هي قصة نسبها لأم جنية. لهذا اخترت تلك القصة الأسطورية دونًا عن غيرها لكي أقصها عليكم لعدد

من الأسباب. بخلاف كونها قصة مشوقة، فإنها كانت السبب الرئيسي في استتباب الحكم لـ «بلقيس»، حيث نظر لها قومها على أنها مميزة عنهم وعن كل رجال قومها وأنها أحق بالحكم من أي منهم حتى لو كانت امرأه.

لهذا، سأنقل لكم نص القصة التي وردت في عدد من الكتب التاريخية ومنها كتاب «التيجان» لمؤلفه «وهب ابن منبه»، كما هي دون أي تدخل أو تعديل مني:

«قال أبو محمد، حدثنا ابن لهيعة عن مكحول عن أبي صالح عن ابن عباس قال: إنه لما تولى الهدهاد بن شرحبيل، زحف إليه عمرو ذو الأذعار وبرز إليه الهدهاد والتقوا بموضع معروف باليمن فتحاربوا أيامًا فلما فصل الطرفان، وبرز بعضهما إلى بعض خرج الهدهاد على ناقة في زي أعرابي حتى وصل إلى عساكر عمرو ذي الأذعار، فطاف به وتدبر عساكره، ثم سمع لغطهم وما يتوعدون به عمراً ذا الأذعار من الخذلان واسترق ما يريدون له فزاده ذلك عزماً إلى لقاء عمرو، فانصرف الهدهاد يريد عساكره، فسار حتى بلغ إلى شرف العالية في يوم قائظ أجرهدت [اشتدت] فيه الصخور، والتهبت الهواجر وقال الضب [نام القيلولة]، فنظر إلى شجاع [ثعبان] أسود عظيم هارب وفي طلبه رقيق أبيض فأدركه فاقتتلا حتى لغبا [تعبا]، ثم افترقا، ثم أقبل الشجاع الأبيض إلى الهدهاد فتشبث مع ذراع ناقته حتى بلغ رأسه إلى كتفها ففتح فمه كالمستغيث، ثم عطف في طلب الأسود فأدركه فاقتتلا طويلاً فلغبا فافترقا، وأقبل الأبيض إلى الهدهاد كما فعل أولاً كالمستغيث فصب الهدهاد

الماء في فيه حتى روي، ثم أقبل على الأسود وأخذه، فلم يزل الأبيض حتى قتل الأسود، ثم مضى على وجهه حتى غاب عنه، ومضى الهدهاد إلى شِعْب [وادي] عظيم فاختفى فيه، فبينما هو مستتر بشجر أراك إذ سمع كلاماً فراعه [أخافه] سيفه فأقبل إليه نفر جان حسان الوجوه عليهم زي حسن فدنوا منه فقالوا: عم صباحاً يا هدهاد. لا بأس عليك وجلسوا وجلس فقالوا له: أتدري من نحن؟ قال: لا. قالوا: نحن من الجن ولك عندنا يد عظيمة. قال: وما هي؟ قالوا له: هذا الفتى أخونا من أبناء ملوكنا هرب له غلام أسود فطلبه فأدركه بين يديك فكان ما رأيت وفعلت فنظر الهدهاد إلى شاب أبيض أكحل في وجهه آثار خدش. قال له: أنت هو! قال: نعم، قالوا له: ما جزاؤك عندنا يا هدهاد إلا أخته نزوجها منك وهي رواحة بنت سكن. فزوجوه إياها وقالوا له: لها عليك شرط لا تسألها عن شيء تفعله مما تستنكر منها فإن سألتها فهو فراقها قال: نعم، قالوا له ارجع إلى قصرك بينون فإنها تأتيك ليلة كذا ارجع فلا تقم لأن عمر ذا الاذعار رجع إلى غمدان بعد انصرافك عنه، فرجع الهدهاد وفرق عساكره، ولحقه الخبر أن عمرًا رجع فجلس في الليلة التي أمروه أن يجلس فيها مرتقباً حتى أحس ثقلاً في القصر وهرب جميع من معه في القصر من ثقل الذي أحسوه ووحشة داخلت قلوبهم حتى أتوا بها إليه فأدخلوها عليه وأولدها ولداً ذكراً، فلما شب وصار ابن سنة، فبينما هو يناعيه اذ أقبلت كلبة من باب المجلس فأخذت برجل الطفل وجرته حتى ذهبت به عنه فغاب فنظر إلى رواحة فسكتت وسكت، ثم ولدت أنثي فلما صارت

بذلك السن أتت الكلبة فجرت برجلها وهو ينظر فسكت وغابت عنه، ثم ولدت ذكراً، فلما بلغ سن أخيه وأخته أتت الكلبة وفعلت ما فعلت أولاً قال لها: يا رواحة، قالت له: كيف؟ قال لها: أكف ما نال هؤلاء الأطفال؟ قالت له: فارقتك يا هدهاد اعلم إنه لم يجر منهم أحد بل هم محمولون وتلك درة تحملهم وتربيهم حتى يبلغوا خمس سنين فيأتوك أنقياء. فأما ابنك الأول فقد مات أحسن الله عزاءك فيه وأما الآخر فإنه يأتيك وليس يعيش بعد أبي وهو يموت، وأما ابنتك فإنها تأتيك وتعيش لك. ثم ذهبت عنه بعدها ووجد في الفراش ابنه وبنته بلقيس فمات الصبي وعاشت بلقيس».

الجدير بالذكر هنا أن تلك القصة لاقت قبول واستحسان عدد من العلماء منهم الإمام «القرطبي» الذي قال في تفسير قول الله تعالى على لسان هدهد سليمان عليه السلام: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النمل: ٢٢-٢٣]. إن المرأة كانت «بلقيس» وكانت أمها ابنة أحد ملوك الجان، لهذا كان لها من كل شيء وكان لها عرش عظيم. اعترف الإمام «القرطبي» في تفسيره بتلك الواقعة وأكدها، بل ولم ينكر فكرة زواج الإنس من الجن، مؤكدًا على أن هناك طوائف من الجن كانت مسلمة مؤمنة موحدة.

في الواقع، أنا لست مقتنعًا بهذا الكلام نهائيًا. ولكن أقتدت الأمانة العلمية أن أنقله لك كما هو وأن أنقل ما قاله الإمام «القرطبي» فيه حيث إنه يعد أحد أئمة التفسير. لكن يجب أن ندرك أن «القرطبي» مجرد بشر قد

يصيب وقد يخطئ وأن ما قاله هو مجرد تفسير مبني على قناعات شخصية له. هذا لا يعني مطلقًا أن ما قاله يمكننا التعامل معه على أنه حقيقة مسلم بها ولكن وجب ذكره من باب الأمانة العلمية، كما ذكرت من قبل. لكن هذا لا يعني أنني اسلم بهذا الحديث. إن قصة زواج «شرحبيل» والد «بلقيس» من إحدى بنات الجن بالنسبة لي تعد ضربًا من ضروب الخيال والأساطير الشعبية فقط لا غير ولا يمكن قبولها نهائيًا، حتى وإن بني عليها العشرات من الكتب التي تصف «بلقيس» على أنها كانت ملكة الجن أيضًا.

والآن، لننتقل إلى مغامرة جديدة في رحلتنا، لكنها مغامرة يُضرب بها المثل في الخيانة، فإلى هناك ...

دليلة

ومن الحب ما قتل



«فقالت له كَيْفَ تَقُولُ أُحِبُّكِ، وَقَلْبُكَ لَيْسَ مَعِي؟ هُوَذَا ثَلاَثَ مَرَّاتٍ قَدْ خَتَلْتَنِي وَلَمْ تُخْبِرْنِي بِمَاذَا قُوَّتُكَ الْعَظِيمَةُ وَلَمَّا كَانَتْ تُضَايِقُهُ بِكَلاَمِهَا كُلَّ يَوْمٍ وَأَلَحَّتْ عَلَيْهِ، ضَاقَتْ نَفْسُهُ إِلَى الْـمَوْتِ، فَكَشَفَ لَهَا كُلَّ قَلْبِهِ، وَقَالَ لَهَا: «لَمْ يَعْلُ مُوسَى رَأْسِي لأَنِّي نَذِيرُ الله مِنْ بَطْنِ أُمِّي، فَإِنْ حُلِقْتُ تُفَارِقُنِي قُوَّتِي وَأَضْعُفُ وَأَصِيرُ كَأَحَدِ النَّاسِ».

سفر القضاة - الأصحاح السادس عشر

ربما يعرف معظمنا قصة «شمشون» الجبار وخيانة حبيبته «دليلة» له، وحتى إن لم يكن معظمنا يعرف بالقصة فبالتأكيد قد ورد على سمعنا اسم «شمشون». ولكن مع الأسف، إن جميع من سمع بتلك القصة يعرف الكثير والكثير عن «شمشون» وعن حكايته ولكن «دليلة لا يعرف بعضنا الكثير عنها، حتى إن البعض لا يعرف عنها سوى أنها كانت السبب في قص شعر «شمشون» وإضعافه. لهذا، سنخصص تلك المساحة للحديث عن تلك الشخصية التاريخية التي صارت رمزًا للخيانة على مر التاريخ.

في البداية اسم «دليلة» هو اسم عبراني يعني «الرقيقة» أو «الأنيقة »، وهو ما يعني أننا كما يقولون أمام شخصية ذات اسم على مسمى. يُحكى أن صاحبة هذه القصة كانت من أجمل النساء في بلادها فلسطين، إن لم تكن أجملهن على الاطلاق. نشأت هذه الجميلة في بلدة كانت تُعرف باسم «وادي سورق»، وهي مدينة كانت توجد شرق «أورشليم»- القدس - من ناحية البحر المتوسط. وقد اشتهرت هذه المدينة بالزهور النادرة ذات الروائح العبقة والتي كانت تُستخدم في صناعة أفضل وأجود أنواع العطور وقتها.

عُرف عن «دليلة» أنها كانت قوية الشخصية تمتلك سحرًا لا يستطيع أحد مقاومته، بالإضافة إلى أنها صاحبة قدرة عقلية كبيرة وعزيمة قوية. باختصار، كانت «دليلة» شخصية متعددة المواهب، ولكن مع الأسف الشديد لا يوجد الكثير من المعلومات عن طفولتها، ولا حتى عن أسرتها، ولكن يقال إنها كانت يتيمة الأبوين وبلا عائلة وكانت تتولى أمر نفسها بنفسها.

تبدأ قصة «دليلة» من عند «شمشون» الجبار، الذي كان أحد أبطال «بني إسرائيل» في ذلك الوقت من التاريخ. ويعتقد أن بداية هذه الحكاية كانت في عام 1209 ق.م، حيث كان «شمشون» أحد قضاة «بني إسرائيل» الذين ورد ذكرهم في الكتاب المقدس. ولد «شمشون» وبه قوة عجيبة لا مثيل لها. في ذلك الوقت كان هناك ما يشبه العداوة بين «بني إسرائيل» الذين اتخذوا من «أورشليم» موطنًا لهم وبين أهل فلسطين الذين لم يجدوا مكانًا ليعيشوا فيه سوى تلك المساحة بين «غزة» و«حيفا». وفي تلك الفترة الزمنية بلغ هذا الصراع أشده وبفضل قوة «شمشون» تمكن «بنو إسرائيل» من بسط نفوذهم على الفلسطينيين، حيث راح «شمشون» ينكل بهم ويحرق زرعهم ويقطع أشجارهم ويقتل نسائهم وأطفالهم وينهب بيوتهم ومواشيهم.

ولما زاد بطش «شمشون» بأهل فلسطين، وكان «شمشون» يدعي أن كل ما يفعله بهم يفعله باسم الرب، فكر أهل فلسطين في الانتقام منه لعله يكف عما يفعله بهم، فقاموا بتدبير خطة لاختطاف زوجته ونجحوا فيها بالفعل. لكن «شمشون» لم يقف صامتًا متفرجًا فخرج إليهم وقام بحصارهم وحرق زرعهم بما فيه أشجار الزيتون وحرر زوجته ورحل بعد أن خلف ورائه مدينة شبه مدمرة.

بعد هذه الحادثة فكر أهل فلسطين في حل يخلصهم من هذا الجبار، وانتهى بهم تفكيرهم إلى استخدام الحيلة نفسها التي طالما استخدمها اليهود منذ نزولهم إلى أرض فلسطين، فلما كانوا يسلطون النساء على أعدائهم فلماذا لا يستخدمون السلاح نفسه الذي يستخدمه أعدائهم من اليهود منذ فجر التاريخ وحتى الآن. وبالفعل، أخذوا يفتشون فيما بينهم عن تلك المرأة التي يمكنها السيطرة على قلب «شمشون» وعقله ومعرفة سر قوته وكيف يمكنهم أن يتغلبوا عليه.

وفي أثناء ذلك اكتشفوا أن «شمشون» يحب فتاة فلسطينية تُدعى «دليلة»، وأنه أُعجب بها وصار يعشقها ويتردد على بيتها كل ليلة حتى أقام معها في نهاية الأمر، وهو ما يعني أنهم قد وجدوا ضالتهم. أخذوا في التحري عن الفتاة وعن نسبها وأصلها. وهنا كانت المفاجأة حيث اكتشفوا أن الفتاة التي كان يشاع عنها أنها يهودية لم تكن كذلك، فقرروا أن يتواصلوا معها وهو ما كان بالفعل حيث التقى بها نبلاء الفلسطينيين وعرضوا عليها مساعدتهم.

كان العرض بالنسبة لـ «دليلة» مغريًا جدًا. فكل المطلوب منها هو أن تجعل «شمشون» يحبها أكثر ويثق بها، حتى تعرف منه سر قوته وتتمكن من معرفة الوسيلة التي تمكن قومها منه للتخلص من بطشه. كان ذلك في مقابل أن يدفع لها كل رجل من نبلاء القوم ألفًا ومائة من الفضة، وهو المبلغ الذي كان يعد مبلغًا كبيرًا جدًا في ذلك الوقت .. وبالطبع لم يكن هذا عرضًا يمكن لها أن ترفضه، فهي تعرف وتسمع عما يفعله «شمشون» بقومها بالإضافة إلى أنها كانت لا تأمنه أيضًا وكانت تخشى أن ينقلب عليها يومًا، أو أن يكشف سرها فينكل بها كما يفعل بقومها، بالإضافة إلى أنها بذلك تساعد قومها ولا

يمكن أن يعتبر ما تفعله خيانة، فهي إن خانت فهي تخون عدوًا لها ولقومها وهو الأمر الذي يعتبر فضيلة وليس جريمة، لهذا لم ترفض العرض ووافقت على الفور.

ولما كانت «دليلة» تتمتع بدهاء ومكر شديدين، أخذت تستعد لمهمتها بكل ما تملكه من ذكاء وقوة عقل. أخذت «دليلة» تتقرب أكثر من «شمشون» وتجعله يتحدث أكثر عن نفسه بصورة لا تجعله يشك فيها مطلقًا. كانت تختار الأوقات المناسبة لتطرح عليه سؤالاً عن سر قوته. لكن «شمشون» لم يكن أيضًا بالشخص السهل المراس، فكان يتهرب في كل مرة من السؤال، أو يكذب عليها في رده أو يراوغ. وظل الوضع هكذا لفترة طويلة .. «دليلة» تسأل و«شمشون» يتهرب إلى أن جاء اليوم الذي لم يتمكن فيه «شمشون» من مراوغة «دليلة» وأخبرها بسره.

هنا، يجب أن أذكر أن تفاصيل تلك الواقعة تحديدًا قد وردت بالتفصيل بشكل شيق في الكتاب المقدس في «سفر القضاة، الأصحاح السادس عشر». لهذا، اسمحوا لي أن أنقل لكم النص كما ورد في الكتاب المقدس لما فيه من توضيح وتفسير وشرح للقصة:

«وَكَانَ بَعْدَ ذلِكَ أَنَّهُ أَحَبَّ امْرَأَةً فِي وَادِي سُورَقَ اسْمُهَا دَلِيلَةُ. فَصَعِدَ إِلَيْهَا أَقْطَابُ الْفِلِسْطِينِيِّينَ وَقَالُوا لَهَا: «تَمَلَّقِيهِ وَانْظُرِي بِمَاذَا قُوَّتُهُ الْعَظِيمَةُ، وَبِمَاذَا نَتَمَكَّنُ مِنْهُ لِكَيْ نُوثِقَهُ لإِذْلاَلِهِ، فَنُعْطِيَكِ كُلُّ وَاحِدٍ أَلْفًا وَمِئَةَ شَاقِلِ فِضَّةٍفَقَالَتْ دَلِيلَةُ لِشَمْشُونَ: «أَخْبِرْنِي بِمَاذَا قُوَّتُكَ الْعَظِيمَةُ؟ وَبِمَاذَا تُوثَقُ لإِذْلاَلِكَ؟» فَقَالَ لَهَا شَمْشُونُ: «إِذَا أَوْثَقُونِي بِسَبْعَةِ أَوْتَارٍ طَرِيَّةٍ لَمْ تَجِفَّ، أَضْعُفُ وَأَصِيرُ كَوَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ». فَأَصْعَدَ لَهَا أَقْطَابُ الْفِلِسْطِينِيِّينَ سَبْعَةَ

أَوْتَارٍ طَرِيَّةٍ لَمْ تَجِفَّ، فَأَوْثَقَتْهُ بِهَا، وَالْكَمِينُ لابِثٌ عِنْدَهَا فِي الحُجْرَةِ. فَقَالَتْ لَهُ: «الْفِلِسْطِينِيُّونَ عَلَيْكَ يَا شَمْشُونُ». فَقَطَعَ الأَوْتَارَ كَمَا يُقْطَعُ فَتِيلُ الْمُشَاقَةِ إِذَا شَمَّ النَّارَ، وَلَمْ تُعْلَمْ قُوَّتُهُ. فَقَالَتْ دَلِيلَةُ لِشَمْشُونَ: «هَا قَدْ خَتَلْتَنِي وَكَلَّمْتَنِي بِالْكَذِبِ، فَأَخْبِرْنِيَ الآنَ بِمَاذَا تُوثَقُ؟». فَقَالَ لَهَا: «إِذَا أَوْثَقُونِي بِحِبَالٍ جَدِيدَةٍ لَمْ تُسْتَعْمَلْ، أَضْعُفُ وَأَصِيرُ كَوَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ». فَأَخَذَتْ دَلِيلَةُ حِبَالًا جَدِيدَةً وَأَوْثَقَتْهُ بِهَا، وَقَالَتْ لَهُ: «الْفِلِسْطِينِيُّونَ عَلَيْكَ يَا شَمْشُونُ، وَالْكَمِينُ لابِثٌ فِي الحُجْرَةِ». فَقَطَعَهَا عَنْ ذِرَاعَيْهِ كَخَيْطٍ. فَقَالَتْ دَلِيلَةُ لِشَمْشُونَ: «حَتَّى الآنَ خَتَلْتَنِي وَكَلَّمْتَنِي بِالْكَذِبِ، فَأَخْبِرْنِي بِمَاذَا تُوثَقُ؟». فَقَالَ لَهَا: «إِذَا ضَفَرْتِ سَبْعَ خُصَلِ رَأْسِي مَعَ السَّدَى» فَمَكَّنَتْهَا بِالْوَتَدِ. وَقَالَتْ لَهُ: «الْفِلِسْطِينِيُّونَ عَلَيْكَ يَا شَمْشُونُ». فَانْتَبَهَ مِنْ نَوْمِهِ وَقَلَعَ وَتَدَ النَّسِيجِ وَالسَّدَيفَقَالَتْ لَهُ: «كَيْفَ تَقُولُ أُحِبُّكِ، وَقَلْبُكَ لَيْسَ مَعِي؟ هُوَذَا ثَلاثَ مَرَّاتٍ قَدْ خَتَلْتَنِي وَلَمْ تُخْبِرْنِي بِمَاذَا قُوَّتُكَ الْعَظِيمَةُوَلَمَّا كَانَتْ تُضَايِقُهُ بِكَلامِهَا كُلَّ يَوْمٍ وَأَلَحَّتْ عَلَيْهِ، ضَاقَتْ نَفْسُهُ إِلَى الْمَوْتِ، فَكَشَفَ لَهَا كُلَّ قَلْبِهِ، وَقَالَ لَهَا: «لَمْ يَعْلُ مُوسَى رَأْسِي لأَنِّي نَذِيرُ اللهِ مِنْ بَطْنِ أُمِّي، فَإِنْ حُلِقْتُ تُفَارِقُنِي قُوَّتِي وَأَضْعُفُ وَأَصِيرُ كَأَحَدِ النَّاسِوَلَمَّا رَأَتْ دَلِيلَةُ أَنَّهُ قَدْ أَخْبَرَهَا بِكُلِّ مَا بِقَلْبِهِ، أَرْسَلَتْ فَدَعَتْ أَقْطَابَ الْفِلِسْطِينِيِّينَ وَقَالَتِ: «اصْعَدُوا هذِهِ الْمَرَّةَ فَإِنَّهُ قَدْ كَشَفَ لِي كُلَّ قَلْبِهِ». فَصَعِدَ إِلَيْهَا أَقْطَابُ الْفِلِسْطِينِيِّينَ وَأَصْعَدُوا الْفِضَّةَ بِيَدِهِمْ. وَأَنَامَتْهُ عَلَى رُكْبَتَيْهَا وَدَعَتْ رَجُلًا وَحَلَقَتْ سَبْعَ خُصَلِ رَأْسِهِ، وَابْتَدَأَتْ بِإِذْلالِهِ، وَفَارَقَتْهُ قُوَّتُهُ»

وبعدما باح «شمشون» بسره لـ «دليلة» وتأكدت من أن قوته مستمدة من شعره الكثيف، أرسلت لتخبر قومها بالسر الذي عرفته. وفي يوم وبينما كان «شمشون» نائمًا، تمكنت منه مجموعة من الرجال وحلقت شعره،

وبالتحديد الخصلات السبع التي تكمن فيها قوة «شمشون». وعندما استيقظ «شمشون» وعَرِف ما فعلوه به حاول أن يقاتلهم لكنه اكتشف أن قوته قد ذهبت عنه، فما كان منهم إلا أن أوقعوه في الأسر بعد أن قلعوا عينيه فأصبح أعمى.

وذات يوم وبينما كان يحتفل أهل فلسطين بعيدهم، أمر نبلاؤهم بإحضار «شمشون» وربطه في عمودين يرتكز عليهما المعبد كنوع من الإمعان في إذلاله والاحتفال بانتصارهم عليه. لكنهم لم يدركوا أنهم قد ارتكبوا خطأً كبيرًا بتركه لفترة من دون المداومة على قص شعره. ووسط الاحتفال وبينما كان يسخر منه الرجال والنساء والأطفال إذا به يصرخ صرخته المعتادة التي تعبر عن مدى قوته ويهدم المعبد عليه وعلى كل من كانوا فيه بما فيهم «دليلة»، وهي الواقعة التي ورث عنها التراث الشعبي مقولة «عليا وعلى أعدائي».

تمت

إن قصة «دليلة» و«شمشون» ينطبق عليها ما ينطبق على قصة الملكة «بلقيس»؛ إذ ظلت تلك القصة في نظر المؤرخين مجرد أسطورة لا أساس لها من الصحة ولا يوجد ذكر لها إلا في الكتاب المقدس والأساطير الشعبية اليهودية. ولكن الكشوف الأثرية التي تمت في منطقة «تلال يهودا» في عام 2012 قرب القدس الشريف كشفت عن حجر أثري يعود إلى القرن الحادي عشر قبل الميلاد يحكي تفاصيل القصة نفسها التي وردت في الكتاب المقدس مع بعض الاختلافات التي لا تؤثر في سياق القصة، وهو الكشف الأثري الذي تحدثت عنه عدد كبير من الصحف الأجنبية خاصةً الإنجليزية والأمريكية وبالطبع الإسرائيلية، حيث أوضحوا أن الكشف عبارة عن لوح

حجري وجد بالقرب من نهر «سورق» وهو المكان نفسه الذي دارت فيه أحداث القصة الموجودة بالكتاب المقدس. ويصور هذا الحجر رجلاً كان من القوة بحيث يستطيع مصارعة أسد، وأنه كان رجلاً يهوديًا يُدعى «حور». واستند العلماء إلى أن الاسم قد بات في وقت لاحق «شمشون».

بالطبع يعطي هذا الكشف الأثري للقصة قيمة تاريخية كبيرة، حيث إنها لم تعد في نظر البعض مجرد واحدة من أساطير التراث الشعبي. وعلى ذكر التراث الشعبي وجب هنا أن أذكر أن هذه القصة تحديدًا قد أخذت منحى سياسيًّا مع مرور الزمن، حيث استغلها اليهود في العصور الحديثة لخدمة قضيتهم ولتصوير أهل فلسطين على إنهم خونه. كما أصروا على تصوير «دليلة» على إنها امرأة زانية وعاهرة تجني المال من ممارسة الجنس. وعلى الرغم من أن ذلك لم يرد في الكتاب المقدس الذي وصف بداية اللقاء بين «شمشون» و«دليلة» من تلك اللحظة التي ذهب فيها «شمشون» إلى أهل فلسطين للانتقام منهم بسبب خطفهم لزوجته وتدميره لبلادهم حيث جاء نصًا في الكتاب المقدس في «سفر القضاة، الأصحاح السادس عشر» ما يلي:

«ثُمَّ ذَهَبَ شَمْشُونُ إِلَى غَزَّةَ، وَرَأَى هُنَاكَ امْرَأَةً زَانِيَةً فَدَخَلَ إِلَيْهَا. فَقِيلَ لِلْغَزِّيِّينَ: «قَدْ أَتَى شَمْشُونُ إِلَى هُنَا». فَأَحَاطُوا بِهِ وَكَمَنُوا لَهُ اللَّيْلَ كُلَّهُ عِنْدَ بَابِ الْمَدِينَةِ. فَهَدَأُوا اللَّيْلَ كُلَّهُ قَائِلِينَ: «عِنْدَ ضَوْءِ الصَّبَاحِ نَقْتُلُهُ». فَاضْطَجَعَ شَمْشُونُ إِلَى نِصْفِ اللَّيْلِ، ثُمَّ قَامَ فِي نِصْفِ اللَّيْلِ وَأَخَذَ مِصْرَاعَيْ بَابِ الْمَدِينَةِ وَالْقَائِمَتَيْنِ وَقَلَعَهُمَا مَعَ الْعَارِضَةِ، وَوَضَعَهَا عَلَى كَتِفَيْهِ وَصَعِدَ بِهَا إِلَى رَأْسِ الْجَبَلِ الَّذِي مُقَابِلَ حَبْرُونَ. وَكَانَ بَعْدَ ذلِكَ أَنَّهُ أَحَبَّ امْرَأَةً فِي وَادِي سُورَقَ اسْمُهَا دَلِيلَةُ. فَصَعِدَ إِلَيْهَا أَقْطَابُ الْفِلِسْطِينِيِّينَ وَقَالُوا لَهَا: «تَمَلَّقِيهِ وَانْظُرِي

بِمَاذَا قُوَّتُهُ الْعَظِيمَةُ، وَبِمَاذَا نَتَمَكَّنُ مِنْهُ لِكَيْ نُوثِقَهُ لإِذْلاَلِهِ، فَنُعْطِيَكِ كُلُّ وَاحِدٍ أَلْفًا وَمِئَةَ شَاقِلِ فِضَّةٍ».

وهو ما يعني بكل وضوح أن المرأة الزانية التي دخل إليها «شمشون» ليست هي «دليلة» بدليل أن الآية الرابعة تحديدًا تقول بكل وضوح أنه بعد تلك الواقعة أحب «شمشون» امرأة من وادي «سورق» اسمها «دليلة»، ولكن هذا هو الحال دائمًا مع التفسيرات اليهودية للأمور.

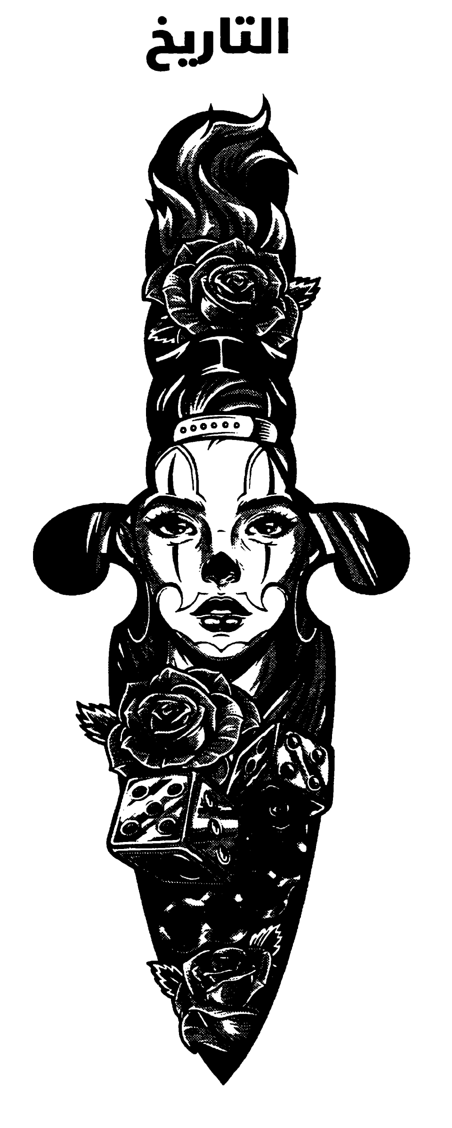
ما أريد قوله هنا أنه مع الأسف معظم الكتابات العربية التي نشرت تلك القصة قد تناقلتها بكل ما فيها من تحريفات يهودية وصهيونية تهدف إلى إظهار الشعب الفلسطيني على أنه شعب خائن ولا تُظهر السبب الرئيسي للصراع بينهم وبين «شمشون» وما فعله «شمشون» بهم، بل تُظهرهم فقط على أنهم كانوا يعبدون الأوثان وأنهم كفار كانوا يريدون التخلص من هذا البطل المكلف من الرب، وهي الرواية التي تخالف القصة الحقيقة للصراع بين أهل فلسطين وبني إسرائيل ومدى الظلم الذي تعرضوا له في ذلك الوقت على يد «شمشون».

الغريب أيضًا في الأمر أن عددًا من الكُتّاب وعلى رأسهم الكاتب الإنجليزي الشهير «جون ميلتون» - وهو كاتب وشاعر عظيم عاش في القرن السابع عشر في إنجلترا - كانوا قد ذهبوا إلى أن «دليلة» كانت قد ندمت على ما فعلته بـ «شمشون» وتابت عن فِعلتها وذهبت إليه في سجنه لتطلب منه أن يسامحها على فِعلتها. لكن «شمشون» رفض أن يقبل توبتها بصفته قاضي «بني إسرائيل»، ولكن هذه القصة تم نفيها كليةً من الكثير من المؤرخين حتى المؤرخين اليهود أنفسهم رفضوا القبول بتلك الرواية.

على أي حال، يمكن أن أقول أن قصة «دليلة» و«شمشون» هي واحدة من أكثر القصص التي يمكن وصفها بأنها تدس السم في العسل، خاصةً إنها أحد الموروثات الثقافية الشعبية التي تناقلتها الأجيال جيلاً بعد جيل. فهي واحدة من أهم وأكثر القصص المخصصة للأطفال التي تقص وتحكي لهم قصة «شمشون» الجبار الذي هدم المعبد والذي خانته حبيبته «دليلة»، مما يجعل من «شمشون» بطلاً عظيمًا ظُلم وجُني عليه بسبب رقة قلبه الذي أحب فتاة خانته وباعته لأعدائه من دون ذكر التفاصيل الحقيقة للقصة. لذا، رأيت أنه من الأمانة العلمية أن أنقل لكم القصة بتفاصيلها الحقيقة الكاملة التي تغيب تمامًا عن القصة في الموروث الشعبي.

والآن، لنكمل الرحلة التي بدأنها ولننتقل إلى مرحلة تاريخية مختلفة. سننتقل من فترة ما قبل ميلاد السيد المسيح إلى فترة ما بعد ميلاده .. ولتكن البداية مع شخصية كانت ولا تزال مصدرًا للخلاف والصراع الفكري ولا تزال قصة حياتها تشكل صدامًا تاريخيًا كبيرًا.

هيباتيا
ضحية التطرف الديني الأولى في التاريخ



«في الواقع، سيقاتل الرجال من أجل الخرافات التي تدعم قوتهم بنفس السرعة التي يقومون بها بالقتال من أجل الحقائق الحية، وأحيانًا أكثر لأن الخرافات غير ملموسة، ولا يمكنك الوصول إليها لدحضها أما الحقيقة فهي وجهة يمكن تغييرها».

«الفيلسوفة الإسكندرانية «هيباتيا»»

نحن الآن نقف أمام واحدة من أهم نساء التاريخ .. امرأة قصة حياتها كلها تعد مغامرة كبيرة .. مغامرة كانت نهايتها مأساوية .. نحن الآن نقف أمام الفيلسوفة العظيمة «هيباتيا».

ولدت «هيباتيا» في مدينة «الإسكندرية» في عام 370 م. وفي ذلك الوقت، كانت «الإسكندرية» أحد أهم مراكز العلوم في العالم.كان بها جامعة «الإسكندرية» التي كانت «هيباتيا» على صلة وثيقة بها، حيث تلقت الجزء الأكبر من تعليمها على يد والدها هناك. إن والد «هيباتيا» هو الفيلسوف الكبير وعالم الرياضيات «ثيون»، الأمر الذي يعني أن «هيباتيا» قد نشأت بين المخطوطات والحوارات والأجواء الفلسفية. كانت «هيباتيا» تواقة للمعرفة ولطرح الأسئلة في وسط يجتمع فيه الوثنيون الرومان واليهود والمسيحيون الذين أتاحت لهم السلطة الرومانية أخيرًا ممارسة عقائدهم وطقوسهم. كانت «هيباتيا» تراقب الكون والأجرام السماوية وتتساءل عن طبيعة الكون والوجود ولما لم تشفِ الإجابات الجاهزة عن الكون شغفها.

سافرت «هيباتيا» للدراسة في «روما» و«آثينا» وتأثرت بفلسفة «أفلاطون» و«أرسطو»، ثم عادت إلى «الإسكندرية» لتقوم بتدريس الرياضيات والفلك والفلسفة، خاصةً الفلسفة الأفلاطونية إذ تعتبر «هيباتيا» تابعة لتلك المدرسة.

لكن مع الأسف الشديد، إن المعلومات المتاحة عن المراحل الأولى من حياة «هيباتيا» ليست كثيرة. إن معظم ما تركه التاريخ لنا عنها هو المرحلة الأخيرة من حياة الفيلسوفة التي ماتت، أو بالأحرى قُتِلت وهي في سن الخامسة والأربعين من عمرها. لكن أهم ما يمكننا رصده عن المرحلة الأولى من حياتها، والمؤكد لدينا، أنها تنتمي إلى أسرة عريقة، حيث كان والدها كما ذكرنا الفيلسوف الكبير «ثيون». أما أمها فكانت هي الأخرى ابنة فيلسوف كبير وهذه هي المعلومة الوحيدة المتاحة عنها.

ولكي نعرف أكثر عن المراحل الأولى من حياة «هيباتيا» يجب علينا أن نعرف طبيعة الحياة في تلك الفترة الزمنية التي عاشت بها خاصةً ما يتعلق بالمرأة. في الواقع، كان المجتمع السكندري في تلك الحِقبة الزمنية يهتم بشكل كبير بتعليم الإناث حيث كانت تمتهن الكثيرات منهن مهنة التدريس. وحتى النساء اللواتي لم ترغبن في العمل بمجال التدريس كانت أيضًا بحاجة إلى الكثير من العلم والتدريب لتعليم أبنائهن، حيث كانت الزوجة في ذلك الوقت يجب أن تكون أصغر سنًا بكثير من الزوج، وهو الأمر الذي جعل مهمة تعليم الأبناء تقع على عاتق الزوجات بعد وفاة الأزواج خاصةً وأن الأبناء في تلك المرحلة الزمنية كانوا يرثون مهن الآباء، مما يعني أنه إذا كان الأب طبيبًا فالأبناء سيصبحون أطباءً، وإذا كان يعمل في مجال الهندسة المعمارية فالأبناء سيعملون في هذا المجال، وإذا كان فيلسوفًا فستتم تربيتهم لكي يكملوا الطريق نفسه.

وهو ما يعني أن «هيباتيا» قد تلقت في طفولتها تعليمًا يختلف كثيرًا عن ذلك الذي تلقته مثيلتها من الفتيات المصريات. كان التعليم لدى الصفوة

والطبقة العليا في ذلك الوقت عبارة عن عملية متعددة المراحل تبدأ في المنزل بإعطاء مقدمة عن سُبل الخطابة الملائمة، ثم تحليل القصص التي تُستخلص منها دروسًا حول السلوك اللائق. كانت تلك المرحلة تقع عل عاتق مربيات تعينهن الأسر للاعتناء بالأطفال حتى سن السادسة أو السابعة. وفي سن السابعة تبدأ الفتاة في تعلم اللغة وقواعد السلوك الأساسية التي ستجعل منها واحدة من الصفوة.

على أي حال، لن نسهب كثيرًا في الحديث عن المراحل الأولى في حياة «هيباتيا» لأن تلك المراحل لم يكن بها أي شيء مميز باستثناء «هيباتيا» نفسها التي كانت تتوق إلى المزيد من العلم والمعرفة وأظهرت اهتمامًا كبيرًا بالفلسفة الأفلاطونية. لهذا، سننتقل مباشرة في قصتها إلى مرحلة ما بعد عودتها من رحلتها التعليمية خارج مصر، حيث تم تعيينها في معهد العلوم التابع لجامعة «الإسكندرية» لتدريس الرياضيات والفلك والفلسفة. وهنا كانت البداية الحقيقة لحكاية «هيباتيا» ولمغامرتها التي جعلت منها هدفًا للمتشددين دينيًا في ذلك الوقت الذين حاربوها بكل السبل المتاحة.

بزغ نجم «هيباتيا» بشكل كبير حتى بات يتوافد على مجالسها العلمية الكثير والكثير من الطلاب، حيث كانت «هيباتيا» تقدم شروحًا مختلفة للكثير من الأمور الفلسفية والطبيعية وهو ما جعل الطلاب يهرعون إليها. المشكلة هي أن «هيباتيا» كانت تتبع المدرسة «الأفلاطونية» الفلسفية القديمة، تلك التي تفضل الدراسة المنطقية والرياضية للأمور بدلاً من المعرفة التجريبية. باختصار شديد، كانت تلك المدرسة تفضل العقل على الطبيعية وتدعو إلى الاتحاد الصوفي مع الله دون وساطة، أو تدخل بشري.

بمرور الوقت والأيام، أخذ عدد طلاب ومحبي «هيباتيا» في الازدياد، بل وأصبح طلابها ينتمون إلى جميع الأديان والثقافات فكان منهم الوثنيون والمسيحيون واليهود وكان منهم طلاب من أصول مصرية وطلاب أتوا إليها من «روما» و«آثينا» وبلدان أخرى. ومع الوقت، أصبحت «هيباتيا» حديث المجالس العلمية وغير العلمية في «الإسكندرية».

استمرت «هيباتيا» في تقديم الكثير من الإضافات العلمية، حيث قامت برسم الأجرام السماوية لأول مرة في التاريخ واخترعت جهازًا لقياس السائل النوعي عُرف باسم «الهيدروميتر». كل هذا جعلها مسار حديث الناس والعلماء ليس فقط في مصر، بل في «آثينا» و«روما» أيضًا حتى إن الفيلسوف والمؤرخ العظيم «سقراط» كتب عنها: «كانت توجد فتاة في «الإسكندرية» تُدعى «هيباتيا» ابنة الفيلسوف «ثيون»، كانت بارعة جدًا في تحصيل كل العلوم المعاصرة مما جعلها تتفوق على جميع الفلاسفة المعاصرين».

هنا، بدأت مشكلة «هيباتيا» الحقيقة. لقد شهدت مدينة «الإسكندرية» في تلك المرحلة الزمنية العديد من الممارسات العنيفة من قِبل المتشددين دينيًا من أنصار الكنيسة المسيحية ضد العلماء، حيث قام بعض عناصر تلك الجماعات المتطرفة بمهاجمة مكتبة «الإسكندرية» أكثر من مرة وقاموا بالاعتداء على العلماء. كما قاموا بالاعتداء على المعابد الإغريقية والرومانية وهدم التماثيل وحرق الأبحاث العلمية والخرائط التي تنتمي إلى ما وصفوه بالعصر الوثني والتحريض ضد اليهود وأي شخص ينتمي إلى أية ديانة أخرى غير المسيحية. كانت تلك العناصر المتطرفة ترى في جامعة «الإسكندرية»، والتي كانت مركز العلوم في العالم آنذاك، أهم عناصر نشر الفساد والفسق والكفر في

المجتمع بما أنها كانت تدرس العلوم والفلسفة التي يرجع بعضها إلى العصور الوثنية، أو يتناقض، أو يتعارض بعضها مع كلام «البابا» والأساقفة.

المشكلة الكبرى التي واجهت «هيباتيا» هنا هي أنها أثارت عبر الكثير من أسئلتها العميقة والمتشابكة والمحيرة عقول الكثير من مريديها، وهو الأمر الذي جعلها في نظر هذه الجماعات المتطرفة غدت بمنآى عن الفكر الديني وأن العلم وحده هو عقيدتها في الحياة حتى إنه في ذات يوم أتى إليها أحد الكهنة يحاول أن يثنيها عما تقدمه من علوم فلسفية للطلاب وينصحها بأن تعتنق الدين الجديد وهو المسيحية، فرفضت وأخبرته أن التعاليم التي يقدمونها إلى الناس تمنعهم من طرح الأسئلة في الوقت الذي يتطلب فيه عملها طرح الأسئلة وهو الرد الذي أثار بشدة غضب الكاهن.

وبينما كانت «هيباتيا» تتفوق على كل مجادليها من فلاسفة «الإسكندرية» ويزداد تعلق الطلاب بها وتزداد مجالسها العلمية في النمو، كانت أيضًا الجماعات الدينية المتطرفة تزداد في النمو وهو ما يعني أن طرفي الصراع هنا كان يجذب له كل يوم أنصارًا جددًا. لكن انتشار الجماعات الدينية المتطرفة كان يتم بسرعة أكبر وأخطر وأشرس، فأخذت تخطب في أنصارها بهدف تحرضيهم ضد أفكار «هيباتيا» معلنة رفضها لكل ما تقول خاصةً نظرياتها الفلسفية حول الشمس واعتبارها مركزًا للكون تدور الأرض في فلكه، وفكرتها عن كروية الأرض، وهي الفكرة التي أغضبت الكهنة بشدة. لقد اعتبروا «هيباتيا» مروجة لعلوم شيطانية، حيث كانت الكنيسة في ذلك الوقت تؤمن بأن الأرض مسطحة وأنها هي مركز الكون لا الشمس وكانوا يعتقدون

أن الشمس هي التي تدور في فلك الأرض وليس العكس. وبالتالي، اعتبروا «هيباتيا» مصدر خطر على الدين المسيحي الجديد وعلى عقول اتباعه.

وما زاد الطين بلة في نظر الكهنة ورجال الكنيسة قيام «هيباتيا» بشغل تلاميذها بالقضايا العلمية فقط، حيث اقتصرت دروسها على الفلسفة والفلك والرياضيات ولم تدفعهم إلى دراسة أي علوم دينية. وبالتالي، كانت «هيباتيا» ومكتبة «الإسكندرية» هدفين للمتعصبين دينيًا ولتلك الجماعات المتطرفة. شرعت تلك الفرق في تحطيم الكثير من تماثيل الآلهة الرومانية وامتد عنفها، كما ذكرت من قبل، إلى مكتبة «الإسكندرية» وأكاديمية العلوم الملحقة بها، فقاموا بتدمير المكتبة وعدد كبير من محتوياتها والمخطوطات العلمية خاصةً التي تنتمي إلى عصور ما قبل المسيحية؛ أي كل المخطوطات تقريبًا إذ كانت المسيحية لا تزال في مهدها في ذلك الوقت، بل وقامت تلك الفرق بقتل عدد من الطلاب الذين حاولوا اعتراض طريق هذه الجماعات المتعصبة وحماية المكتبة ومحتوياتها.

وبعد كل تلك الأفعال العدوانية تجاه العلم ومكتبة «الإسكندرية»، وقف زعيم تلك الجماعات وكان أسقف يُدعى «سيرل» يخطب في الناس متهمًا «هيباتيا» وغيرها من معلمي مكتبة «الإسكندرية» والطلاب بالزندقة والكفر والعمل ضد الدين وتدريس العلوم الشيطانية، معتبرًا أن خروج «هيباتيا» للعمل وعقدها لمجالس العلم أمرًا مشينًا، وأنه عليها كامرأة أن تلزم البيت حيث أخذ يؤكد للناس على أن المرأة خُلقت لتخدم زوجها وحسب.

كما نرى بات التفاف المثقفين حول «هيباتيا» يمثل حرجًا بالغًا للكنيسة ولراعيها البابا «كيرلس الأول»، الذي كان منزعجًا جدًا من «هيباتيا» ومن قوة علاقتها بـ «أوريستوس» حاكم «الإسكندرية» الذي كان يعتبر «هيباتيا» إحدى مستشاريه المقربين. ولم يكن «أوريستوس» على وفاق مع الكنيسة، أو مع البابا «كيرلس الأول»، لما كان بينهما من صراع سياسي حول السيطرة على المدينة. وما زاد من حده التوتر بين حاكم المدينة و«البابا» قيام الأسقف «سيرل» بتحريض جماعته المتطرفة ضد يهود «الإسكندرية» حيث كان يريد إخراجهم من المدينة. وبالفعل، نجح بمساعدة ما عُرِف وقتها باسم «جيش الكنيسة» في إجبار عدد كبير من اليهود على مغادرة المدينة، الأمر الذي أغضب «أوريستوس» بشدة، فما كان منه إلا أن أرسل ليخبر الإمبراطور «يوليانوس». ولكن بمجرد أن علم «جيش الكنيسة» بهذا الأمر هاجموه وقذفوه بالحجارة مما أدى إلى تأزم العلاقة أكثر و أكثر بينه وبين الكنيسة.

هنا، نجد أن الصراع بات صراعًا ثنائيًا. كانت أطراف هذا الصراع الكنيسة من ناحية وحاكم «الإسكندرية» «أوريستوس» ومعه «هيباتيا» من ناحية أخرى. في الواقع، كانت الكنيسة تخشى «هيباتيا» أكثر من خشيتها من حاكم «الإسكندرية»، حيث كانت ترى أن «هيباتيا» مصدر التهديد الحقيقي لها والعائق الأكبر في طريق انفرادها بالسلطة في المدينة والسيطرة على عقول الناس. لهذا، لم يكن أمامها سوى التخلص من «هيباتيا» ومن كل أعمالها بصورة نهائية ضمانًا للسيطرة على المدينة وإضعاف الحاكم «أوريستوس».

مرت الأيام وصار الصراع يشتد يومًا بعد يوم، حتى جاء الأول من مارس من عام 415 م. كان هذا اليوم هو أحد أيام الصوم الكبير للمسيحيين. وفي

ذلك اليوم كانت «هيباتيا» عائدة من إحدى محاضراتها، وكانت تستقل عربتها التي تجرها الأحصنة. قطع طريقها مجموعة كبيرة من أفراد جماعة «جيش الكنيسة» الذين كانوا مقنعين ويرتدون ملابس سوداء. وبعد أن هجموا على العربة جذبوا «هيباتيا» خارجها وذهبوا بها إلى كنيسة «قيصرون». وهناك جردوها تمامًا من ملابسها وقيدوها بالحبال ثم ذبحوها. الأمر الأغرب من ذلك أنهم جروها وهي مذبوحة إلى ساحة المدينة، ثم أخذوا يُمثلون بجثتها ويقذفونها بالحجارة، وقاموا بتقطيع جسدها إلى أشلاء، ثم قاموا بسلخها وحرقها بالكامل.

في الواقع، لم ينته الأمر عند هذا الحد. بعد هذه الجريمة الوحشية وبعدما تم قتل حاكم المدينة الذي قاد مجموعة من جنوده في محاولة منهم لإنقاذ «هيباتيا» عندما سمع بخبر خطفها، توجه أعضاء تلك الجماعة المتطرفة إلى مكتبة «الإسكندرية» وقاموا بحرق كل ما طالته أيديهم من محتوياتها، وهو الأمر الذي جعل المؤرخين والفلاسفة يقولون أن مقتل «هيبتها» كان نهاية العصر الكلاسيكي للفلسفة.

تمت

ما أشبه اليوم بالبارحة .. هذه العبارة هي أفضل ما يمكن أن استهل به تعليقي على قصة الفيلسوفة «هيباتيا» .. تلك القصة التي تجعلنا على يقين تام أن الإرهاب والتطرف الديني والفكري عبر التاريخ لا دين له، وأن أولئك المتطرفين يستخدمون العبارات نفسها والأفكار نفسها منذ آلاف السنين. ففي الحاضر قام المتطرفون بتدمير عدد كبير من آثار العراق وسوريا، وفي الماضي فعلوا الشيء نفسه بآثار «الإسكندرية». في الحاضر أحرقوا الكتب

واتهموا العلم والتقدم التكنولوجي بالكفر، وفي الماضي فعلوا الشيء نفسه حتى إنهم وصفوا العلوم الحديثة بأنها علوم شيطانيه. في الحاضر نظروا إلى المرأة نظرة تُحقر من شأنها، وفي الماضي فعلوا الشيء نفسه مع الفيلسوفة «هيباتيا» وطالبوها بأن تعود إلى منزلها وتترك تدريس العلوم. في الحاضر عبثوا بعقول البسطاء باسم الدين، وفي الماضي كان الأمر نفسه. خلاصة القول، إن هدف هؤلاء المتطرفين سواء في الماضي أو في الحاضر واحد ألا وهو بسط سيطرتهم ونفوذهم والتمتع بالسلطة المطلقة التي لا تسمح بفرصة للنقاش، أو الجدال، أو حتى إعمال العقل والتفكير وطرح الأسئلة.

يمكننا أن نقول إن «هيباتيا» التي تعد ضحية للتطرف الديني والفكري في تاريخ البشرية عاشت الفترة الأخيرة من حياتها في مأساة حقيقة .. مأساة يمكنك أن تتعرف عليها بالتفصيل وتعيش كل جوانبها. لقد تصفحت كتاب «هيباتيا والحب الذي كان» من تأليف «داود روفائيل»، وهو الكتاب الذي يروي أحداث المرحلة الأخيرة من حياتها بالتفصيل في سياق درامي روائي مبهر يجعلك تبكي حينما تصل إلى اللحظات الأخيرة في حياتها من هول ما رأته من تعذيب ومن طريقة التنكيل. كما يمكنك مشاهدة القصة بتصوير سينمائي من خلال فيلم «Agora»، وهو فيلم إسباني يتحدث عن حياة الفيلسوفة «هيباتيا» أيضًا ويصف مدى المعاناة التي عاشتها.

ما أريد أن أقوله هو أن كثير من تلك الجماعات المتطرفة دينيًا، أيًا كان الدين الذي تنتمي إليه، لم يكن صراعها وحربها في يوم من الأيام من أجل الدين التي تدعي أنها تنتمي إليه وتسعى إلى حمايته، لكنها من أجل مصالح شخصية بحته وأهداف سياسية .. إن هؤلاء لا يبحثون إلا عن السيطرة

الكاملة على كل من حولهم ولكي يفعلوا هذا لا بد لهم أن يستخدموا الدين كوسيلة للترهيب. لقد اتخذوا من أنفسهم أوصياء على الدين وعلى الناس، حتى أقنعوا الكثير من البسطاء أنهم يملكون مفاتيح الجنة والنار والعقاب والثواب.

وقبل أن أختم الحديث عن «هيباتيا» اسمحوا لي أن أعرض لكم نص ما قاله الفيلسوف والمؤرخ الكنسي «سقراط» نصًا .. وهو النص التاريخي الذي ورد ذكره في كتاب بحثي بعنوان «هيباتيا ابنة ثيون» من تأليف «مكاريوس جبور». في الواقع، يوضح هذا النص الصورة بشكل أوضح حول «هيباتيا» وعما تعرضت له، حيث قال «سقراط»: «كانت في الإسكندرية امرأة تدعى «هيباتيا» ابنة الفيلسوف «ثيون»، وهذه بلغت من الثقافة حدًا تخطت معه كثيرين من الفلاسفة معاصريها، وأصبحت خليفة المدرسة الأفلاطونية، وكانت تعرض على سامعيها جميع مواد الفلسفة، لأجل ذلك كان دارسو الفلسفة يأتون إليها من كل مكان أضف إلى ذلك أن الثقة بالنفس والمعارف التي حازت عليها جعلوها تتصرف مع الآلهة ورجال الحكم كأنهم شخص واحد. ولم تكن تخجل من الظهور في اجتماعات الرجال، بل إن ثقافتها الرفيعة وحكمتها جعلت من الجميع يرهبونها ويبجلونها، فتسلح ضدها الرفض، وذلك لأنها كانت ذات اتصالات متكررة مع «أوريستوس»، الأمر الذي سبب بحقها من قِبل بعض الرعاع من المتطرفين الكثير من الغضب، كما كان أمر المصالحة بين «كيرلس» و«أوريستوس» مرتبطًا بها، فهب بعض أصحاب الغيرة وعلى رأسهم قس يدعى «بطرس»، وتآمروا ضدها وما أن رأوها عائدة إلى البيت، لا أعرف من أين حتى جروها من ثيابها وخطفوها إلى داخل كنيسة «تشيزاريوس»، وبعد أن

نزعوا عنها ثيابها قتلوها بالطين والذبح وبعد مزقوها إربًا، وحملوا أعضائها إلى المكان المسكين «سينارون»، وهناك أحرقوها، وقد أدى هذا العمل إلى خزي «كيرلس» وكنيسة «الإسكندرية»، إذ إن تعاليم المسيحيين أبعد ما تكون عن تلك الصراعات والأعمال المشابهة، وقد حدثت هذه الأمور في السنة الرابعة من أسقفية «كيرلس»، وعلى عهد الحاكم «أونوريوس العاشر» و «ثيودويس السادس» في شهر مارس خلال زمن الصوم».

ومن ذلك النص يتضح لنا ما كانت عليه «هيباتيا»، وما هو السبب الرئيسي للتخلص منها وقتلها والذي تمثل في قوة شخصيتها وما تمتعت به من ثقة بالنفس وثقافة جعلتها محل تبجيل واهتمام من الناس وهو ما كان يتعارض مع رغبة «كيرلس» في السيطرة على المدينة.

على أي حال، كما قلت لكم إن قصة «هيباتيا» هي قصة تُعبر عن التطرف الفكري الديني في كل زمان ومكان. والآن، لنكمل رحلتنا ونرى إلى أي مكان وزمان ستأخذنا.

زنوبيا

المجد والأسطورة ومأساة النهاية



«أنا زنوبيا .. ملكة الممالك النبيلة .. أعطوني كاس الموت .. قولوا للشعراء يكملوا الأشعار قولوا للثوار يضلهُن ثوار .. بكرا بالأيام .. تدمر اللي انكسرت و«روما» اللي انتصرت .. الاثنين هيصيروا أحجار وأنت وأنا تمثالين بساحة الآثار».

مسرحية «ناطورة المفاتيح»

«**زنوبيا**» آية في الجمال .. آية في الحكمة، وصفها الجميع بأنها كانت فاتنة سلبت بحسنها العقول. كانت فارسة قادت جنودها بكل شجاعة وبأس إلى أعظم الفتوحات .. وصفوها بالملكة المحاربة التي لا تهاب الأهوال وتقود بنفسها المشاة سيرًا على الأقدام لمسافات طويلة، حتى إنه عُرف عنها بين العرب أنها فارسة تخرج للصيد مع الرجال من فرسانها، ثم تجلس لتأكل وتشرب معهم كأنهم أفراد أسرة واحدة .. لا ملكة وفرسانها.

ولدت «زنوبيا» في ديسمبر من عام 245 م، اسمها الحقيقى هو «الزباء بنت عمرو بن الظرب بن حسان بن أذينة بن السميدع». عُرفت في كتب العرب القديمة باسم «صاحبة تدمر وملكة الشام والجزيرة». أما أمها فكانت بطلمية الأصل من ذرية الملكة العظيمة «كليوباترا». ويمكننا هنا أن نقول إن تاريخ الجدة «كليوباترا» ونضالها ضد الإمبراطورية الرومانية قد أثر كثيرًا في شخصية «زنوبيا»، حتى إنها كانت ترتدي ثياب «كليوباترا» دومًا وتفخر بنسبها إليها، وتسعى إلى تحقيق حلمها والأخذ بالثأر من الرومان.

لقد وصفوها بالسمراء ذات الشعر الطويل، عيناها سوداويتان، وأسنانها ناصعة البياض كأنها قطع من اللؤلؤ. تميزت بالجمال وبالعفة الصارمة، حتى

إنها لم تتزوج بعد وفاة زوجها، فكانت بالنسبة للجميع المرأة التي جمعت بين المجد والسلطة والجمال والإخلاص.

إن شخصية «زنوبيا» المتميزة كانت السبب الرئيسي في قيام «أذينة» الذي كان يحكم «تدمر» وقتها وعُرف باسم «حاكم الشرق» بالزواج منها، ومن هنا بدأ اسم «زنوبيا» في الظهور .. بدأ الناس يعرفونها أكثر حيث كانت تشارك زوجها بالفعل في سياسة الحكم أثناء حياته، فكانت تحضر معه مجالس القوم ومجالس الشيوخ .. في الواقع كان زوجها يتبع سياسية مختلفة عما انتهجته «زنوبيا» بعد وفاته تجاه الإمبراطورية الرومانية. لقد كان يحافظ على ولاء «تدمر» لـ «روما»، وقام كثيرًا بالتصدي لتقدم الفرس نحو ممتلكات الإمبراطورية في الشرق، حتى إنه كان له دور بطولي في الحفاظ على تلك الممتلكات عقب مقتل الإمبراطور الروماني «فالريان».

ويُروى أنها كانت تخرج الى جانب زوجها على رأس جيشه، وعندما كانت تسير على جوادها الى جانبه كان المقاتلون يتهامسون متسائلين من الرجل الأقوى بين الاثنين، في إشارة منهم إلى مدى قوة وعظمة «زنوبيا». كما عُرف عنها أنها كانت مولعة بالصيد وأنها عادةً ما كانت تضع عمامة على رأسها مثل الرجال وتكشف عن ذراعيها وهذا ما تدل عليه صورها المحفورة على آثار «تدمر».

ولكن بعد سنوات قليلة من هذا الزواج وتحديدًا في عام 267 م قُتل زوجها الملك «أذينة» بعدما غدر به أحد المقربين منه. وبالتالي، آل الحكم إلى ابنه من «زنوبيا» الملك «وهب اللات»، والذي لم يكن قد بلغ العاشرة من عمره بعد، فأجمع القوم على أن تحصل «زنوبيا» على حق الوصاية على عرش

البلاد لتحكم بالنيابة عن ابنها حتى يبلغ سن الرشد ويتوج رسميًا ملكًا على البلاد. كانت «زنوبيا» في ذلك الوقت تبلغ من العمر 22 عامًا فقط.

في الوقت نفسه، كانت الإمبراطورية الرومانية تعيش فترة صعبة من تاريخها حيث الكثير من الأزمات الاقتصادية والسياسية التي تزامنت مع عدد كبير من الهجمات المتواصلة على حدودها من قِبل دول الجوار، ثم هزيمتها أمام الفرس في أكثر من معركة واغتيال الإمبراطور «فالريان» وتعاظم قوة الملك الفارسي «شابور الأول». فقد كانت «روما» في تلك الحقبة على موعد مع انهيار عسكري وفوضى عارمة كادت أن تقضي عليها وتسببت في إعلان عدد من المقاطعات خروجها عن سيطرة «روما» واستقلالها، وهو ما يعني أن كل الأوضاع كانت سانحة تمامًا لكي تقوم الملكة «زنوبيا» بمغامرتها الكبرى.

على أي حال، بعد أن تولت «زنوبيا» مقاليد الحكم في «تدمر» عزمت على استغلال كل تلك الظروف المحيطة واستغلال الضعف والوهن اللذين باتت عليهما الإمبراطورية الرومانية من أجل بسط سلطانها على الأراضي التابعة لها، فقامت بغزو مصر في عام 270 م بجيش عظيم، وفتحتها بدعوى إعادتها لحكم الإمبراطورية الرومانية، وجعلت من ابنها الصغير ملكًا عليها بعد أن نصبت نفسها رسميًا ملكة. لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل إنه بعد هذا الفتح تم صك العملة في «الإسكندرية» وعليها صورة ابنها الملك مع صورة الإمبراطور الروماني، ثم وسَّعت نفوذ مملكتها وحكمها في آسيا الصغرى حتى وصلت إلى حدود «بيزنطة». وبالطبع، كانت «زنوبيا» تدعي أنها تفعل كل ذلك من أجل «روما». لكنها في الواقع كانت تداعب حلمها

القديم. لم يكن دخولها مصر بالنسبة لها غزوًا أو فتحًا ولكن كان استعادة للأراضي والبلاد التي تفخر بالانتماء لها دومًا من يد الإمبراطورية الرومانية.

في الواقع، أثار تزايد نفوذ «تدمر» قلق «روما» بشدة فأرسل الإمبراطور إلى «زنوبيا» في بداية الأمر قوات تهدف إلى إعادة بسط سلطة «روما» المركزية على الأراضي التي باتت تحكمها «زنوبيا»، لكن الأخيرة قامت بسحق تلك القوات الزاحفة نحوها. ليس هذا فحسب، بل قامت بمطاردة تلك القوات وتوسيع رقعة مُلكها أكثر فبات مُلكها يضم سوريا وبلاد الشام وفلسطين ومصر والعراق وتركيا، مما يعني أنها باتت تشكل تهديدًا حقيقيًا لـ «روما» وقطع سبل مواصلاتها بين الغرب والشرق ومنع تزويد عاصمه الإمبراطورية بالمؤن والذهب والقمح والتوابل وغيرها من السلع الأساسية.

بالطبع، لم تكتف «زنوبيا» بإرساء دعائم مملكة مترامية الأطراف امتدت من «البوسفور» حتى «الجزيرة العربية» ومن «النيل» إلى «الفرات»، بل راحت تهتم بجوانب أخرى. قامت بأعمال ترميم داخل هذه المملكة الممزقة وأول ما قامت به هو توفير الأمن وأسباب العيش. قامت «زنوبيا» بتطهير بلاد الشام من المرتزقة والعصابات التي استوطنت الجبال الساحلية وأقلقت مضاجع القرى والقوافل المسافرة بالقتل والنهب والسلب. كما عملت «زنوبيا» على تحقيق العدالة وعاقبت المعتدين بقسوة وترفقت بالمنكوبين، إضافة إلى الاهتمام بأعمال الإعمار والبناء وتحصين «تدمر» وتدعيم قلاعها بالأبراج والمجانيق وتجهيز جيش قوي أسندت إدارته إلى أحد أفضل الرجال في ذلك الوقت ويدعى «الزبيد» حتى تتمكن هي من التفرغ للأمور السياسية.

كل هذا جعل أهل «تدمر» يعيشون في رخاء ويزداد حبهم لملكتهم التي أخذت تستقبل الوفود الدبلوماسية وتتفاوض معها، حتى إنها سرعان ما خالفت سياسة «روما» وأقامت روابط صداقة مع عدد من البلاد المجاورة لها وعززت صلات مملكتها مع «الحبشة» و دولة «الفرس» أشد أعداء «روما»، ثم أصدرت أمرًا باعتماد اللغة «الآرامية» لغة رسمية إلى جانب «اليونانية» وألحقته بأمر ثان يمنع نزول الحاميات الرومانية إلى الساحل السوري دون إذن مسبق.

إن «زنوبيا» عُرِفت بثقافتها الواسعة؛ إذ إنها كانت تجيد عدة لغات مثل «اليونانية» و«الآرامية» و«الفرعونية» و«اللاتينية»، اهتمت بالعلم بشكل كبير حتى إنها جعلت التعليم إلزاميًا في مملكتها وأقامت ما يشبه المنتديات الثقافية التي ضمت عددًا كبيرًا من أعظم علماء ومفكري عصرها.

ومع كل هذا التوسع على المستويات العسكرية والتجارية والعلمية حاول الإمبراطور «أورليانوس» الذي وصل للحكم مؤخرًا بعد سلسلة من الفوضى والاضطرابات التفاوض مع «زنوبيا» وكبح جماحها والسيطرة على طموحها فمنحها الكثير من الإمتيازات والمكاسب التي رسخت استقلال بلادها وجعلت منها ملكة معترف بها رسميًا من الإمبراطورية الرومانية.

في بداية الأمر، رضخت «زنوبيا» وبدت أمام الإمبراطور الجديد كما لو كانت قانعة بما حصلت عليه من امتيازات. ركزت «زنوبيا» اهتمامها على التجارة مع «الحبشة» و«شبه الجزيرة العربية»، وتوسعت في صك العملة التي تحمل صورة ابنها من جهة وصورة الإمبراطور «أورليانوس» من جهة أخرى. ولكن بعد فترة ليست بالكبيرة ومع تعاظم قوتها وقوة مملكتها قامت

«زنوبيا» بتصرف غير متوقع، حيث أمرت بإزالة صورة الإمبراطور من على العملة الخاصة بمملكتها، الأمر الذي كان بمثابة إنذر خطير واستفزاز غير مسبوق للإمبراطور الذي توعد بسحق «زنوبيا».

في الواقع، كان الصراع والمواجهة بين الملكة «زنوبيا» وبين الإمبراطور الروماني «أورليانوس» أحد أهم الأحداث التاريخية التي كانت مصدر إلهام للكثير من المؤرخين وعلماء الآثار، بل والشعراء والأدباء على مستوى العالم وعلى مر العصور. حتى الآن لا زال علماء الآثار يبحثون في تاريخ تلك الملكة لعلهم يصلون إلى مزيد من الأسرار التي توضح لهم ما فعلته «زنوبيا» وما هي الأسباب التي جعلتها تقوم بأكبر حركة تمرد ضد الرومان.

على أي حال، يصل بنا قطار التاريخ إلى عام 271 م وهو العام الذي ضاق فيه الإمبراطور الروماني ذرعًا بملكة «تدمر» القوية المتمردة. في هذا العام كان الإمبراطور عائدًا لتوه من حملة عسكرية لاستعادة بلاد «الغال» ـ «فرنسا» حاليًا ـ فما كان منه إلا أن جهّز جيشين عظيمين الأول يهدف إلى استعادة السيطرة على مصر والإسكندرية، أما الجيش الثاني فكان يهدف للقضاء تمامًا على «زنوبيا» ملكة «تدمر» وقد كان تحت قيادته هو شخصيًا. وما أن التقى الجيشان قرب «أنطاكيا» حتى نشبت معركة ضارية تفوق فيها جيش «زنوبيا». وبالرغم من أن جيش الرومان كان أضخم بكثير، فإنه لم يستطع مواصلة الحرب والصمود في وجه جيش «زنوبيا» التي كانت من الذكاء لتدرك أنها لن تتمكن من الصمود كثيرًا في وجه الجيش الروماني. قامت «زنوبيا» بالرجوع إلى «تدمر» وانتظرت التعزيزات العسكرية القادمة لها من بلاد «فارس»، تلك البلاد التي صارت تربطها علاقة وثيقة بملكة «تدمر».

فما كان من الإمبراطور الروماني إلا أن ضرب حصارًا على المدينة. لكن «زنوبيا» كانت قد وضعت مسبقًا في حسابها مثل ذلك الأمر. لهذا، أقامت «زنوبيا» القلاع الحصينة والأبراج التي حالت دون اقتحام جيوش الإمبراطور للمدينة، وجعلت تلك الجيوش تتكبد خسائر فادحة نتيجة الغارات التي قامت بها جيوش ملكة «تدمر» بشكل دائم على جيوش الإمبراطور وإمطارها بالسهام من فوق الأبراج الحصينة لمدينة «تدمر». إن الخسائر الفادحة التي تعرض لها الإمبراطور جعلته يشعر بالذل والهوان. لقد شعر بالخزي لكونه قائدًا عسكريًا عظيمًا وإمبراطورًا يحارب امرأة ولا يستطيع أن ينتصر عليها. ومن ثم، لم يعد أمام الإمبراطور سوى استخدام الحيلة للانتصار على «زنوبيا».

كتب الإمبراطور إلى الملكة «زنوبيا» خطابًا يعرض عليها فيه الاستسلام وتسليم ثرواتها مقابل حياتها والحفاظ على إمتيازات ابنها الملكية. لكن «زنوبيا» العنيدة ردت على هذا الخطاب بآخر تخبره فيه بأن المعركة لم تحسم بعد وأنها ملكة وستموت ملكة، وهو ما جعل الحصار يستمر حتى منتصف عام 272 م. وطوال ذلك الوقت ظل الإمبراطور يبحث عن حل يُمكنه من كسر ذلك الحصار والقضاء على «زنوبيا» لكنه لم يجد. ويومًا بعد يوم أصبح الوضع يزداد سوءً بالنسبة له ولجيوشه.

بالطبع، تريد الآن أن تعرف ما النهاية وكيف كانت .. وماذا حدث لتلك الملكة العظيمة .. وهنا اسمح لي أن أقول لك إن النهاية في مثل تلك الظروف تتمثل في كلمة واحدة .. كلمة كانت السر دومًا في القضاء على أعظم القادة وأعظم الجيوش وفي تدمير أعظم البلدان .. كلمة هي الأسوأ في القاموس اللغوي .. تلك الكلمة هي «الخيانة».

مع مرور الوقت ومع ازدياد الخسائر بات الإمبراطور على استعداد لقبول أي حل مهما كان يخلصه من تلك الملكة التي كسرت هيبته ودمرت سمعته العسكرية. وجد الإمبراطور ضالته في «أورمونتي» أحد كبار قادة الملكة «زنوبيا». كان «أورمونتي» رجلاً جشعًا. فبالرغم من وضعه المرموق في المملكة، وبالرغم من كونه أحد المقربين الموثوق بهم من قِبل الملكة، فإنه كان يسعى لأن يكون صاحب شأن أكبر .. لقد كان يطمع في الحكم. لهذا، وافق «أورمونتي» على التواصل مع الإمبراطور الروماني بشكل سري واتفقا على أن يتزوج الإمبراطور من ابنته، وكانت تُدعى «فيليديا»، وعلى أن يتم تنصيبه ملكًا على «تدمر» في مقابل مساعدته للإمبراطور على دخولها. وبالطبع، كان هذا العرض عرضًا مغريًا لرجل مثل «أورمونتي» يطمع في الحكم. فقام بإرشاد الإمبراطور الروماني إلى أحد الممرات السرية للقلعة الحصينة كان يُستخدم في تزويد «تدمر» بالمؤن والسلاح والغذاء لمواجهة حصار الرومان، وهو الممر الذي نجح من خلاله الإمبراطور في الدخول إلى المدينة.

حينما علمت «زنوبيا» بنبأ الخيانة فما كان منها إلا أن هربت برفقة بعض المخلصين لها عبر قافلة من الجمال نحو بلاد «الفرس» من أجل إعداد جيش كبير والعودة مرة أخرى لاستعادة بلادها. ولكن بينما هي في الطريق لحق بها بعض الخيّالة ونجحوا في القبض عليها والعودة بها إلى الإمبراطور الذي كان قد دخل «تدمر» وجلس على عرشها لتكتب نهاية واحدة من أهم مغامرات النساء عبر التاريخ.

تمت

أعرف جيدًا أنك تسأل الآن عن مصير الملكة «زنوبيا» وعما آل إليه وضعها. لقد فضلت أن أتحدث عنه هنا في تلك المساحة الخاصة بي بعيدًا عن

السياق التاريخي للقصة لسبب مهم، هو أن المصادر التاريخية قد اختلفت حول نهاية هذه الملكة. لهذا، قررت أن أحكي لك هنا النهايات المختلفة على أن أوضح لك النهاية الأقرب إلى الحقيقة والمجمع عليها بصورة كبيرة. بعدها يكون لك الحق في القبول بالنهاية التي تناسب مخيلتك، خاصةً أن النهاية حتى الآن لا تزال غامضة ولم يُكشف عنها بشكل مؤكد، لكني اخترت لك النهايات التي أجمع عليها أكثر الباحثين.

أول تلك النهايات وأقربها للحقيقة تقول بأنه عقب قيام الجنود بالقبض على «زنوبيا» قاموا بإحضارها للإمبراطور الروماني الذي جلس على عرشها في «تدمر» منتشيًا بالانتصار عليها. ولكن بالرغم مما تكبده الإمبراطور من خسائر ماديه ومعنوية بسبب «زنوبيا»، فإنه كان شديد الإعجاب بها وبشخصيتها فعرض عليها الزواج لكنها رفضت. أصر الإمبراطور على الزواج منها، و أمام إصراره هذا أضربت «زنوبيا» عن الطعام حتى ماتت.

بينما تقول حكاية ثانية إن الإمبراطور لم يوافق على نصيحة كبار قادته ومستشاريه بقتلها، واكتفى بقتل كبار قادتها والمعاونين لها وابقى على حياتها، ثم اصطحبها إلى «روما» وعرضها في موكب النصر. لكن البعض يقول أيضًا إن الإمبراطور لم يفعل هذا واكتفى باصطحابها إلى «روما» وجعلها تقيم في منزل كان قد أعده لها هناك وظلت تعيش فيه حتى ماتت. ويحكي البعض هنا إن الإمبراطور فعل ذلك لأنه أحب «زنوبيا» وكان يرغب في ابقائها إلى جواره لكنه لم يعرض عليها الزواج قط. أما عن طبيعة موتها في تلك الحكاية فاختلف عليها البعض أيضًا، إذ قال أحدهم إنها ماتت بشكل طبيعي نتيجة الحزن على ما أصابها، بينما يقول البعض الآخر إنها انتحرت بواسطة سم

أحضره لها أحد الحراس من المتعاطفين معها، ويقول ثالث إنها أضربت عن الطعام حتى الموت كما قيل في الرواية الأولى.

تقول حكاية ثالثة إن «زنوبيا» قد انتحرت بالسم عقب إلقاء القبض عليها وقبل عرضها على الإمبراطور، حيث تشير المصادر التي تحدثت في هذا الشأن أن «زنوبيا» قررت أن تحذو حذو جدتها الملكة «كليوباترا». لقد فضلت «زنوبيا» الموت على أن ترى الإمبراطور الروماني جالسًا على عرش بلادها بينما تقف هي مكبله بالأغلال أمامه، أو أن تُقدم في موكب النصر في «روما» على أنها أسيرة. لقد جعلتها كرامتها وكبريائها تأبى ذلك تمامًا، لذلك تجرعت كأس السم قبل حتى أن يراها الإمبراطور الروماني.

أما الحكاية الأخيرة فتقول إن الإمبراطور لم يقتلها ولم يقدمها في موكب النصر حينما عاد إلى «روما» احترامًا لشجاعتها. لكنه أجبرها على أن تعيش هناك حتى يأمن شرها ويضمن عدم عودتها إلى مقاومته مرة أخرى. لكن يرى بعض المؤرخين في هذه الرواية أنها في بداية حياتها في «روما» كانت تعيش في منزل متواضع ولكن بعد فترة تزوجت من أحد حكام الولايات الرومانية وانتقلت للعيش في قصر كبير بمنطقة «تيڤولي» بالقرب من «لاتيسو» في إيطاليا. أنجبت «زنوبيا» من هذا الرجل عددًا من البنات، وقيل أنه ينحدر من سلالة «زنوبيا» الراهب «زنوبيوس» الشهير الذي عاش في القرن الخامس الميلادي وكان أسقف «فلورنسا».

لو أردت معرفة رأيي الشخصي، سأقول لك إنه قد توافرت لدي قناعة بشأن نهاية «زنوبيا» بناءً على ما قرأته من مصادر مختلفة. وسأخبرك بهذه القناعة على الرغم من إنها لا ترسم مشهدًا كاملاً لنهاية «زنوبيا». ففي

اعتقادي الشخصي ومما توافر لي من معلومات بحثية أرى أنه بعد القبض على «زنوبيا» أثناء محاولة هروبها إلى بلاد «فارس» وإحضارها إلى «تدمر» رفض الإمبراطور الروماني الاستماع إلى نصائح مستشاريه بقتلها واكتفى بقتل كل المعاونين لها وأنه فعل ذلك لأنه كان معجبًا بها وبقوة شخصيتها بالإضافة إلى جمالها بالطبع. لكن جمالها، أو أنوثتها لم يكونا هما الأساس في هذا الإعجاب. لقد كان الأساس هو الشخصية القوية التي كسرت هيبته وكادت أن تفقده سمعته العسكرية. لهذا، رفض الإمبراطور قتلها وكان ينوي أن ينقلها معه إلى «روما» لكنها سبقته بالانتحار. فعلت «زنوبيا» هذا لأنه كان أكرم لها من أن تظل في الأسر .. في الواقع إني أرى تلك النهاية هي الأقرب لأنها تتفق مع شخصية الإمبراطور وشخصية الملكة «زنوبيا». أما فيما يتعلق بعرض الإمبراطور الزواج منها فقد يكون ذلك قد حدث، لكني أرى أنه إحتمال ضعيف تاريخيًا. ربما كان الإمبراطور ينوي أن يعرض عليها ذلك العرض لكنها انتحرت قبل أن يفعل.

على أي حال، مهما كانت النهاية فالحقيقة الوحيدة هنا أن الملكة «زنوبيا» ستظل على مر الأزمنة رمزًا لقوة المرأة ولقدرتها على إدارة شئون الحكم والمواجهة والقتال بشجاعة، بل وعلى مواجهة أعتى رجال الأرض دون تردد دفاعًا عن أرضها وبلادها. وبالرغم من كل صفات القوة والإدارة التي تمتعت بها «زنوبيا»، فقد كانت تحافظ على أنوثتها وجمالها وكانت تحرص على حبها لابنها وعلى ميراثه الملكي.

هند بنت المهلب

إن كيدهن عظيم



«رأيت صلاح الحرَّة إلفها، وفسادها بحدَّتها، وإنما يجمع ذلك ويفرِّقه التوفيقُ».

من أقوال «هند بنت المهلب»

كانت العراق في ذلك الوقت تحت حكم الخليفة الأموي «عبد الملك بن مروان». وكانت تشهد حالة من الاضطرابات غير العادية والثورات على الحكم الأموي حيث يتم قتل واغتيال الولاة الذين يتم تعينهم من قِبل الخليفة واحدًا تلو الآخر والخروج على من لم يقتلوا منهم، حتى إن الخليفة «عبد الملك بن مروان» قد ضاق ذرعًا بما يحدث هناك وقال مخاطبًا رجاله: «إن العراق كدر ماؤها، وكثر غوغاؤها وأملح عذبها، وعظم خطبها، وظهر ضرامها، وعسر إخماد نيرانها فهل من ممهد لهم بسيف قاطع، وذهن جامع، وقلب ذكي، وأنف حمي، فيخمد نيرانها، ويردع غيلانها، وينصف مظلومها، ويداوي الجرح حتى يندمل فتصفو البلاد، وتأمن العباد».

ووقتها لم يجد الخليفة من يصلح لذلك الأمر أفضل من رجله القوي «الحجاج بن يوسف الثقفي». حينما وصل «الحجاج بن يوسف» إلى العراق حاول السيطرة على أهلها فألقى عددًا من الخطب في «الكوفة» و«البصرة» ليُعرِّف أهلهما بنفسه، ذلك على الرغم أن الكثير من أخباره كانت قد وصلت بالفعل إلى مسامع أهل العراق .. وكان أشهرها تلك الخطبة التي ألقاها في «البصرة» والتي اتسمت بالعنف في الحديث مقارنة بتلك التي ألقاها في «الكوفة»، ذلك نظرًا لسوء الوضع في البصرة، حيث قال «الحجاج» في خطبته لأهل «البصرة»: «أيها الناس من أعياه داؤه فعندي دواؤه ومن استطال أجله فعلي أن أعجله ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله ومن استطال ماضي

عمره قصّرت عليه باقيه إن للشيطان طيفًا وللسلطان سيفًا فمن سقمت سريرته صحت عقوبته ومن وضعه ذنبه رفعه صلبه ومن لم تسعه العافية لم تضق عنه الهلكة ومن سبقته بادرة فمه سبق بدنه بسفك دمه. إني أنذر ثم لا أنظر وأحذر ثم لا أعذر وأتوعد ثم لا أعفو إنما أفسدكم ترنيق ولاتكم ومن استرخى لببه ساء أدبه إن الحزم والعزم سلباني سوطي وأبدلاني به سيفي فقائمه في يدي ونجاده في عنقي وذبابه قلادة لمن عصاني والله لا آمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه».

بعد ثلاثة أشهر تقريبًا استتب أمر الحكم في العراق للـ «الحجاج بن يوسف». وبعد تلك الأشهر القليلة، نجح في السيطرة على الأوضاع وحركات التمرد على الدولة الأموية. وسرعان ما ذاع صيته وعُرِف عنه أنه رجلٌ شديد المراس، وأصبحت تهابه العامة والخاصة. لهذا، نصحه أحد رجاله المخلصين أن يتزوج من أهل العراق لتقوى صلة الرحم بينه وبينهم ويصير بينهما مودة وحب. ومن هنا، تبدأ قصة «هند بنت المهلب بن أبي صفرة الأزدية» البصرية. كان أبوها أحد أقوى رجال البصرة وقائد الكتائب الأمير «المهلب بن أبي صفرة» حاكم «خُراسان» الذي حارب الخوارج وله العديد الفتوحات التي ذكرها التاريخ .. أما «هند» فقد عُرفت بجمالها الآخاذ وبرجاحة عقلها وبعد الهمة. كما اشتهرت بفصاحة نادرة وبلاغة واضحة وحكمة وكمال أدب وحسن خصال ومروءة. باختصار، كانت «هند» أشهر نساء عصرها امرأة ذات ذكاء حاد وشاعرة ذات حضور قوي.

حينما قام رجل «الحجاج» الذي اقترح عليه الزواج من أهل العراق بترشيح «هند بنت المهلب» له أُعجب «الحجاج» كثيرًا بما سمعه عنها فأرسل

يطلب خطبتها. لكن «هند» ترددت لعدم معرفتها به. وهنا، زاد إعجابه بها فهي لم توافق مباشرةً بالرغم من كونه والي العراق ورجلاً له شهرته الواسعة في الدولة الإسلامية. لهذا، قدم لها «الحجاج» مهرًا لم تسمع به العرب من قبل ومؤخرًا لصداقها بلغ 200 ألف دينار عربي. لكنها لم توافق، فما كان من «الحجاج» الذي عُرف عنه بطشه أن أجبر والدها على أن يوافق على أن يزوجها له. وهكذا تزوجت «هند بنت المهلب» رُغمًا عنها بـ «الحجاج بن يوسف الثقفي».

لم تشعر «هند» يومًا بالسعادة مع «الحجاج»، ذلك على الرغم من ترف الحياة التي وفرها لها. لم تحبه ورأت فيه أنه رجل شديد المراس ولا يوافق طبيعتها. مرت الأيام حتى مضى عام على زواجها منه ولكنها لم تحمل. وهو ما جعل «الحجاج» يأخذها سرًا في زيارة إلى إحدى طبيبات العرب ذات الخبرة والدراية. لكن هذه الزيارة لم تجدِ نفعًا ولم تحمل«هند». وذات يومٍ وبينما كانت «هند» جالسة أمام المرآة تتحسس بطنها وتندب حظها قالت:

وما هند إلا مهرةٌ عربيةٌ ** سليلة أفراسٍ تحللها بغل

فإن ولدت فحلاً فلله درها ** وإن ولدت بغلاً فجاء به البغل

وحينما سمع «الحجاج» بما قالته «هند» غضب غضبًا شديدًا ونادى على خادمه وقال له طلقها بكلمتين فإن زدت ثالثة قطعت لسانك، وأعطاه مؤخرها كاملاً ليمنحه لها.

ذهب الخادم إلى «هند» وقال لها في فصاحة: «كُنتِ فَبِنتِ، وهذا مالك». (المقصود هنا: كُنتِ أي كنت متزوجة، فَبِنتِ أي أصبحت مطلقة)

وهنا ردت عليه «هند» بفرح: «كنا فما فرحنا وبِنَّا فما حزنا .. فيا بشير الخير، هذه المائتا ألف بشارة لك ومن معك على خلاصي من كلب بني ثقيف».

بعد طلاق «هند» من «الحجاج بن يوسف» الثقفي بقيت بلا زواج لمدة طويلة لسببين: الأول، هو أنه لم يتجرأ أحد على التقدم لخطبتها وهي طليقة «الحجاج بن يوسف» الثقفي المعروف ببطشه وجبروته. والثاني، أنه لم يرق لـ «هند» أن تتزوج برجل أقل مكانة من «الحجاج». وبعد فترة سمع الخليفة «عبد الملك بن مروان» بشأن «هند» وخصالها وجمالها، كما سمع بما حدث بينها وبين «الحجاج» وبيتي الشعر الذي قالته والذي كان سببًا في طلاقها. أُعجب الخليفة بها إعجابًا شديدًا وأرسل إلى أبيها خاطبًا إياها.

وهنا يظهر بوضوح مدى دهاء «هند» وذكاؤها ومدى كرهها أيضًا للـ «الحجاج بن يوسف» الثقفي الذي تزوجها رُغمًا عنها وعن أبيها، حيث كتبت «هند» لترد على طلب الخليفة قائلة: «بعد الثناء على الله والصلاة على نبيه محمد ﷺ، اعلم يا أمير المؤمنين أن الكلب ولغ في الإناء فلقد نقض وضوئي ولست بطاهرة».

زاد إعجاب الخليفة بـ «هند» حيث فهم مغزى رسالتها الذكية وعلم أنها تسخر في كلامها من زواجها من «الحجاج بن يوسف» الثقفي وتصفه بالكلب بينما تصف نفسها بالإناء .. فرد عليها الخليفة قائلاً: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إِذَا وَلَغَ الْكَلْبُ فِي إِنَاءِ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْسِلْهُ سَبْعًا إِحْدَاهُنَّ بِالتُّرَابِ**» فسيكون الإناء طاهرًا بإذن الله».

وهنا، شعرت «هند» بالسعادة ليس فقط لأن الخليفة طلب زواجها، ولكن أيضًا لأنها علمت من رده أنه شخص ذكي يفهم الشعر جيدًا ويصر على الزواج منها فعلاً فبعثت إليه قائلةً: «بعد الثناء على الله والصلاة على نبيه محمد ﷺ، فإني اغتسلت فتطهرت ولكني لا أجري العقد إلا بشرط، فإن قلت ما الشرط؟ أقول: إن يقود الحجاج محملي إلى بلدك التي أنت فيها».

وبالفعل، وافق الخليفة على طلبها وأمر «الحجاج بن يوسف» أن يقود محمل «هند بن المهلب» من «البصرة» في العراق إلى «دمشق» في الشام، وهو الأمر الذي كان ذا وقع كبيرعلى نفس «الحجاج» خاصةً بعد الذي فعلته «هند» معه في الطريق. تَجهَّزت «هند بنت المُهلب» للسفرِ إلى «دمشق» وقاد «الحجَّاج بن يوسف» قافلتَها فعلاً كما طلبت من الخليفة، وبينما كانت القافلة في طريقها إلى الشام أزاحت «هند» الستار لترى «الحجاج» وهو يقود قافلتها، ثم صارت تضحك كيدًا له، وحينما سمع «الحجاج» ضحكها رد عليها ببيت من الشعر قال فيه:

فإن تضحكي مني فيا طول ليلة ❊❊ تركتك فيها كالقباء المفرج

فَردَّت عليه «هند» قائلة :

وما نُبالِي إذا أرواحنَا سَلِمت ❊❊ مِمَّا فَقدناهُ من مالٍ ومن نَسبِ

المالُ مُكتَسبٌ والعِزُّ مُرتَجع ❊❊ إذا شُفِي المَرء من دَاء ومن عَطَبِ

وبالطبع لم تتوقف «هند بنت المهلب» عن استفزاز «الحجاج بن يوسف» الثقفي طوال الطريق. وكان أشهر موقف فعلته معه حينما ألقت دينارًا على

الأرض، ثم قالت للـ «الحجاج» إن درهمًا قد سقط منها وطلبت منه أن يعيده لها. وحينما بحث «الحجاج» فلم يجد غير دينارٍ فقال لها إنه دينار وليس درهمًا، فنظرت إليه بنظرة كيد مبتسمة وقالت قولها الشهير: «الحمد لله الذي أبدلني بالدرهم دينارا».

كانت «هند» تقصد أن الله قد أبدلها زوجًا خيرًا منه هو الخليفة «عبد الملك بن مروان». وبالطبع، لم تتوقف المناوشات بين «الحجاج» و«هند» عند هذا الحد. لقد استمرت حتى بعد أن وصلا إلى «دمشق» ولمرحلة ما بعد عقد قران الخليفة على «هند». بعد أن وصلت القافلة التي تحمل العروس إلى قصر الخلافة، أقام الخليفة وليمة كبيرة للرجال احتفالاً بزواجه من «هند بنت المهلب»، لكن «الحجاج بن يوسف الثقفي» تعمد أن يتأخر عن حضور الوليمة ولم يدخل بلاط الخليفة مع الرجال.

وعندما لم يجده الخليفة بين الناس سأل عنه وأرسل في طلبه ليشارك الرجال الوليمة. لقد كان «الحجاج» أحد أهم رجال الخليفة، وحينما وصل «الحجاج» سأله الخليفة عن سبب عدم حضوره فرد عليه «الحجاج» ردًا خبيثًا كاد يفسد زواج الخليفة من «هند بنت المهلب» حيث قال: «ربتني أمي على أن لا أكل فضلات الرجال».

وهنا، أدرك الخليفة «عبد الملك بن مروان» مقصد «الحجاج» وعلم أن كلامه فيه إشارة لزواجه من «هند بنت المهلب» بعد أن طلقها «الحجاج». في الواقع، لم يكن «الحجاج» راضيًا عن هذا الزواج ولكنه لم يكن يستطيع أن يفعل شيئًا، لم يكن يحق له الاعتراض على ما يقوم به الخليفة. بعد تلك العبارة، شعر «عبد الملك بن مروان» بالحزن وبأنه قد تسرع في الزواج من

«هند بنت المهلب» التي كانت زوجة لأحد رجاله من قبله. لم يقترب الخليفة من «هند» لعدة أيام واكتفى فقط بزيارتها يومًا واحدًا في الأسبوع ليتبادل معها أطراف الحديث فحسب من دون أن يعاملها معاملة الأزواج.

بالطبع، أثارت تصرفات الخليفة الريبة في نفس «هند بنت المهلب» وبدأت تشعر بالقلق. فأخذت تسأل في القصر لعلها تعرف السبب ووصل إليها ما قاله «الحجاج» للخليفة. وبعدما علمت «هند» بكيد «الحجاج» لم تستسلم فأمرت جاريتها أن تخبرها بمجرد أن تعلم بقدوم الخليفة إليها وقبل أن يقترب من حجرتها. دبرت «هند» حيلة ذكية. فبمجرد أن علمت بقدوم الخليفة إليها وقبيل دخوله حجرتها قامت بتمزيق عقد من اللؤلؤ كانت ترتديه، ثم رفعت ثوبها كي تجمع حبات اللؤلؤ فيه.

حينها، رفعت «هند» ثوبها لتبين للخليفة مفاتنها وحسنها وجمالها. جلست «هند» على الأرض تلم حبات اللؤلؤ وهي تقول: «سبحان الله» .. فقال لها «عبد الملك»: «لم تسبحين». فقالت «هند»: «إن هذا اللؤلؤ خلقه الله لزينة الملوك ولكن شاءت حكمته ألا يثقبه إلا الغجر».

وهنا فهم «عبد الملك بن مروان» مقصد «هند» وفهم أنها كانت تقصد باللؤلؤ نفسها وتقصد بالغجر «الحجاج بن يوسف» وتشير في كلامها إلى زواجها منه. فرد عليها «عبد الملك بن مروان» مبتسمًا: «صدقت والله قبَّح الله من لامني فيك».

وبعد هذه الواقعة دخل «عبد الملك بن مروان» بـ «هند» واستمرت حياتهما معًا ولم تظهر للـ «حجاج» سيرة في حياة «هند» بعد ذلك.

تمت

في الواقع، تعد «هند بنت المهلب» من أذكى الشخصيات في التاريخ العربي، وأكبر دليل على ذلك الخلاف الدائر حول قصتها مع «الحجاج» حتى يومنا هذا. نجد عددًا من المؤرخين ينصفها على «الحجاج»، بينما ينصف البعض الآخر «الحجاج» ويشير البعض في حديثه إلى أن «هند» بعد طلاقها من «الحجاج» أرادت أن تكيد له وأن تتزوج برجل أفضل منه فلم تجد خيرًا من الخليفة «عبد الملك بن مروان». أخذت «هند» تدفع للشعراء الذين يحضرون مجالس الخليفة كي يمدحوا شخصيتها وجمالها وذكائها في مجلسه، وظلت تفعل هذا حتى طلب الخليفة الزواج منها. لكن يُنكر الكثير من المؤرخين فعلتها لهذا الأمر وأنها مجرد قصة من اختلاق التابعين للـ «الحجاج بن يوسف الثقفي» الغرض منها هو تشويه صورتها.

لكن أيًا كانت حقيقة تلك القصة، فالثابت والراسخ أمامنا هو أن الصراع بين «هند» و«الحجاج» كان كبيرًا. وعلى الرغم من قوة وبطش وبأس «الحجاج»، فإنها قررت أن تتحداه، ونجحت في أن تنتصر عليه وتصبح زوجة الخليفة في وقت لم يكن فيه الكثير من الرجال قادرين على رفع رؤوسهم أمام «الحجاج» وكان يرهبه القاصي والداني وهو ما يدل على شجاعة «هند» وذكائها.

وبعيدًا عن قصة «هند» مع «الحجاج»، فقد عُرِف عنها حُسن تربيتها وفضل علمها. لقد أجمع المؤرخون على أن «هند» قد بلغت من رجاحة العقل والحكمة ما جعل لها مكانة خاصة في نفوس الرجال والنساء. فلم تكن «هند» تسدي نُصحًا ولا تُصدر قولاً إلا عن رؤية ثاقبة وحكمة بليغة. كما ثبت تاريخيًا ثقتها في نفسها وعدم خوفها من قول الحق وهو ما يتضح

بقوة في الموقف الذي جمعها بالخليفة «عمر بن عبد العزيز»، ذلك الموقف الذي تحدث عنه الكثير من العلماء مثل «الحسن البصري». قام الخليفة «عمر بن عبد العزيز» في بداية حُكمه بإصدار أمر بحبس أخيها «يزيد بن المهلب»، وحينما علمت «هند» بهذا ذهبت إلى الخليفة وقالت له:

- يا أمير المؤمنين، علام حبست أخي؟

- فقال «عمر» لها: تخوفت أن يشق عصا المسلمين.

- فقالت له: يا أمير المؤمنين، فالعقوبة بعد الذنب أم قبل الذنب.

هنا، شعر الخليفة «عمر بن عبد العزيز» بالخجل من نفسه ومما قام به، واستغفر الله على فعلته وقام بإطلاق سراح أخيها. وذُكِر عنه إنه قال: «ما رأيت امرأة أعقل من «هند بنت المهلب»».

كما أشار الكثير من المؤرخين المعاصرين لكثير من أعمال الخير التي كانت تقوم بها. قالوا إن خدمها كانوا يدخلون عليها وهي تُسبّح وتذكر الله على مسبحة من اللؤلؤ وحينما كانت تفرغ من تسبيحها كانت تلقي إليهم به وتقول لهم أقسمنه بينكن. كما نُقل عنها الكثير من الأقوال المأثورة وإن كان أجملها وأعظمها على الإطلاق قولها: «إذا رأيتم النِّعم مستدرَّة فبادروها بتعجيل الشكر قبل حلول الزوال».

كل هذا يعني أن ما قاله الكُتَّاب المعاصرون عنها لم يكن من فراغ. لقد كانت فعلاً واحدة من عقلاء وحكماء عصرها. ولكن مع الأسف الشديد لم ينقل التاريخ عنها الكثير، وقد تم الاهتمام بصراعها مع «الحجاج» أكثر من أمور أخرى مهمة في حياتها، بل وأكثر من علمها وحكمتها التي نقل لنا منها القليل .. ولننتقل الآن إلى شخصية جديدة ومغامرة جديدة.

شجر الدر

صاحبة المحمل الشريف



«واحفظ اللهم الجهة الصالحية ملكة المسلمين عِصمة الدنيا والدين ذات الحجاب الجليل والستر الجميل والدة المرحوم خليل».

نص دعاء أئمة المساجد على منابر مصر للملكة «شجر الدر»

هي «عصمة الدين أم الخليل» الخوارزمية المعروفة تاريخيًا باسم «شجر الدر». كانت ملكتنا العظيمة في البداية جارية اشتراها السلطان الصالح «نجم الدين أيوب»، وكانت لها مكانة خاصة في قلبه وكان يستمع دومًا لها ويشركها في أمور الحكم ويستشيرها في العديد من شئون المملكة. ونظرًا لمكانتها الرفيعة في نفسه، اعتقها السلطان ثم تزوجها وأنجبت منه ولدًا يُدعى «الخليل» أطلق عليه الملك الصالح لقب الملك «المنصور» لكنه مات صغيرًا وكان ذلك في عام 1250 م. أما عن سر تسميتها باسم «شجر الدر» فالثابت تاريخيًا أن «نجم الدين أيوب» قد أحبّها بشدة حتى إنه ألبسها ثوبًا من اللؤلؤ، وحينما شاهدها «الطواشي» رئيس الديوان السلطاني انبهر بجمالها وقال للسلطان والله إنها أجمل من «شجر الدر»يا مولاي، فاقتبسها الصالح نجم الدين أيوب منه واسماها «شجر الدر» وبقي هذا هو اسمها حتى وفاتها.

بدأت مغامرة الملكة «شجر الدر» منذ أن رأها الصالح «نجم الدين أيوب» قبل أن يكون سلطانًا على مصر. لقد رافقته أثناء فترة اعتقاله في «الكرك» عام 1239م وكان معهما مملوكه «ركن الدين بيبرس». وبعد أن خرج الصالح «نجم الدين أيوب» من السجن عاد بها إلى مصر وأعتقها وتزوجها. وبعد أن صار سلطانًا على مصر في عام 1240 م أصبحت «شجر الدر» تنوب عنه في الحكم في حال وجوده خارج البلاد، وهو الأمر الذي دل على عظمة شأنها لدى الملك الصالح «نجم الدين أيوب».

على أي حال، تبدأ المغامرة بشكل فعلي في عام 1249 م. فبينما كان الملك الصالح «نجم الدين أيوب» في الشام يحارب الملوك الأيوبيين الذين كانوا ينافسوه على الحكم، وصلته أنباء عن توجه حملة صليبية جديدة صوب مصر بقيادة الملك الفرنسي «لويس التاسع»، وهي الحملة التي عُرفت تاريخيًا باسم الحملة الصليبية السابعة والتي اتخذت طريقها في البحر نحو مصر. فما كان من الملك الصالح «نجم الدين أيوب» إلا أن توجه إلى مصر وعسكر بجنوده في «دمياط» استعدادًا لمواجهة الجيوش الصليبية بقيادة «لويس التاسع».

وبالفعل، وصل جيش صليبي كبير بقيادة «لويس التاسع» في شهر يونيو 1249م، وأخذت جنوده في النزول على بر «دمياط» ونُصِبت الخيام التي سيعسكر فيها الفرسان. وكان من بينها بالطبع الخيمة الحمراء الكبيرة المخصصة للملك «لويس التاسع». في ذلك الوقت، انسحبت الجنود المتمركزة في «دمياط» بأمر من السلطان الصالح «نجم الدين أيوب» للدفاع عن «دمياط»، فما كان من الجنود الصليبيين إلا أن احتلوا المساحة التي كان يشغلها جيش السلطان وسرعان ما هرب أهل «دمياط» منها حينما شاهدوا انسحاب الجيش. ولكن هذا الانسحاب قد أثار غضب الملك الصالح «نجم الدين أيوب» بشدة حتى إنه أعدم عددًا من القيادات الذين قرروا الانسحاب بتهمة الخيانة.

وقتها، لم يكن أمام الملك الصالح «نجم الدين أيوب» سوى التوجه إلى «المنصورة» لتنظيم أمور الجيش والاستعداد لملاقاة جيش «لويس التاسع» هناك. وهنا، يجب أن نشير إلى أن هذا الانتصار الزائف الذي حققته القوات الصليبية في «دمياط» قد أدخل في نفس «لويس التاسع» الغرور وجعله يظن

أنه سيحتل مصر بسهولة ودون مقاومة من جيشها. وفي خضم المعركة توفي الملك الصالح «نجم الدين أيوب». كان ذلك في نوفمبر عام 1249 م بعد أن حكم مصر لمدة عشر سنوات. وفي تلك اللحظة تحديدًا بدأت مغامرة «شجر الدر» بشكل حقيقي، فما كان منها وهي السلطانة التي تحكم مصر بالإنابة عن السلطان إلى أن استجمعت قوتها ونحت حزنها جانبًا لأنها أدركت أنها لحظة فارقة تمر بها البلاد. قامت باستدعاء قائد الجيش المصري الأمير «فخر الدين يوسف بن القاضي» ورئيس الديوان السلطاني «الطواشي جمال الدين محسن» وأخبرتهما بوفاة السلطان الصالح «نجم الدين أيوب» وطالبتهما بإخفاء خبر وفاة السلطان نظرًا للظروف التي تمر بها البلاد من غزو خارجي تتمركز قواته في «دمياط». فما كان من الثلاثة إلا أن اتفقوا على أن يخفوا خبر وفاة السلطان لإدراكهم أن إعلان هذا الخبر في مثل هذا التوقيت من شأنه أن يُضعف الروح المعنوية للجنود وأنه من الممكن أن يجعل مصر تُهزم في تلك المعركة الحاسمة.

قامت «شجر الدر» بنقل جثمان الملك سرًا في مركب إلى «القاهرة» ووضعته في قلعة «جزيرة الروضة». وهنا يمكننا أن نقول إن «شجر الدر» قد بدأت ما يمكننا تسميته بفترة الحكم الأولى. فعلى الرغم من أن السلطان الصالح «نجم الدين أيوب» لم يوصِ بمن يخلفه في حكم مصر، فإن حرص «شجر الدر» على مصلحة البلاد العليا جعلها تأمر زعيم المماليك البحرية «فارس الدين أقطاي الجمدار» بإرسال أفضل مماليكه إلى حصن «كيفا» في شمال العراق لكي يستدعي «توران شاه» ابن الصالح «نجم الدين أيوب» كي يحكم مصر بدلاً عن أبيه المتوفي.

هنا، يجب أن أتدخل كي أحكي واقعة مهمة ساستخدمها لإثبات كذب الروايات التي صوَّرت السلطانة «شجر الدر» على أنها كانت امرأة جشعة تسعى فقط إلى الحكم ولا يهمها شيء سوى أن تجلس على عرش السلطنة.

هذه الواقعة تفيد بأن الملك الصالح «نجم الدين أيوب» قبل أن يخرج إلى قتال الأيوبيين الطامعين في حكم مصر أعطى السلطانة «شجر الدر» الكثير من الأوراق الموقعة على بياض والمختومة بالخاتم السلطاني التي استخدمتها «شجر الدر» في إصدار الأوامر السلطانية لتسيير أمور البلاد. لو كانت «شجر الدر» تسعى إلى الحكم لكتبت وصيه ملفقة على تلك الأوراق تفيد برغبة السلطان في نقل الحكم لها بعد موته خاصةً إنها كانت تحكم البلاد بالفعل في غيابه، لكنها لم تفعل ذلك ولم يصدر عنها أي تصرف يشير من قريب، أو من بعيد إلى رغبتها في الجلوس على عرش مصر. على العكس تمامًا أرسلت في طلب «توران شاه» ابن السلطان لكي يحكم مكان أبيه، حتى إنها قامت بإصدار أمرٍ سلطانيٍّ بتجديد العهد والبيعة للسلطان الصالح «نجم الدين أيوب» وتنصيب ابنه «توران شاه» ولي عهد للسلطنة المصرية. جمعت «شجر الدر» قيادات وزعماء المماليك وجعلتهم يقدمون البيعة، وحينما سألوا عن السلطان وقتها أخبرتهم بأنه مريض ولا يستطيع لقائهم. لكي يكون الأمر طبيعيًا ولا يشك أحد في غياب السلطان جعلت «شجر الدر» خادمتها الموثوق بها تقوم بإدخال الطعام في مواعيده لغرفة السلطان الذي كان من المفترض أن يكون نائمًا بها.

مع الأسف الشديد لم تسِر الأمورُ وفقًا لما كان مخططا له، فسرعان ما تسرب خبر وفاة الملك الصالح «نجم الدين أيوب» إلى الجنود الذين كانوا مرابطين

على حدود «دمياط»، وفي الوقت ذاته أدت التعزيزات العسكرية التي وصلت للملك «لويس التاسع» عن طريق أخيه «الفونس دو بواتييه» إلى شن المزيد من الهجمات على الجيش مما أدى إلى مقتل قائد الجيش الأمير «فخر الدين يوسف»، الأمر الذي أدى إلى تشتت الجيش وتراجعه إلى «المنصورة».

في ذلك الوقت قامت «شجر الدر» بتعيين الأمير «فخر الدين أقطاي» قائدًا للجيوش بدلاً من الأمير «فخر الدين يوسف» وبالتزامن وافقت على خطة طرحها الأمير «ركن الدين بيبرس» تقضي باستدراج الجيوش الصليبية إلى داخل «المنصورة» ونصب مصيدة لهم هناك.

وبالفعل، بدأ كل من «فخر الدين أقطاي» و«ركن الدين بيبرس» في جمع شتات الجيش وتنظيمه مرة أخرى داخل «المنصورة». أخذ الاثنان في تنفيذ الخطة حيث طالبا السكان بأن يلزموا منازلهم وأن يلتزموا الهدوء التام بحيث تدخل الجيوش الصليبية إلى المدينة بسهولة وتظن أن أهلها والجيش قد تركوها لهم كما حدث في «دمياط». وبالفعل، وقع الجيش الصليبي في الفخ واندفع داخل «المنصورة» متجها نحو القصر السلطاني كي يحتله. وفي تلك اللحظة خرج عليه جيش المماليك البحرية من كل صوب وحدب بالإضافة إلى المتطوعين من السكان والأهالي الذين ارتدوا خوذات نحاسية بيضاء كي يميزوا أنفسهم عن جنود المماليك. وبالفعل، تم محاصرة الجيش الصليبي وتم إغلاق الشوارع من كل الاتجاهات. يمكننا أن نقول إن موقعة «المنصورة» هي أول حرب شوارع عرفها التاريخ وهي الحرب التي أنهكت الجيش الصليبي وأنزلت به هزيمة منكرة فقتل منهم من قتل وهرب منهم من هرب حتى إن الكثير ماتوا غرقًا بعد أن ألقوا بأنفسهم في نهر النيل هربًا من الموت على يد المماليك وسكان «المنصورة».

تعد أهم مكاسب معركة «المنصورة» تاريخيًا هي مقتل شقيق الملك «لويس التاسع» الذي كان مختبئًا في أحد المنزل، بالإضافة إلى هزيمة «فرسان المعبد» هزيمة منكرة. كانت هذه هي الهزيمة الأبشع في تاريخهم، بل نستطيع أن نقول إنها الهزيمة التي تسببت في القضاء على طائفة «فرسان المعبد» وإعدام ما تبقي منها عند العودة إلى فرنسا.

اسمح لي بالتدخل ثانية، إن «فرسان المعبد» كانوا من أعتى الفرق العسكرية في التاريخ. لقد كانت جماعة لها طقوس خاصة ومكانة خاصة في المجتمع الأوروبي، كما أنها كانت شديدة الثراء. إنها الجماعة التي انحدرت منها الجماعة «الماسونية» بعد عدة سنوات على إعدام فرسان المعبد نتيجة ما حل بها من هزيمة منكرة في تلك الحملة. وقد ثبت تاريخيًا أن تلك الجماعة كانت قد أخفت كنزًا من أموالها عُثر عليه بواسطة التابعين لها ممن عُرِفوا باسم «البنائين الأحرار» والذين كانوا النواة الرئيسية لتشكيل الجماعة «الماسونية».

نعود مرة أخرى إلى متابعة الأحداث. بعد هذا النصر الكبير وصل «توران شاه» إلى مصر، ونُصِّبَ سلطانًا على مصر وأطلق على نفسه لقب السلطان المعظم «غياث الدين توران شاه». كان «توران شاه» في ذلك الوقت يبلغ الخامسة والعشرين من عمره. وقد حضر إلى مصر بصحبة خمسين رجلاً من خاصته. وبعد أن تمت بيعته رسميًا سلطانًا على البلاد، قام بقيادة الجيش بنفسه وبدأ في إعداد خطة مع رجاله لإجبار «لويس التاسع» على الاستسلام. كما أنه قام بتنحيه قيادات المماليك المنتصرة على الجيش الصليبي جانبًا وقام بالتعامل معهم بطريقة سيئة حطت من شأنهم لصالح رجاله. كما أنه أمر بإعادة «شجر الدر» إلى الحريم مرة أخرى بعد تنازلها له عن العرش وجردها من لقب «السلطانة».

على أي حال، استمرت الحرب وحاول «لويس التاسع» فرض شروطه على الجيش المصري من أجل الاستسلام والخروج من مصر، وقد كان حقًا أمرًا غريبًا حيث إنه كان في وضع لا يُحسد عليه. أدى ذلك إلى تلاقي الجيشين في معركة «فارسكور» التي قُضِيَ فيها نهائيًا على الجيش الصليبي. تم أسر «لويس التاسع» وسِيقَ مكبًلا بالأغلال إلى «المنصورة» حيث سُجِن في دار «ابن لقمان».

بعد الانتصار على الصليبين وأسر «لويس التاسع»، بدأ «توران شاه» في إبعاد كل الرجال الأكفاء عن حكم مصر. قام «توران شاه» بتعيين رجاله بدلاً منهم، حتى إنه دبر خطة لقتل قيادات وزعماء المماليك كي يستتب له حكم البلاد. أخذ يطالب «شجر الدر» بأموال أبيه على الرغم من علمه المسبق بأنه تم إنفاقها على الحروب بداية من حرب إخضاع الشام وحتى حرب مقاومة الحملة الصليبية السابعة. هذا بالإضافة إلى سوء تدبيره وفساد سياسته، حيث أبعد «توران شاه» كبار رجال الدولة من الأمراء وقرّب رجاله وحاشيته ممن قدموا معه إلى مصر وأغدق عليهم الأموال واستئثارهم بالمناصب دون غيرهم. فما كان من رجال المماليك إلا أن دبروا مؤامرة للتخلص منه وقتله لأنهم شعروا أنه لا يصلح لحكم البلاد. كان الجميع، سواء من عامة الشعب أو القيادات، يرى أنه يقود البلاد نحو الهاوية وخير دليل على ذلك إجماع المؤرخين والكُتّاب المعاصرين على وصفه بأنه كان هوجًا وخفةً؛ أي أنه كان ضعيف الشخصية ولايصلح للحكم.

على أي حال، بعد مقتل «توران شاه» أجمع المماليك على أن تتم مبايعة «شجر الدر» سلطانة على البلاد لعدد من الأسباب يأتي في مقدمتها

احترامهم لها وثقتهم فيها وفي حنكتها السياسية التي ظهرت خلال فترة الأزمة بالإضافة إلى كون السلطان الصالح «نجم الدين أيوب» كان يستأمنها على شئون الحكم. كان الصالح «نجم الدين أيوب» بالنسبة للمماليك بمثابة الأستاذ والأب. وبعد أن تمت بيعة «شجر الدر» سلطانة على البلاد نُقش اسمها على العُملة بالعبارة الآتية: «المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة الخليل أمير المؤمنين».

بعد أن جلست «شجر الدر» على عرش مصر أحكمت قبضتها على زمام الأمور وسيطرتها على إدارة شئون البلاد. كانت أول ما قامت به هو تصفية الوجود الصليبي في مصر. دخلت «شجر الدر» في مفاوضات مع أسيرها الملك «لويس التاسع» وتم الاتفاق بينهما على تسليم «دمياط» على أن يتم إخلاء سبيله هو وكبار رجاله من الأسرى مقابل فدية كبيرة قدرها 800 ألف دينار تُدفع نصفها قبل رحيله والباقي عند وصوله إلى «عكا» مع توقيعه على تعهد بعدم العودة إلى سواحل البلاد الإسلامية مرة أخرى. إن الأمر اللافت للنظر أن «شجر الدر» نجحت في ثمانين يومًا فقط في تحسين ظروف البلاد و القضاء على آثار الحملة الصليبية وكسب ود وحب الشعب المصري.

لكن وفقًا للقول المأثور «تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن». بعد مرور ثمانين يومًا على حكم «شجر الدر» وعلى الرغم مما أظهرته من مهارة وحزم في إدارة شئون البلاد وتقربها إلى العامة وإغداق الأموال والإقطاعيات على كبار الأمراء، وجدت معارضة شديدة لوجودها على عرش مصر سواء من داخل مصر أو من خارجها. داخل مصر قاد الشيخ «العز بن عبد السلام» الحملة المعارضة لجلوس «شجر الدر» على العرش متذرعًا بأن جلوسها على العرش

يخالف الشريعة الإسلامية. أما خارج مصر، كان هناك معسكران يعارضان بشدة توليها السلطة. الأول هو معسكر الأيوبيين في الشام الذين غضبوا بشدة لمقتل «توران شاه» واعتبروا هذا اغتصابًا للسلطة من قِبل المماليك. أما المعسكر الثاني تمثل في آخر خليفة عباسي وهو الخليفة «المستعصم» الذي بعث إلى قيادات الحكم في مصر قائلاً: «إن كانت الرجال قد عُدِمت عندكم فأعلمونا حتى نُسيِّر إليكم رجلاً».

الجدير بالذكر هنا أن الخليفة «المستعصم» الذي بعث بهذه الرسالة التي يسخر فيها من قيادات المماليك الذين قضوا على الحملة الصليبية السابعة، هؤلاء الذين سيكون لهم دور عظيم بعد ذلك في القضاء على التتار ووقف زحفهم في البلاد الإسلامية، كان ملكًا ضعيفًا حتى إن «ابن كثير» قد قال عنه في كتابه «البداية والنهاية»: «كان فيه لين وعدم يقظة، رغم أنه كان يحفظ القرآن ويحافظ على الصلاة».

ومن المعروف تاريخيًا أن ضعف الخليفة العباسي «المستعصم بالله» واهتمامه بالشعر والشعراء على حساب المُلك وقوة الدولة قد أدى إلى انهيار الدولة ودمارها على يد التتار ومقتله على يد زعيمهم «هولاكو» بعد سماع «المستعصم بالله» لنصيحة وزيره الخائن «ابن العلقمي».

بعد كل هذا الهجوم والحملات الرافضة لتولي «شجر الدر» عرش مصر، وبخاصة هجوم الملك الناصر «صلاح الدين يوسف الأيوبي» حاكم «دمشق» و«حلب»، لم تجد «شجر الدر» أمامها من سبيل سوى الزواج من الأمير «عز الدين أيبك» الذي لقب نفسه باسم «الملك المعز عز الدين أيبك التركماني الصالحى النجمي». على الرغم من أن «شجر الدر» تنازلت عن الحكم

لزوجها «عز الدين أيبك» وانزوت في منزلها واكتفت بلقب «السلطانة»، فإن جلوس رجل لا ينتمي للأسرة الأيوبية على عرش مصر لم يُرضِ الخليفةَ العباسي ولا الناصر «يوسف الأيوبي». قامت «شجر الدر» و«عز الدين أيبك» في محاولة منهما لإرضاء الأيوبيين والخليفة العباسي بإحضار طفل أيوبي في العاشرة من عمره ونصباه سلطانًا على مصر باسم الملك الأشرف «مظفر الدين موسى». وهنا، أعلن «أيبك» أنه مجرد نائب للخليفة العباسي وأن مصر كانت وستظل تابعة للخلافة.

على الرغم من كل هذا، ظل الناصر «يوسف الأيوبي» يرى أنه الأحق بحكم مصر. بعث الناصر «يوسف الأيوبي» بجيش كبير إلى «غزة» للاستيلاء على مصر. لكن «سيف الدين أقطاي» تصدى له ونجح في السيطرة على عدد كبير من البلاد التابعة له. وفي تلك الأثناء وتحديدًا في عام 1252م وردت أنباء عن أن الجيش المغولي بقيادة «هولاكو» قد قارب على «بغداد» عاصمة الخلافة، فما كان من «أيبك» و«شجر الدر» إلا أن قاما بإزاحة الملك الأشرف «مظفر الدين موسى»، ذلك الطفل الذي لم يحكم فعليًا ولو ليوم واحد، وأعلن «أيبك» نفسه رسميًا سلطانًا للبلاد وقام بتعيين الأمير «سيف الدين قطز» نائبًا له وقام بعقد صلح مع الناصر «أيوب» كي تتفرغ الدولة الإسلامية للخطر الأكبر المسمى «المغول».

ووسط كل تلك الحروب والصراعات التي كانت تقودها «شجر الدر» و«عز الدين أيبك» للحفاظ على استقرار مصر والاستعداد للخطر المغولي القادم من الشرق، كانت «شجر الدر» تخوض حربًا من نوع آخر، حربًا تحكمت غريزة الأنوثة فيها في «شجر الدر». فعلى الرغم من أنها قد تنازلت

عن الحكم والسلطنة رسميًا وانزوت في بيت زوجها واكتفت بمشاركته مسئولية الحكم بالمشورة، فإنها لم تقبل قط أن تشاركه فيها امرأة أخرى. أرغمت «شجر الدر» «عز الدين أيبك» على هجر وتطليق زوجته الأولى أم ولده «المنصور علي»، وحرّمت عليه زيارتها حتى إنه كان يزورهما سرًا.

في الواقع، ذهب الكثير من المؤرخين إلى أن «شجر الدر» قد سيطرت على «أيبك» تمامًا حتى إن الكثير وصفوها بأنها قد استولت على جميع أحواله ولم يكن له معها كلام. وحين بدأ «فارس الدين أقطاي» التمرد على «أيبك» بسبب ضعفه وسيطرته على «الصعيد» ساعدته في التخلص منه بقتله. ذهب البعض الآخر إلى أن «شجر الدر» هي من دبرت خطة القتل بنفسها بعد أن زاد استبداد «أيبك» وقيامه بفرض ضرائب باهظة على العامة، مما جعل الناس يشعرون أنه الحاكم الحقيقى للبلاد ويروا أنه لا يوجد من يستطيع ردعه حتى السلطان نفسه. لقد كان «أقطاي» بحق من أقوى وأشرس القادة المسلمين في ذلك الوقت وكان لكلمته صدى واسع كما كان له مكانه رفيعة وخاصة لدى الجند.

لكن «عز الدين أيبك» قد تبدّل حاله وتحول تمامًا بعد التخلص من خصمه العنيد «أقطاي». أخذ «أيبك» يُحكِم قبضته على البلاد وراح يتخلص من منافسيه من الأيوبيين واحدًا تلو الآخر رغم معارضه نائبه وتلميذه المخلص «سيف الدين قطز» لما يفعله «أيبك». ليس هذا فحسب بل أخذ يُهمّش دور «شجر الدر» ويقلل منه. وبالرغم من كل هذا حاولت «شجر الدر» أن تُدبر أمرها وتساند زوجها وتسعى للحفاظ على مكانتها في هدوء وتقوم بتصحيح الكثير من أخطاء «أيبك»، حتى جاءت القشة التي قسمت ظهر البعير. بعد

أن شعر «أيبك» أن المُلك قد استتب له، بدأ في اتخاذ خطوات الزواج من ابنة «بدر الدين لؤلؤ» حاكم «الموصل»، وهو الزواج الذي يمكننا وصفه بـ «الزواج السياسي». كان «أيبك» يهدف بهذا الزواج إضفاء المزيد من الشرعية إلى حكمه. ولكن حينما علمت «شجر الدر» بهذا غضبت غضبًا شديدًا.

حاولت «شجر الدر» أن تثني «أيبك» عن هذا الزواج لكنه لم يستمع لها. زادت الأحوال سوءًا بينهما بسبب الفتنة التي اشعلتها بينهما جارية تُدعى «مرجانة»، تلك الجارية التي سنعرف قصتها فيما بعد. ولما تأكدت «شجر الدر» من أن «أيبك» قرر بالفعل الزواج من ابنة «بدر الدين لؤلؤ» وأنه ينوي تجريدها من لقب السلطانة ومنحه لزوجته الجديدة وإعادتها إلى قصر الحريم، أسرعت في تدبير مؤامرة للتخلص منه. أرسلت «شجر الدر» تسترضيه وتتلطف له وتطلب عفوه. خُدِع «أيبك» بحيلتها واستجاب لدعوتها وذهب لها في قصر القلعة. كان ذلك في العاشر من أبريل عام 1257م. تم اغتيال «أيبك» أثناء استحمامه داخل القصر على يد عددٍ من الخدم بعد أن حكم البلاد لمدة سبع سنوات.

وفي صباح اليوم التالي، أعلنت «شجر الدر» أن السلطان قد توفى فجأة أثناء الليل. لكن المماليك «المعزية» بقيادة نائب السلطان «قطز» لم يصدقوها وقاموا بالتحري في الأمر حتى نجحوا في الحصول على اعتراف بعض الخدم تحت وطأة التعذيب بالمؤامرة التي حيكت ضد السلطان «قطز». وعلى هذا، قرروا قتلها غير إن المماليك «الصالحية» التي كانت تحت رئاسة «أقطاي» الذي قتله «أيبك» والذين أصبحوا تحت إمرة «بيبرس» قاموا بحماية «شجر الدر» وقاموا بنقلها إلى «البرج الأحمر» بالقلعة. في الوقت ذاته الذي تم فيه

الإعلان عن تنصيب «نور الدين بن أيبك» سلطانًا على البلاد وكان آنذاك صبيًا يبلغ من العمر خمسة عشر عامًا.

هنا، نأتي إلى أهم جزء في القصة وهو لحظة نهاية «شجر الدر». فعلى الرغم من وجود قناعة لدى الكثيرين بأن زوجة «عز الدين أيبك» الأولى قامت بقتلها بواسطة عددٍ من النساء والجواري ضربًا بالقباقيب انتقامًا لمقتل زوجها. فإن هذه القصة عارية تمامًا من الصحة فهي مجرد تراث وحكايات شعبية تم تناقلها دون أي سندٍ تاريخي.

أما القصة المتفق عليها حول وفاة «شجر الدر» فيمكن أن نقول أنها تعود إلى ما قبل موتها بسنوات عديدة وتحديدًا إلى وقت توليها العرش. لقد كانت هناك جارية تُدعى «مرجانة» صديقة مقربة من «شجر الدر». كانت تربطهما علاقة صداقة منذ أن كانت «شجر الدر» جارية عند السلطان «أيوب». لكن حب السلطان لـ «شجر الدر» وقيامه بعتقها وزواجه منها قد أشعل الغيرة في قلب «مرجانة» التي عُرِف عنها أنها كانت أجمل من «شجر الدر» وأكثر دهاءً ومهارةً منها. كما عُرِف عنها أنها كانت تجيد قراءة الفنجان وقراءة الطالع، وهو ما جعل «شجر الدر» تُبقي على صداقتهما وتجعلها مقربة منها بداخل القصر كجارية لها. لم تعترض «مرجانة» على هذا الأمر نهائيًا، لكنها في الوقت نفسه كانت تسعى للانتقام من «شجر الدر» والتخلص منها لكونها استولت على قلب وعقل الملك الصالح «نجم الدين أيوب» الذي كان شديد التعلق بـ «مرجانة» قبل أن تتقرب منه «شجر الدر».

ظلت «مرجانة» تضمر الشر في قلبها تجاه «شجر الدر» حتى بعد وفاة الصالح «نجم الدين أيوب». لكنها ظلت إلى جوار «شجر الدر» تقرأ لها

الطالع وتملي عليها ما تفعله. ويرى بعض المؤرخين أنها هي من أشارت عليها بقتل «توران شاه» والزواج من «أيبك». كما أنها في الوقت ذاته كانت أحد أسباب الفتنة التي وقعت بين «أيبك» و«شجر الدر» في نهاية أيامهما معًا.

بعد أن تزوجت «شجر الدر» من «أيبك» وبات لـ «شجر الدر» الكلمة العُليا فى علاقتها بزوجها. وجدت «مرجانة» في هذا الأمر فرصة جيدة للتخلص من «شجر الدر». أخذت «مرجانة» تتقرب من «أيبك» وذات مرة وبينما كانت معه اقترحت عليه الزواج من ابنة «بدر الدين لؤلؤ» لكسر شوكة «شجر الدر» وإذلالها. في الوقت نفسه نصحت «شجر الدر» بسرعة التخلص من «أيبك» قبل أن يتمم زواجه من ابنة «بدر الدين لؤلؤ». وبعد مقتل «أيبك» عملت «مرجانة» على تحريض زوجة «أيبك» الأولى على الانتقام من «شجر الدر» ومهدت لها الطريق لدخول القصر خِلسة ودفعت للجواري أموالاً حتى يسمحن لها بالدخول على «شجر الدر» في الحمام وهي عارية، ثم قتلها شنقًا.

تمت

من المؤكد عزيزي القارئ أنك لاحظت أن الملكة اسمها «شجر الدر» وليس «شجرة الدر»، إن الاسم الأخير هو خطأ شائع أردت أن أصححه لك وأوضحه توضيحًا تامًا كي لا يكون هناك لبس. إن الاسم الصحيح لها هو «شجر الدر». هذا أولاً .. أما ثانيًا فيجب أن أوضح أن الدراما المصرية بشكل خاص والعربية بشكل عام لم تنصفا «شجر الدر»، إلا في أعمال قليلة جدًا. إن الصورة الثابتة في أذهان الكثير هي الهيئة التي كانت عليها في الفيلم

التاريخي الشهير «وإسلاماه» حين قامت الفنانة «تحية كاريوكا» بتجسيد شخصية «شجر الدر» بكل براعة. ولكن مع الأسف الشديد أظهر الفيلم «شجر الدر» على أنها كانت مجرد سيدة لا تبحث إلا عن الحُكم والمُلك والعرش ولا تتوانى مطلقًا عن قتل أي شخص يقف في طريقها وأنها ارتكبت عددًا من جرائم القتل بهدف أن يكون لها حكم مصر منفردة.

بالرغم من هذا، لا يمكننا أن ننكر تحريض أو اشتراك «شجر الدر» في العديد من عمليات الاغتيال التي حدثت بعد وفاة الملك الصالح «نجم الدين أيوب». ويمكن أن نصف البعض منها بالاغتيال السياسي الذي هدف إلى تخليص البلاد من شرور بعض الأشخاص الذين هددوا أمنها وسلامتها.

لكن من باب الإنصاف، كان يجب أن نشير إلى الدور المهم الذي قامت به «شجر الدر» في توحيد مصر في وقت كان شديد الصعوبة وبالغ الدقة عقب وفاة الملك الصالح «نجم الدين أيوب» ونجاحها في قيادة البلاد للتخلص من الخطر الصليبي والإبقاء على مصر مملكة مستقلة بعد محاولة الملك الناصر «يوسف الأيوبي» ضم مصر إلى ملكه. أيضًا، يمكننا أن نقول إنها كانت صاحبة بُعد نظر في الاعتماد على المماليك وعدم إقصائهم أو إبعادهم عن حكم مصر، وهو الأمر الذي ظهر بوضوح فيما قام به كل من الملك المظفر «قطز» بمعاونة صديقة الملك الظاهر «بيبرس» في هزيمة المغول هزيمة ساحقة في معركة «عين جالوت» ووقف زحفهم وسيطرتهم على أراضي الخلافة العباسية والتي انتهت رسميًا بمقتل الخليفة «المستعصم» على يد «هولاكو».

يجب أن نوضح أن «شجر الدر» كانت نقطة تحول مهمة في مسار التاريخ. إن صعودها إلى العرش أنهى رسميًا حكم الدولة الأيوبية بدايةً من دولة المماليك التي حكمت مصر لعشرات السنين حتى انتهت بهزيمة الملك «طومان باي» على يد السلطان العثماني «سليم الأول» بعدما تعرض الأول للخيانة.

يجب أن نوضح أيضًا إجماع المصادر التاريخية على أن عهد «شجر الدر» كان عهدًا زاهيًا ومزهرًا، أظهرت خلاله قدرتها وجدارتها في الحكم. كما أنها كانت تهتم بالفقراء وتُنعم عليهم. لقد وصفها «المقريزي» و«ابن كثير» في كتبهم بأنها كانت ملكة عاقلة، لبيبة، على علم تام بنفسية الشعب واحتياجاته، وتجيد التعامل معه. لم تكن حكومة «شجر الدر» استبدادية، الأمر الذي جعلها تساعد زوجها «أيبك» في التخلص من «فخر الدين أقطاي» الذي أظهر استبدادًا كبيرًا تجاه الشعب. كما ثبت عنها أنها كانت لا تشرع في عمل من الأعمال حتى تعقد مجلس المشورة ولا تصدر قرارًا إلا بعد أخذ رأي وزرائها ومستشاريها. كما أنها عملت على نشر راية الإسلام. كان الناس آمنين خلال حكمها سواء كان بالإنابة أثناء حياة الصالح «نجم الدين أيوب» في وقت خروجه للحرب، أو بعد وفاته. لقد نبغ خلال عهدها العديد من الأدباء والشعراء المصريين. كما أنها كانت أول من سنّ عادة تسيير المحمل الشريف من مصر إلى «مكة» وهي العادة التي ظلت متبعة لمئات السنوات، حيث كان هذا المحمل يخرج كل عام من مصر إلى «الحجاز» في موسم الحج حاملاً كسوة جديدة للكعبة المشرفة بالإضافة إلى

المؤن والأموال لأهل بيت النبي ﷺ ولكل الحجاج. كان هذا المحمل يخرج مصحوبًا بفرقة كبيرة من الجيش لحماية الحجاج الذين يخرجون من مصر بصحبة المحمل.

كان لـ «شجر الدر» الكثير من الألقاب مثل «الملكة عصمة الدين»، و«الملكة أم الخليل أمير المؤمنين»، و«أم الخليل المستعصمية» ذلك نسبةً إلى الخليفة «المستعصم»، وإن كان أشهر هذه الألقاب على الإطلاق هو لقب «شجر الدر».

أخيرًا، يجب أن أوضح أننا حين نقيّم «شجر الدر» أو غيرها من الشخصيات التاريخية، أو نقيم أعمالهم يجب أن يكون هذا التقييم وفقًا للفترة الزمنية التي عاشوا فيها، ولطبيعتها وللظروف السياسية التي كانت عليها هذه الفترة ولما كان عليه الحال في هذه المرحلة الزمنية وليس وفقًا للفترة التي نحن فيها. فمن غير المنصف أن يجلس أحدنا الآن في القرن الواحد والعشرين وسط كل هذا الكم الهائل من التقدم العلمي والتكنولوجي والعسكري والسياسي ويقول لو كنت مكان فلانًا الذي كان يعيش مثلاً في القرن الحادي عشر، أو الثاني عشر الميلادي لفعلت هذا ولم أفعل ذلك. حينما نقول هذا يجب علينا أن نضع نُصب أعيننا كل الظروف التاريخية والاجتماعية والسياسية والثقافية لذلك العصر .. والآن لننتقل إلى حكايتنا الجديدة.

إليزابيث باثوري

كونتيسة الدم



«يروي البعض أنها حفيدة الكونت «دراكولا». لقد كان قصرها في منطقة «ترانسلفانيا» وهو المكان الذي جاء منه «دراكولا» كما أنها تنحدر من سلالته نفسها وتنتمي للعائلة البرجوازية العريقة نفسها».

مما نُشر عن الكونتيسة «إليزابيث باثوري»

لازال الكثير منا ينظر إلى قصص مصاصي الدماء على أنها مجرد أساطير من نتاج الخيال الشعبي العالمي المتوارث منذ القرن السابع عشر الميلادي لكن الواقع ثبت عكس ذلك. إن مصاصي الدماء ليسوا أشخاصًا أسطورية إنما هم حقيقة وقد عرف التاريخ الكثير منهم. بالطبع، هناك اختلاف كبير بين الحقيقة والأساطير التي نُسجِت عن هؤلاء فهم ليسوا أمواتًا، ولاينامو في توابيت نهارًا ويستيقظوا بالليل. في واقع الأمر، لقد كانوا بشرًا مثلنا لكن اعتراهم مرضًا ما اختلف المحللون في تفسيره، وإن كان أغلبهم قد أجمع على أنه مرض نفسي جعلهم أشخاصًا ساديين يتمتعون بتعذيب من حولهم. لكن ما وصل إليه هؤلاء الأشخاص هي مراحل متقدمة جدًا من السادية .. ومن بينهم بطلة هذه المغامرة الدموية الكونتيسة «إليزابيث باثوري».

ولدت «إليزابيث باثوري» في أغسطس من عام 1560 لعائلة مجرية من طبقة النبلاء امتد نفوذ حكمها في «المجر» و«سلوفاكيا» و«بولندا» و«رومانيا». ولكي نعرف أكثر عن «إليزابيث باثوري» يجب علينا أن نتعمق أكثر وأكثر في تاريخ آل «باثوري». أشارت الكثير من الكتب التاريخية إلى أن هذه العائلة قد أصابها مس من الجنون في الوقت الذي أشارت فيه الكتب الأخرى إلى أنها لم تكن عائلة مجنونة ولكنها كانت تمارس طقوس عبادتها

للشيطان. لكن الناس في تلك المرحلة الزمنية لم تدرك هذا وبررت ما فعلته تلك العائلة على أنه جنون.

قال المؤرخ الشهير «ريموند ماكنالي» في كتابه «البحث عن كونتيسة الدم في ترانسلفانيا» وهو الكتاب الصادر عام 1983 أن عائلة «باثوري» تميزت بتاريخ مظلم وموحش ذلك على الرغم من كونها عائلة ثرية امتلكت ثروة ضخمة استخدمتها في تحقيق إنجازات عظيمة وفوائد علميه واجتماعية كبيرة قد تغفر لها جزءًا من تاريخها الدموي الموحش. إن الجد الأول للكونتيسة «إليزابيث» يُدعى «ستيفان باثوري» كان أحد القادة المخلصين لملك «هنغاريا» - دولة المجر- لكن هذا الأخير قُتِل في أحد المعارك على يد الأتراك. بدأ «ستيفان باثوري» القتال والنضال للحصول على الحكم وهو ما تم بالفعل ليبدأ عصر عائلة «باثوري» في عدد من البلدان.

تصف لنا الكتب والمخطوطات التاريخية أن عائلة «باثوري» كانت عائلة غريبة الأطوار بكل المقاييس. لقد كان يحيط بها حالة من الغموض المرعب على الرغم من مكانتها المرموقة. كما كان من بين أفراد هذه العائلة من ينتمي إلى عبدة الشيطان، حتى إن بعض أفرادها قد عبدوا الشيطان علنًا وأقاموا مصلى ومذبح خاص به. وكان منهم أيضًا من عُرِف عنه دمويته؛ إذ كانوا مهووسين بالجلد وبتقطيع الأجساد البشرية وبسماع صرخات التعذيب وبرؤية دماء ضحاياهم. يُرجِع المؤرخون المهتمون بتاريخ تلك العائلة أسباب هذا الجنون والاختلال العقلي إلى عوامل وراثية ناتجة عن قاعدة «السمو النسبي» وهي قاعدة ذات أهمية شديدة في تلك العائلة. كان

آل «باثوري» يحافظون على التزاوج الداخلي بشكل مستمر حفاظًا منهم على النسب النبيل لعائلتهم، الأمر الذي أدى إلى إصابتهم بالعديد من الأمراض الوراثية والعقلية الناتجة عن زواج الأقارب.

على أي حال، بعد ما يقرب من مائة عام على تأسيس مُلك تلك العائلة وتحديدًا في عام 1560 ولدت الكونتيسة «إليزابيث باثوري» في واحدة من أقدم وأغنى وأعرق العائلات البروتستانتية في مدينة «ترانسلفانيا» لأبوين أصابهما جنون آل «باثوري» بالوراثة. لقد اتصف البارون «جورج باثوري» والبارونه «آنّا باثوري» بأنهما غريبي الأطوار بدرجة أثارت حفيظة كل من يعرفهما من خارج آل «باثوري». فعند حضور بعض الضيوف من الأمراء والملوك من البلدان المجاورة إلى قصر البارون «جورج باثوري» كانوا يجدونه يتصرف معهم بأدب وبطريقة راقية جدًا تدل فعلاً على مكانته وأصله النبيل هو وزوجته وتمحي كل الشائعات السيئة التي تدور حوله. وفجأة، ينقلب الحال إلى ما يستحيل تصديقه ويبدأ الجنون المطلق يطبق على المكان. يتحول «جورج باثوري» إلى شخص له تصرفات المختلون عقليًا. يقوم بالصراخ، أو الضحك بشكل هستيري وتشاركه زوجته «آنّا» في هذه الأفعال. ومن دون أي سبب أو مقدمات يعود «جورج» و«آنّا» إلى ما كانا عليه من أدب ورقي في التعامل ليُكملا حديثهما مع ضيوف الحاضرين.

يمكن القول بأن مغامرة «إليزابيث باثوري» قد بدأت في سن مبكرة جدًا من عمرها. كانت «إليزابيث» في السادسة من عمرها عندما حضرت حفلاً كبيرًا أقامه والدها في القصر. وبينما كان الجميع منشغولين في الحفل بالرقص

والضحك تعالت صرخات من حراس القصر. لقد قامت عصابة من الغجر بمهاجمة القصر. لم تدرك «إليزابيث» ـ تلك الطفلة البريئة التي كانت تلهو مع قطتها في ذلك الوقت ـ ماذا يحدث حولها. لكنها شعرت أن الأجواء باتت مشحونة وأن الحرس والجنود ينتشرون في كل مكان وسرعان ما أمر والدها عددًا من الحراس بإدخالها إلى حجرتها والبقاء على بابها لحمايتها.

مضت الليلة على «إليزابيث» التي استسلمت للنوم بعدما فشلت في رؤية أي شيء من نافذة حجرتها لشدة الظلام. لكنها في صباح اليوم التالي شاهدت ما لم تكن تتوقعه. لقد رأت والدها وعمها يقومان بقتل الغجر الذين اقتحموا القصر. لقد شاهدت أبيها يقتل طفلاً في مثل سنها تقريبًا دون أية رحمة. وهنا، أخبرتها الخادمة أن هؤلاء الناس من الغجر اقتحموا القصر وكانوا يريدون قتل عائلتها. لكن هذا المشهد الدموي كان أكبر من أن تتحمله طفلة في مثل عمرها وهو ما جعلها تبكي طوال اليوم وتعيش حالة من الذعر استمرت معها لأيام.

بعد تلك الواقعة بثلاث سنوات وتحديدًا عندما كانت «إليزابيث» في التاسعة، تعرضت لحادث ترك أثرًا كبيرًا في نفسها. لقد اشتعلت ثورة قادها الفلاحون الذين قاموا بعدد كبير من الأعمال التخريبية والحرق والسلب والنهب والقتل والتعذيب والاغتصاب وامتدت أعمالهم تلك إلى أفراد عائلة آل «باثوري». تعرضت اثنتان من أخوات «إليزابيث» للاغتصاب، ثم تم قتلهما. شاهدت «إليزابيث» كل ذلك وهي تقف مذعورة خلف أحد الأشجار. ولكن بعد نجاح الجنود في إخماد الثورة تم تعذيب الفلاحين وقتلهم أمام عينيها.

قبل أن أُكمل حديثي اسمح لي عزيزي القارئ أن أخبرك بشيء مهم هو أن كل الأحداث التي أذكرها الآن وردت في مذكرات «إليزابيث باثوري»،تلك التي عُثِر عليها في حجرتها قبل القبض عليها في أواخر أيام حياتها. إن هذه المذكرات قد نشرت في عدد من الكتب المهتمة بتاريخ عائلة «باثوري».

على أي حال، بدأت «إليزابيث» في سن الحادية عشر من عمرها تدرك طبيعة الحياة من حولها وطبيعة أسرتها القاسية والعنيفة. تذكر «إليزابيث» واقعة حدثت لخادمة كانت تعمل لدى عائلتها في القصر قائلة: «قام والدي بجرها خارج القصر بعدما قام بمعاقبتها بشدة .. لقد رماها إلى ثلج الشتاء البارد وبعدها صب الماء البارد عليها باستمرار حتى ماتت متجمدة».

بعد تلك الواقعة ذهبت «إليزابيث» في زيارة إلى عمتها الكونتيسة «كلارا باثوري» في قصرها الفخم في المجر. في الواقع، كانت «إليزابيث» تحب عمتها كثيرًا. لقد كانت «كلارا» ذات صوتٍ عذبٍ تحب الموسيقي والغناء وكانت «إليزابيث» تستمتع كثيرًا بسماع عمتها وهي تغني أو تعزف الموسيقى.كانت «إليزابيث» سعيدة جدًا بتلك الرحلة. لقد كانت تمني نفسها بأن تجد لدى عمتها التسلية والمتعة التي تفتقدهما في حياتها بقصر والدها.

وبالفعل، رحبت «كلارا» بابنة أخيها «إليزابيث» بحرارة حتى إنها أقامت حفلاً كبيرًا على شرفها ودعت له الكثير من أصدقائها. لكن هذا الحفل كان بمثابة صفعة قوية تلقتها «إليزابيث» .. لقد كتبت «إليزابيث» عنه:

«حضر الحفل أناسٌ ذوي أطوار غريبة لم أشاهد مثلهم من قبل في حياتي .. فالجميع هنا يرتدي ثيابًا غريبة وبعضهم كانوا عراة لا يرتدون شيئًا، كانوا

يتحدثون بشكل دائم عن السحر وعن الشيطان نفسه، يشربون سائلاً غريبًا أحمر اللون، عرفت فيما بعد أنه كان دمًا بشريًا».

هنا، علمت «إليزابيث» لأول مرة أن عمتها «كلارا» التي تحبها «إليزابيث» كثيرًا وتحب صوتها العذب وغنائها، امرأة غريبة الأطوار سيئة السمعة في المجر. لقد كان لها حاشية كبيرة من الأشخاص البارعين في السحر والتنجيم. ستعلم «إليزابيث» بعد تلك الواقعة بسنوات الكثير عنْ عمتها وستعرف أنها كانت تقتل الخدم بهوس. كانت «كلارا» تفرط في جلدهم وتستمتع بصوت صراخهم. كما كانت تمتلك في قصرها أحدث وسائل التعذيب التي عرفها الناس في ذلك الوقت. وعلى ما يبدو أن «كلارا» سيكون لها أكبر الأثر في شخصية «إليزابيث»، حيث كانت الأخيرة تقضي معها الكثير من الأوقات وتشاهدها تقوم بأعمال السحر والشعوذة والتعذيب.

بعد تلك الواقعة بفترة ليست بكبيرة وتحديدًا عندما كانت «إليزابيث» في الخامسة عشر من عمرها تزوجت من الكونت «فرينك نيداسدي» وكان يكبرها بحوالي 15 عامًا. بعد الزواج انتقلت «إليزابيث» للعيش مع زوجها في قلعة «كستيز» الواقعة فوق سفوح الجبال في منطقة نائية. لكن زوجها كان كثيرًا ما يتغيب عنها لحروبه ضد العثمانيين؛ إذ كان يُعتبر بطلاً قوميًا في المجر لما كان يتميز به من شجاعة في ساحات المعارك ضد العثمانيين حتى إنه نال وسام «العقاب الأسود» أعلى وسام في ذلك الوقت.

لكن غياب «نيداسدي» المستمر جعل «إليزابيث» تشعر بالملل الشديد. إن قضاء «إليزابيث» أوقاتًا طويلة بمفردها في تلك القلعة دفعها للتردد

كثيرًا على عمتها «كلارا». وفي ذلك الوقت، تعرفت «إليزابيث» على فتاة من حاشية عمتها تُدعى «دوركا» وقد كانت ساحرة حقيقية تجيد فنون السحر الأسود والشعوذة. وسرعان ما توطدت العلاقة بينهما حتى إنها رحلت معها إلى قلعتها وباتت بمثابة مساعدة «إليزابيث» في كل ما قامت به من أعمال.

بدأت «إليزابيث» تتعرف على رغباتها السادية عندما كان يحضر زوجها إلى سجن قلعته عددًا من الأسرى الأتراك ليقوم بتعذيبهم. أخذت «إليزابيث» تشارك زوجها أعمال التعذيب حتى إنها ابتكرت طرقًا جديدة في تعذيب هؤلاء الأسرى حتى الموت وكانت تشعر بسعادة بالغة في تعذيبهم. لكن بعد خروج زوجها لقيادة الحروب كانت تشعر بالملل مرة أخرى. أخذت «إليزابيث» تعذب خدمها من الرجال والنساء على حدٍ سواء وكان من بين هؤلاء خادمة عجوز تُدعى «إيلونا». كانت «إيلونا» مربية «إليزابيث» لكن ذلك لم يشفع لها عند «إليزابيث» التي باتت متعطشة للتعذيب والسادية.

على الرغم من هوس «إليزابيث» الكبير بالتعذيب وبالسادية، فإن هوسها الأكبر كان بجمالها. لقد عُرف عنها أنها كانت تقف عارية لساعات طويلة أمام المرآة تتطلع إلى جسدها وجمالها وتفكر في كيفية الحفاظ على شبابها وجمالها، ذلك الأمر الذي وطد علاقتها أكثر فأكثر بالساحرة «دوركا» التي كانت تعمل على إرضاء «إليزابيث» بأي ثمن. وبعد أعوام من زواجها وتحديدًا في عام 1604 توفي زوجها الكونت «نيداسدي». دخلت «إليزابيث» في حالة نفسية سيئة للغاية، حتى إنها أُجبرت على التخلي عن ابنها لعائلة زوجها. إن كل تلك الأحداث جعلت «إليزابيث» تشعر أن العمر يمر بها

وأنها تفقد شبابها. لقد كانت في ذاك الوقت في الأربعين من عمرها، ولم تكن هناك فائدة من كل الأدوية والعقاقير التي كانت تتناولها من أجل الإبقاء على شبابها وجمالها.

وفي يوم من الأيام، أتت لها صديقتها ومساعدتها «دوركا» تخبرها بأنها وجدت العلاج الفعّال الذي سيحافظ على شباب «إليزابيث» إلى الأبد. كان الحل هو أن تشرب «إليزابيث» دماء الفتيات العذراوات. في بداية الأمر رفضت «إليزابيث» ذلك الحل لكنها بعد ذلك أخذت تفكر فيه.

وذات يومٍ، كانت إحدى خادمات «إليزابيث» تمشيط لها شعرها، جذبت الخادمة عن غير عمد شعر «إليزابيث» بقوة فتألمت «إليزابيث». فما كان منها إلا أن قررت معاقبة تلك الخادمة بشكل بشع. قررت إحداث جروح كثيرة في وجه الخادمة باستخدام مقص فضي كانت تحتفظ به واستعملته من قبل في قتل وتعذيب الجنود الأتراك الذين كان يعذبهم زوجها في سجن القلعة

وبالطبع، تلطخت يد «إليزابيث» وملابسها بكمية كبيرة من دماء الخادمة. وحينما قامت «إليزابيث» لتغسل يدها لاحظت أن بشرتها أصبحت أكثر نضارة بسبب الدم الذي سال عليها، ففرحت كثيرًا وقررت العمل بنصيحة صديقتها الساحرة «دوركا». ومن هنا، بدأت سلسلة جرائم «إليزابيث» وبدأ التاريخ يسجل وقائع مذبحة تعد الأبشع عبر القرون.

أخذت «إليزابيث» لنفسها حاشية بقيادة الساحرة «دوركا» تساعدها في الحصول على دماء الفتيات الصغار. كانت تأمر أعضاء هذه الحاشية بربط الخادمات من أرجلهن بسلاسل وتعليقهن فوق حوض الاستحمام

الخاص بها، ثم قطع رقابهن لتصفية دمائهن في الحوض. لم تكتفِ «إليزابيث» بهذا، بل أخذت تتفنن في اختراع وسائل عديدة وأسلحة وأدوات تمكنها من الحصول على أكبر قدر ممكن من دماء ضحاياها. كان من بين تلك الاختراعات السادية ما أطلقت عليه اسم «العذراء الحديدية» وهو عبارة عن تمثال لفتاة يوجد بداخله عدد كبير جدًا من المسامير التي تغرس في جسد الخادمات اللواتي يضعن بداخل هذا التمثال. هذا إضافة إلى استخدام قفص صغير ضيق مثبت به مسامير كانت الفتاة الضحية توضع بداخله حتى تنزف كل دمائها وتموت.

مع مرور الوقت والأيام وكثرة اختفاء خادمات «إليزابيث» وتسرب أنباء عما يحدث بداخل قلعتها، قل عدد المتقدمات للعمل كخادمات بالقلعة. لكن «إليزابيث» كانت تعرض مرتبات كبيرة ومغرية جدًا، الأمر الذي جعل بعض الأسر الفقيرة في المقاطعة تتجاهل ما تسمعه من أنباء عن الفظائع التي تحدث داخل القلعة وتقوم بإجبار بناتهن على العمل هناك.

مرت الأيام وأخذت أعداد الضحايا تزداد أكثر فأكثر. إن «إليزابيث» لم يعد يكفيها شرب دماء فتاة واحدة في اليوم، بل أصبحت تملأ حوض استحمامها بالكامل بالدماء بالإضافة إلى عدد من الأقداح كي تشربها في الصباح وفي المساء قبل أن تخلد إلى فراشها. والمفارقة العجيبة هي أنها كانت تقدم لحوم تلك الفتيات وجبات للحراس والعمال داخل القلعة من دون أن يدركوا أنهم يأكلون لحومًا بشرية.

وبالرغم من تسرب العديد من الأنباء عن اختفاء عدد كبير من فتيات القرية بعد ذهابهن للعمل بقلعة «إليزابيث» إلى رجال التحقيقات في ذلك الوقت، لم يحرك أي منهم ساكنًا. لقد كان من الصعب وفقًا لقوانين تلك الفترة محاسبه، أو معاقبة الكونتيسة لأمر يتعلق بصالح الفقراء. لكن يبدو أن «إليزابيث» قد أخذت مع مرور الوقت تمنح رجال التحقيقات فرصة للقضاء عليها. بعد فترة من الوقت بدأت «إليزابيث» تشعر أن دماء الفتيات الفقيرات من الخدم لم يعد لها تأثير قوي وبات مفعولها قليل الأثر. لهذا، قررت أن تترك الفتيات الفقيرات وشأنهن وتتجه إلى فتيات الطبقة النبيلة اللواتي كانت عائلاتهن ترسلهن إلى قلعة الكونتيسة لكي يتعلمن أصول التصرف والتحدث بطريقة لبقة وكيفية التعامل في حفلات وتجمعات الطبقة الراقية. في النهاية، بات مصير هؤلاء الفتيات مثل مصير الخادمات.

بالطبع، كان التصرف على هذا النحو تهورًا كبيرًا من «إليزابيث». لكن على ما يبدو أن تعطشها للدماء بات أكبر من أي شيء وأصبح يتحكم في كل تصرفاتها ويجعلها ترتكب جرائمها بشكل متهور. بدأت تتسرب أنباء عن اختفاء عدد من فتيات الطبقة النبيلة والكثير من الشائعات ذات الصلة بهذا الأمر. لكن ما حسم ذاك الأمر لدى رجال التحقيقات هي شكاوى النبلاء الذين فقدوا بناتهم تباعًا ووصول الأمر إلى مسامع إمبراطور «هنغاريا» الذي أصدر أوامره إلى رئيس الحكومة بإرسال قوات عسكرية إلى قلعة «إليزابيث» لتحري ما يحدث هناك.

وفي ديسمبر من عام 1610، دخلت مجموعة من الجنود قلعة «إليزابيث» سرًا بالليل. وكانت هناك مفاجأة في انتظارهم بعد دخولهم القلعة. ففي وسط البهو الكبير للقلعة، وجدوا جثة فتاة لا توجد بها قطرة دم واحدة. كما وجدوا فتاة أخرى جسدها ينزف الدم فوق وعاء معدني كانت لا تزال على قيد الحياة. أما في قبو القلعة، وجد الجنود مجموعة من الفتيات المحتجزات في السجن ينتظرهن مصير السابقات لهن، كما وجدوا بالقرب من أسوار القلعة بقايا أجساد بشرية لأكثر من خمسين فتاة.

لم يكن أمامهم سوى إلقاء القبض على الكونتيسة «إليزابيث» وتقديمها للمحاكمة. وأثناء تلك المحاكمة تم الكشف عن عدد ضحايا «إليزابيث» الذي بلغ عددهم 650 فتاة. الجدير بالذكر أن تلك المحاكمة تعد من أكبر المحاكمات في تاريخ «هنغاريا» ولا تزال كل وقائعها والمستندات الخاصة بها محفوظة حتى يومنا هذا. وعلى الرغم من أن الحكم الذي صدر على «إليزابيث» كان بالإجماع هو الإعدام. لكن بسبب مكانتها الاجتماعية وكونها كونتيسة لم يتم إعدامها والاكتفاء بوضعها قيد الاقامة الجبرية في قلعتها والحكم بإعدام كل من عاونها في هذه الجرائم، ذلك بأمر مباشر من الإمبراطور. وقد طُبق هذا الأمر الإمبراطوري بالفعل لتعيش الكونتيسة «إليزابيث» أربع سنوات كاملة في إقامتها الجبرية بقلعتها حتى ماتت في عام 1614 وهي في الرابعة والخمسين من عمرها.

تمت

بالطبع، تعد تلك القصة واحدة من أكثر القصص الوحشية عبر التاريخ، حتى إنها كانت مصدر إلهام كبير لكل صُنّاع السينما العالمية لإنتاج الكثير من الأفلام والمسلسلات عن قصص مختلفة لمصاصي الدماء. تلك القصص التي اختلطت فيها الحقيقة بالأسطورة لصنع حالة من التشويق الدرامي وخلق حالة من الرعب يستمتع بها محبي هذا النوع من الأفلام. بالرغم من كل تلك الوقائع المرعبة التي تحدثنا عنها والتي ذُكرت في عدد من الكتب التي تتحدث عن تاريخ عائلة «باثوري» وعن الكونتيسة «إليزابيث»، فإن هناك ثمة آراء أخرى عن تلك القصة وددت أن أعرضها عليكم ربما لأنها تبدو منطقية إلى حدٍ كبيرٍ وبها ما يجعلنا نفكر في مدى صحتها. لهذا، سأعرضها عليكم وسنتناقش فيها معًا.

القصة الأولى تقول إن كل تلك الوقائع تم تلفيقها للكونتيسة «إليزابيث». وتستند تلك القصة إلى نقطتين مهمتين. النقطة الأولى هي عدم وضوح الحقائق المذكورة بسبب الغموض الكامن في الوثائق المعتمد عليها في سرد القصة. كما أن مذكرات «إليزابيث» تثبت أنها عانت نفسيًا بسبب ما رأته بقصر والدها وعمتها ولكنها لم تذكر على الاطلاق أنها استمتعت بما رأته. وبالطبع، لم يكن هناك شهود عيان على وقوع تلك الأحداث. أما النقطة الثانية، فتتمثل في عدد الضحايا وفي الطرق التي استخدمت لاستخلاص الدماء منهن، تلك الطرق التي تعد مبتكرة جدًا بالنسبة لذلك العصر.

على أي حال، تقول القصة الأولى إن كل تلك الأمور هي من تلفيق كبير موظفي البلاط وهو رجل يُدعى «جورج ثوزو». لقد عَمِد هذا الرجل إلى تشويه سمعة «إليزابيث» وتلطيخها قدر المستطاع لأسباب سياسية ولأطماع شخصية. إن كل تلك القصص هي قصص مدبرة هدفت إلى الإيقاع بسيدة ذات نفوذ وسلطة في عصر كان يتم فيه ملاحقة الساحرات ومطاردتها وهي تهمة من تلك التي نسبت إلى «إليزابيث».

أما القصة الثانية لا تختلف كثيرًا عن القصة الأولى. فعلى الرغم من وجود ما يقرب من 300 شهادة ضد «إليزابيث»، فإن القضية ليست واضحة تمامًا وملفقة لأسباب سياسية. فقد تبين أن الإمبراطور المجري «ماثياس الثاني» كان مدينًا لزوج «إليزابيث» الراحل وإلى «إليزابيث» من بعده بدين كبير. لم يكن الإمبراطور ينوي تسديد ذلك الدين الذي حاولت «إليزابيث» في وقت ما استعادته، الأمر الذي حرّك تلك القضية ضدها وحرمها فرصة الدفاع عن نفسها داخل المحكمة.

أما القصة الثالثة فهي لا تختلف كثيرًا عن القصتين السابقتين لها. ووفقًا للمؤرخين الذين رصدوا الحالة، فإن «إليزابيث» كانت تمتلك أرضًا ذات موقع إستراتيجي وكان الإمبراطور يحاول السيطرة عليها لكنها تصدت لتلك المحاولة. فلم يكن من البلاط الملكي سوى السعي إلى تشويه سمعتها وتدميرها.

بكل صراحة هناك عدد من النقاط التي رصدتها في قصة حياة «إليزابيث باثوري» تجعلني أميل إلى تصديق تلك الروايات سابقة الذكر وأن كل تلك الجرائم قد تكون لفقت لها لعوامل هي :

- أولاً، لم يتم إعدام «إليزابيث» وتم الاكتفاء بوضعها تحت الاقامة الجبرية في قلعتها تتمتع بداخلها بكل سبل العيش و الرفاهية.
- ثانيًا، تخفيف الحكم من الإعدام إلى الاقامة الجبرية صدر بأمر مباشر من الإمبراطور وهو نفسه الذي كان قد أصدر الأمر في البداية بالتحرك للتحقيق فيما عُرف بقضية «اختفاء الفتيات» لأن سلطات التحقيقات لم تكن سلطة لمحاكمة كونتيسة في ذلك الوقت.
- ثالثًا، في تلك المرحلة الزمنية لم يكن للفلاحين والعامة أي حقوق. لقد كانوا يعاملون معاملة أشبه بمعاملة العبيد وبالتالي فإن قتل بناتهن لم تكن جريمة يعاقب عليها القانون وقتها مهما بلغ عدد القتلى.
- رابعًا، ما يتعلق بقتل بنات الطبقة النبيلة اللواتي قدمن إلى قصر «إليزابيث» من أجل تعلم فنون الحياة الراقية. إن هذه القصة من أساسها خاضعة للشك. فالثابت تاريخيًا أن من كان يقوم بتلك الوظيفة هي مجموعة من موظفي ومدرسي القصر الذين كانوا يقومون بتعليم بنات العائلات النبيلة كل شيء بدايةً من القراءة والكتابة وصولاً لمختلف أنواع الفنون.

أيًا ما كانت الحقيقة، فمع الأسف الشديد أن القصة التي سردتها لكم في البداية هي القصة التي أجمعت عليها الآراء. لكن أيًا ما كان الأمر، فإنها قصة مثيرة توضح طبيعة الحياة في أوروبا في تلك المرحلة التي عُرفت باسم «العصور الوسطى». فهي فترة انتشر فيها الجهل والتخلف والسحر والشعوذة وإنعدام حقوق الإنسان بشكل كامل حتى إن البشر الأحرار كانوا في نظر السادة سواءً مع العبيد ... والآن لنكمل رحلتنا عبر التاريخ.

كاترين الثانية

امرأة غيَّرت التاريخ



«تهب رياح عاتية لتمنحك إما الخيال، أو الصداع»

«من أقوال الإمبراطورة «كاترين الثانية» الملقبة باسم «كاترين العظيمة»

ولدت الإمبراطورة الروسية «كاترين الثانية» في 21 أبريل عام 1729م في مقاطعة «بروسيا» في ألمانيا وتحديدًا في مدينة «شينجن». إنها ابنة الأمير «كريستيان أغسطس» وأمها هي الأميرة «جوهانا إليزابيث هولشتاين». في الواقع، لم تكن «كاترين» طفلة محببة لدى والديها. لقد كان يرغبان في إنجاب طفل ذكر، الأمر الذي جعلها مقربة جدًا من مربيتها «بابيت»، تلك الشخصية التي كان لها تأثير عظيم على الإمبراطورة «كاترين الثانية». لقد اهتمت «بابيت» بـ «كاترين» الطفلة اهتمامًا كبيرًا وساعدت في تعليمها ودراستها للكثير من الأشياء مثل التاريخ والعديد من اللغات كالفرنسية والألمانية وكذلك الموسيقي.

عندما بلغت «كاترين» الخامسة عشرة من عمرها ذهبت إلى روسيا بدعوة من الإمبراطورة «إليزابيث» لمقابلة وريث العرش الدوق الأكبر «بيتر» الذي لقب فيما بعد باسم «بطرس الثالث». وبالفعل، تم الزواج من الأمير الشاب في عام 1745 ميلاديًا. لكن بعد الزواج كانت هناك صدمة كبيرة في انتظار «كاترين». إن زوجها - ذلك الشاب اليافع البالغ من العمر 16 عامًا - لم يكن يهتم بها ولا يبالي بوجودها. لقد كان تفكيره تفكيرًا صبيًا وكل ما يهتم به هي ألعابه فحسب. لم يكن بينه وبين «كاترين» أية حياة زوجية بالرغم من محاولاتها الكثيرة.

في ذلك الوقت، بدأت «كاترين» تشعر بالخوف لأنها كانت تعلم جيدًا أن الإمبراطورة «إليزابيث» تتوق إلى أن تنجب «كاترين» وليًا للعهد. لكن

هذا لم يحدث لأنه ببساطة لم يكن بين «كاترين» و«بطرس الثالث» أية علاقة زوجية. لهذا، سعت «كاترين» إلى تعزيز مكانتها داخل القصر بطرق أخرى. تحولت «كاترين» إلى العقيدة الأرثوذكية الروسية، ثم غيرت اسمها من «صوفي فردريك أغسطس» إلى «كاترين» - ذلك الاسم الروسي الأصلي - ليصبح هو الاسم الذي عُرفت به بقية حياتها. وأخيرًا، أنجبت «كاترين» طفلاً ذكرًا بعد تسع سنوات من زواجها من «بطرس الثالث». أطلق على هذا المولود اسم «بول الأول» لكن الإمبراطورة «إليزابيث» أخذته لتربيه بطريقة تؤهله فيما بعد لاعتلاء عرش روسيا القيصرية. وربما تكون هذه التجربة قد ساهمت في تشكيل شخصية «كاترين» أكثر؛ إذ أعطتها الوقت اللازم للتفرغ لنفسها.

إن الإمبراطورة العظيمة «كاترين الثانية» كانت تعاني من زواج فاشل. لقد عاشت مع زوجها في عذاب وشقاء لسنوات طويلة. لقد دأب الدوق الأعظم على تعذيبها نفسيًا وإهمالها. لم يكن يهتم سوى بكلابه وفئرانه، بالإضافة إلى سهراته الدائمة مع أصدقائه وحاشيته وهي السهرات التي جعلته في حالة سُكر دائم جعلته يسيء دومًا معاملتها. إن هذه الحالة هي ما جعلت حياة «كاترين» في البلاط الملكي حياة فارغة. لم يكن لديها شيئًا لتفعله غير إرضاء الإمبراطورة والابتعاد عن المشاكل. كانت القراءة هي ملاذها من كل هذه العذابات، فانكبت على دراسة اللغة الروسية حتى أتقنتها، ثم تعلمت التقاليد الروسية فصارت لا تخرج على الشعب الروسي إلا في ملابس ذات طابع روسي أعطتها مظهر السيدة الروسية وهو ما قربها إلى أفراد الشعب وجعلهم يحبونها كثيرًا.

ربما ساهم هذا الفراغ العائلي الذي عاشته «كاترين» وابتعاد زوجها عنها في تقربها من «أليكسي أورلوف» - أحد رجال الجيش الروسي البارزين. في البداية، نشأت بينهما علاقة صداقة حميمة، ثم سرعان ما تحولت تلك العلاقة إلى علاقة عشق وغرام دامت لسنوات. والأمر الغريب هو أن الإمبراطورة «إليزابيث» كانت على علم بتلك العلاقة حتى إنها كانت تشك في أن ولي العهد «بول الأول» لم يكن ابن الدوق الأعظم لكنها لم تمانع في وجود تلك العلاقة؛ لأنها كانت تعلم بشخصية «بطرس الأول» وبطباعه.

عندما ماتت الإمبراطورة «إليزابيث» في ديسمبر من عام 1761م أصبح «بطرس الأول» رسميًا هو إمبراطور البلاد ولقب باسم «بطرس الثالث». لكن وجوده على عرش مثل هذه الإمبراطورية العظيمة لم يغير من شخصيته، لقد ظل كما هو ضعيف الشخصية وينحصر اهتمامه في إشباع رغباته التي تسيطر عليه خاصةً رغبته في النساء وفي الخمر مما شجع «كاترين» على الاستقلال بشخصيتها عنه وفي التقرب أكثر من الشعب حتى باتت أكثر أهمية لدى الشعب من الإمبراطور نفسه. تمادت «كاترين الثانية» في طريق الاستقلال عن زوجها الإمبراطور «بطرس الثالث» مستغله في ذلك ما تتمتع به من نفوذ في صفوف الجيش، خاصةً في «سانت بطرسبرج» مستغله في ذلك الأمر جمالها وعلاقاتها القوية مع «أورلوف» وصدقتها مع قادة الجيش. باتت «كاترين» تبحث مشاكل الشعب الذي كان يعاني في ذلك الوقت من ويلات تسلط طبقة الإقطاع.

في تلك الأثناء، تعرض الإمبراطور «بطرس الثالث» لعده محاولات إغتيال نجا منها بصعوبة وكانت أصابع الاتهام تتجه نحو زوجته «كاترين

الثانية» التي عُرف عنها طموحها الكبير للسيطرة على العرش. لكنها كانت في كل مرة تنفي الاتهامات والمحاولات التي كادت تطيح بالإمبراطور. يجب أن نوضح هنا أن علاقة «بطرس الثالث» برجال الجيش لم تكن قوية، بل كانت سيئة للغاية؛ إذ تذكر الوثائق التاريخية أنه بعد فترة من ارتقاء «بطرس الثالث» العرش وبينما كان في أحد سهراته مع حاشيته الفاسدة يشربون الخمر دخل عليه أحد قادة الجيش ليخبره بمشكلة تواجههم على الحدود مع الدولة العثمانية، لكنه وجد الإمبراطور سكرانًا. حاول هذا القائد - الذي كان أكبر سننًا من الإمبراطور - أن ينصح «بطرس الثالث» ويحثه على خدمة بلاده والحفاظ على عرش القياصرة العظام مطالبًا إياه بإصلاحات قوية في البلاد، فما كان من الإمبراطور إلا أن وقع على المراسيم التي قدمها له القائد حتى من دون أن ينظر إلى محتواها لرغبته في التخلص مما اعتبره وقتها ثرثرة.

على أي حال، أثارت محاولات الإغتيال المتكررة الخلاف بين «بطرس الثالث» وزوجته «كاترين الثانية» واشتد النزاع بينهما. كما اشتد النزاع أيضًا بين «كاترين الثانية» وبين حاشية «بطرس الثالث» الفاسدة. لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل بدأ الخلاف بين الزوجين يظهر علنًا وصار كل منهما يحيك المؤامرات ضد الآخر للدرجة التي دفعت «بطرس الثالث» إلى محاولة الزج بزوجته في السجن لكنه تراجع بعد أن تلقى تهديدات واضحة من قادة الجيش الذين كانوا يرفضون تصرفاته ويرون أن «كاترين» على حق وأنها تخاف على مصلحة البلاد أكثر منه. يبدو أن تلك التهديدات التي تلقها «بطرس الثالث» الذي كان بالأساس ضعيف الشخصية ـ كما ذكرنا ـ كانت أقوى منه وجعلته يخاف كثيرًا حيث إنه تراجع عن كل القرارات التي كان

قد أتخذها ضد «كاترين». عدل «بطرس الثالث» عن إقالتها، أو تطليقها، أو زجها في السجن، أو حتى تجريدها من أي منصب. في الوقت نفسه لجأ «بطرس الثالث» إلى حياكة المؤامرات ضد «كاترين» إلا أن شعبيتها التي كانت تتمتع بها في أوساط القادة العسكريين خاصةً في «سانت بطرسبرج» جعلها تُسرع إلى هذه المدينة لتضع التاج الإمبراطوري على رأسها مدعيه أمام حامي المدينة أن الإمبراطور حاول قتلها وطلبت من رجالها في الجيش حمايتها فصدقوها وأمروا جنودهم بقسم الولاء لها.

فيما كانت «كاترين» تغتصب عرش روسيا وتفوز بولاء قاده الجيش، كان الإمبراطور «بطرس الثالث» غارقًا في ملذاته وفي غفلة عن كل ما يحدث. كان لعلم «بطرس الثالث» بهذه الأحداث وقع الصاعقة عليه، الأمر الذي جعله يدرك أنه إن لم يبادر إلى إجراء يمتن أسس عرشه فإن السقوط سيكون وشيك الحدوث. وفي محاوله منه لتلافي هذا الأمر جمع «بطرس الثالث» مستشاريه للتشاور، فنصحوه باستعطاف الإمبراطورة وإعادتها إلى كنفه وحاولوا ثنيه عن مجابهتها نظرًا لمعرفتهم التامة بمدي النفوذ الذي تتمتع به في صفوف الجيش. كتب «بطرس الثالث» يستعطفها كي تجعله يشاركها في الحكم، فما كان منها إلا أن أرسلت إليه الكونت «بانيين» المقرب جدًا منها ليقنعه بالتنازل عن العرش وكتابه إقرار صريح بعدم صلاحيته للحكم.

لم تترك «كاترين» لزوجها أية فرصه للتفكير. أمرت أحد القادة العسكريين بمحاصرة قصر«بطرس الثالث» ووضعه قيد الإقامة الجبرية تحت حراسه مشدده في قصر «روپشا» الشهير وأعلنت توليها لمقاليد الحكم من أجل حماية المذهب الأرثوذكسي وحماية الشعب الروسي المهدد بالضياع

في ظل إمبراطور مستهتر. تطورت الأمور نتيجة الصدام الذي وقع بين رجال «كاترين» وبعض المناصرين للإمبراطور «بطرس الثالث» الذي انتهى بمقتل الإمبراطور. ويقال إن «بطرس الثالث» لم يُقتل في تلك الأثناء لكنه بقي فترة تحت الإقامة الجبرية وقتل بعدها بعدة شهور أثناء شجار عائلي. وأشيع أيضًا بين الناس أنه مات نتيجة مرض خطير ألم به فجأة، وهو ما جعله يتنازل عن العرش للإمبراطورة «كاترين الثانية».

بعد أن تولت «كاترين» الحكم رسميًا لقبت نفسها بالإمبراطورة «كاترين الثانية». عاد النظام إلى روسيا وشهدت انتعاشًا كبيرًا، فتوسعت أراضي الإمبراطورية الروسية على حساب جيرانها، وازدادت قوتها العسكرية حتى اضطرت الدول الأوربية الغربية إلى الاعتراف بها كقوة عظمى إلى جانبها في العالم. كما تمكنت «كاترين الثانية» من هزيمة عدد من القبائل الموالية للدولة العثمانية في «القرم». وبعد حرب استمرت لسنوات طويلة، تمكنت «كاترين الثانية» من إنهاء هذه الحرب التي عُرفت تاريخيًا باسم «الحرب الروسية العثمانية» وتمكنت من توقيع إتفاقية سلام مع هذه البلاد بعد أن نجحت في هزيمتها في عدد من المعارك. وبالطبع لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، عملت «كاترين الثانية» على إضعاف الدولة العثمانية من الداخل؛ حيث شجعت الحركات الثورية في «البلقان» ضد العثمانيين ودعمت حركة تمرد عدد من الولاة في الشرق مثل دعمها لحركة «علي بك الكبير» والي مصر و«الظاهر عمر» والي «صيدا».

لكن قبل أن نسهب في الحديث عن إنجازات الإمبراطورة «كاترين الثانية» يجب أن نوضح أنه بعد توليها العرش رسميًا بفترة لم تصدق فئة

من الشعب الروسي أن الإمبراطور قد مات نتيجة مرضٍ خطيرٍ ألم به. كان الجميع يعرف أنه لم يكن يعاني من أي مرض خطير، بل كانت صحته ممتازة بشهادة أطبائه. أشاع هذا الأمر بلبله في صفوف الشعب سرعان ما انتقلت إلى صفوف الجيش. وعندما اشتمت الإمبراطورة رائحة التمرد، أمرت ضباطها الموالين لها بإجراء حمله تطهير في صفوف الجيش أدت إلى إختفاء آلاف من الجنود والضباط المعروفين بولائهم للإمبراطور السابق؛ حيث كان مصيرهم القتل، أو السجن، أو التسريح. إلى جانب ذلك، شنت «كاترين الثانية» حملة إرهاب بين أفراد الشعب الروسي للدرجة التي لم يعد أحد يجرؤ على الكلام، أو مخالفه أوامر الإمبراطورة. كانت هذه أول حركة تمرد تنجح «كاترين الثانية» في إخمادها رسميًا.

نعود مرة أخرى إلى الحديث عن إنجازات «كاترين الثانية» التي كان منها إزدياد ثروات إمبراطوريتها نتيجة استيلاء «كاترين الثانية» على عدد من الأراضي التابعة للإمبراطورية العثمانية؛ حيث أدى هذا الأمر إلى ازدهار التجارة واتساع نفوذ الإمبراطورية ونفوذ «كاترين الثانية» شخصيًا كإمبراطورة روسيا القيصرية. لكنها وقعت في الخطأ نفسه الذي وقع فيه غيرها. لقد سمحت لرجال الجيش بمضاعفة الضرائب على الفلاحين مما أفقر البلاد بشدة وأدى إلى حدوث مجاعة بين أفراد الشعب الروسي. ظهرت حركة تمرد أخرى على الإمبراطورة الروسية، لكن «كاترين الثانية» نجحت في قمعها بالقوة و بالارهاب مما أدى إلى موت آلاف من أبناء الشعب الروسي.

اسمح لي أن أتدخل هنا كي أحكي لك مفارقة تاريخية غريبة. ففي الوقت الذي كان يعاني فيه الشعب الروسي من مجاعة كان الشعب الفرنسي يعاني

من الأمر نفسه؛ حيث جمعت علاقة صداقة قوية بين الإمبراطورة «كاترين الثانية» وملكة فرنسا الشهيرة «ماري أنطوانيت». لقد كتبت لها تنصحها بكيفية التعامل مع تمرد الشعب الفرنسي على سوء الأوضاع قائلة: «على الملوك والملكات ألا يعبئوا بصيحات الشعب مثلما لا يعبأ القمر بنباح الكلاب».

إن الأمر الجدير بالذكر هنا هو أن تعطش «كاترين الثانية» الدائم لتوسعة حدود إمبراطوريتها كان أحد أسباب إفقار الشعب الروسي أكثر فأكثر. لقد قامت بتوسيع ملكها غربًا؛ حيث حاولت إخضاع بولندا التي دخلت في حرب مع روسيا بداية من عام 1765م حتى عام 1795م وهي الحرب التي اضطر فيها البولنديون إلى الاستعانة بالدولة العثمانية التي دخلت في حرب مع روسيا - تلك الحرب التي تحدثنا عنها من قبل وانتهت بهزيمة العثمانيين وتوقيع هدنة أدت إلى اعتراف العثمانيين رسميًا بانفصال «القرم» وأحقية روسيا في الإبحار في البحر الأسود وفي الأرخبيل التابع له. لكن هذه الهدنة سرعان ما انتهت بسبب طموحات «كاترين الثانية». ففي عام 1783، اندلعت حرب جديدة انتهت بضم «القرم» و«كوبان» إلى روسيا وإطلاق اسم «الطوريد والقوقاز» عليهما.

هنا، يجب أن نوضح أن «كاترين الثانية» كانت سياسية ماهرة وشديدة الذكاء. تتضح هاتان الصفتان من طريقة التعامل التي انتهجتها «كاترين الثانية» مع السكان المسلمين بتلك المناطق التي باتت ضمن حدود مملكتها بعد أن كانت تابعة للدولة العثمانية. منحت «كاترين الثانية» المسلمين هناك الكثير من الإمتيازات لدرجة أنها كانت تعاملهم بصورة أفضل من تلك التي تعامل بها شعبها في روسيا. لقد سمحت لهم بإقامة الشعائر الاسلامية

ونسخ المصحف باللغة العربية وبناء المساجد، ومنعت بأمر شخصي منها كل حملات التنصير، أو إجبار أهل تلك المناطق على الدخول في الديانة المسيحية، كي تضمن ولائهم لها وعدم انضمامهم للدولة العثمانية إذا ما اندلعت الحرب مجددًا مع الدولة العثمانية. لكن مساعي الإمبراطورة باءت بالفشل؛ حيث ناصر أهالي «البلقان» الدولة العثمانية في كل حروبها ضد روسيا القيصرية.

على الرغم من حالة الفقر التي عانى منها الشعب الروسي بسبب كثرة الحروب التي خاضتها الإمبراطورة «كاترين الثانية»، فإنها قامت بعدد من الإصلاحات الاجتماعية التي تُحسب لها والتي ساهمت في تحسين أحوال الفلاحين والشعب ولو بصورة طفيفة. لكن هذه الإصلاحات لم تمنع من حدوث انتفاضة ضخمة ثانية بين الفلاحين وبعض جنود الجيش بقيادة جندي يُدعى «إيميليان بوغاتشوف». شمل نطاق هذه الانتفاضة مناطق عديدة في حوض «الفولغا» ومنطقه «الأورال» وسهل «سيبيريا الغربية».

في واقع الأمر، كان السبب الرئيسي في اندلاع تلك الانتفاضة شائعة أطلقها «بوغاتشوف» مدعيًا أن الإمبراطور «بطرس الثالث» لم يمت، وأنه هو الإمبراطور، وأنه تم إخفائه قسرًا ولكنه تمكن من الهرب، وأنه يطالب بعرشه المغتصب. وما ساعد في التفاف الناس حوله هي الوعود التي وعدها لهم بتمليكهم الأراضي التي سينتزعها من الاقطاعيين. كانت تلك الانتفاضة، أو تلك الثورة واحدة من أكثر الثورات دموية في تاريخ الإنسانية؛ حيث انطلق المشاركون فيها من قرية إلى أخرى يحرقون ويسلبون وينهبون ممتلكات الأغنياء، بل ويقتلوهم ويغتصبون نسائهم ثم يقتلوهن بعد ذلك دون رحمه. وصلت تلك الثورة إلى مشارف «موسكو»، وما زاد من

فرصة استمرارها هو عدم تمكن «كاترين الثانية» من إرسال أعداد كبيرة من الجيش لقمعها. ففي ذلك الوقت، كان جيشها كله على الجبهة يحارب الدولة العثمانية. لكن «كاترين الثانية» نجحت في النهاية في إخماد تلك الثورة بطريقة وحشية كتلك التي اتبعها الثوار.

لم تتوقف الأزمات التي واجهتها «كاترين الثانية» أثناء فترة حكمها عند الحرب، أو عند حركات التمرد. لقد واجهت أزمات من نوعية أخرى؛ ألا وهي الأزمات الوبائية. ففي عام 1768، تفشى مرض الجدري القاتل في «سيبريا» وانتشر بسرعة رهيبة في كل أرجاء الإمبراطورية الروسية. لكن «كاترين الثانية» لم تقف مكتوفة الأيدي؛ فحينما شعرت بعجز الأطباء الروس عن التعامل مع الوباء سارعت بالتواصل مع طبيب إنجليزي يدعى «توماس ديميسديل». جاء «ديميسديل» إلى روسيا بعد أنه وعدته الإمبراطورة بمكافأة مالية سخية وبتوفير الحماية الكافية له في حال حدوث أي مكروه. وبالفعل، أجرى الطبيب الإنجليزي العديد من الأبحاث التي توصل بها إلى تطعيم لمرض الجدري؛ وبهذا أنقذ الطبيب الإنجليزي الإمبراطورية الروسية من مرض فتّاك، ولكن بعد أن أودى هذا المرض بحياة ما يقرب من 20 ألف شخص.

يحسب للإمبراطورة «كاترين الثانية» إصرارها على أن تكون أول شخص يخضع لتجربة اللقاح الجديد الذي اخترعه «ديميسديل» على الرغم من أنه لم يكن متأكدًا من مدى كفاءة اللقاح. ولحسن الحظ، نجحت التجربة وخلال أيام قليلة شفيت «كاترين الثانية» بعد ظهور أعراض المرض عليها. شجعت هذه النتيجة أبناء الشعب الروسي على الوثوق في التطعيم، وسرعان

ما تم تطعيم الشعب بأكمله، وبهذا تمت السيطرة على هذا المرض الوبائي والقضاء عليه نهائيًا.

أما عن الأيام الأخيرة في حياة «كاترين الثانية»، فقد كانت أيضًا أيامًا مليئة بالإثارة. لقد عزمت «كاترين الثانية» تزويج إحدى حفيداتها إلى ملك السويد «غوستاف الثالث» التي كانت تربطها به صلة قرابة. ولكن في يوم الزفاف وبعدما أعدت «كاترين الثانية» مراسم الزواج في القصر الشتوي، ظلت هي وحفيدتها في انتظار وصول ملك السويد الذي لم يأتِ. لقد رفض «غوستاف الثالث» القدوم، أو التوقيع على عقد الزواج بسبب وجود شرط لم يرض به في العقد؛ ألا وهو عدم تغيير العروس لمذهبها الديني كما تتطلب العادة السويدية.

لم يحضر ملك السويد على الرغم من كل الضغوط التي مارستها عليه «كاترين الثانية»؛ ذلك الأمر الذي جعلها هي وحفيدتها تشعران بالإهانة البالغة وجعلها تقرر حشد جيش عظيم تقضي به على الملك «غوستاف الثالث». لكن القدر لم يمهلها؛ إذ ألمَّ بها ألمٌ كبيرٌ سقطت على إثره في صباح اليوم التالي لتلك الواقعة المخجلة مشلولة. ماتت الإمبراطورة العظيمة في عام 1796 عن عمر يناهز 67 عامًا لتصبح بذلك المرأة التي جلست على عرش روسيا القيصرية لأطول مدة من الزمن؛ إذ امتدت فترة حكمها من عام 1762 وحتى وفاتها في عام 1796.

تمت

إن قصة الإمبراطورة «كاترين الثانية» من أكثر القصص التي يمكن أن نعرف منها أن لكل إنسان منا جانبين جانب صالح وجانب فاسد. وهي

القصة التي تجعل الكثير منا يرى بوضوح أن أي حاكم هو في النهاية إنسان يخطئ ويصيب، وأنه له ما له وعليه ما عليه. فعلى الرغم من كل تلك الفظائع التي اتسمت بها فترة حكم الإمبراطورة «كاترين الثانية»، يحسب لها أنها حافظت على الإمبراطورية الروسية من الانهيار والضياع وأنها ساهمت في زيادة مساحتها ومواردها الاقتصادية وأنها قامت بتحقيق الكثير من الإنجازات السياسية والاقتصادية والتجارية.

على جانب آخر، عُرِف عن الإمبراطورة «كاترين الثانية» عشقها للفنون والآدب والعلوم؛ إذ يعتبر متحف «الأرميتاج» - أحد أشهر المتاحف في العالم - ثروة روسية قومية بفضل شغف «كاترين الثانية» للفنون؛ إذ بدأت فكرته بمجموعة شخصية لها من الأعمال الفنية، ثم أمرت ببناء «الأرميتاج» في عام 1770 كي يجمع مجموعتها المتزايدة من اللوحات والمنحوتات والكتب. وبحلول عام 1790، بات «الأرميتاج» موطنًا لـ 38 ألف كتاب و10 آلاف جوهرة و10 آلاف لوحة، بالإضافة إلى جناحين مكرسين لمجموعاتها الفنية التي أثارت فضولها. كما شهد عهدها أيضًا التوسع في دراسة التأثيرات الكلاسيكية الأوروبية في الأدب والفنون وهي الدراسة التي كانت مصدر إلهام التنوير الروسي. وبالطبع يُحسب لها أنها كانت صاحبة فكرة الأوبرا الروسية والراعية لها.

كما يُحسب لها أيضًا أنها اختارت دمج الإسلام في الدولة بدلاً من القضاء عليه ومحاربته بعدما كان محظورًا ومحاربًا في العهود السابقة لها. قامت في عام 1773 بإصدار مرسوم «تسامح جميع الأديان» الذي سُمِح بموجبه للمسلمين ببناء المساجد وممارسة جميع شعائرهم الدينية. فعلى الرغم من

حروبها مع الدولة العثمانية، فإنها تعاونت معها من أجل تيسير شعائر الحج إلى مكة المكرمة؛ وهي الشعيرة التي كانت ممنوعة تمامًا في العهود السابقة لعهد «كاترين الثانية». كما يُحسب لها أيضًا أنها أنشأت جمعية «أورينبورغ» الروحية المسلمة؛ تلك التي هدفت إلى نشر تعاليم الإسلام في المناطق المأهولة بالمسلمين، واستعانت فيها برجال دين من الدولة العثمانية. كما أنها أمرت في عام 1786 بدمج المدارس الإسلامية في نظام المدارس الحكومية الروسية من أجل أن يتم الإنفاق عليها من قِبل الدولة.

الحقيقة أن أكثر ما استوقفني في شخصية «كاترين الثانية»، تلك الفتاة التي عاشت طفولتها بلا أصدقاء، وكانت محدودة التعليم لكونها نشأت في كنف أسرة متواضعة من نبلاء ألمانيا، ثم أتت إلى روسيا وهي في الخامسة عشر من عمرها، هو نجاحها في صناعة أسطورتها بنفسها ونجاحها في تعلم اللغة الروسية وتقاليد البلاط الروسي وأركانه. وتحولت «كاترين» من اعتناق البروتستانتية إلى اعتناق المذهب الأرثوذكسي المعتمد في الكنيسة الروسية. وقد جعلها هذا التحول أقرب إلى قلوب عامة الشعب الروسي.

لقد ظلت «كاترين» لسنواتٍ طوالٍ خاضعة لسطوة حماتها - أو عمة زوجها الإمبراطورة «إليزابيث» - من دون أن تثير مشكلة واحدة معها. وتحملت كونها زوجة لإمبراطور لا يأبه بها ولا يأبه به أحد. لقد كانت معاناة «كاترين الثانية» كبيرة في سنواتها الأولى في القصر؛ حيث أحاط بها كم كبير من الدسائس بالإضافة إلى تجسس الإمبراطورة «إليزابيث» عليها وعلى تفاصيل ما يدور في حجرة نومها. وبالطبع لا يمكننا تجاهل نقطة أنها ظلت عذراء لمدة تسع سنوات بعد زواجها من «بطرس الثالث» وأنها تحملت هذا

الوضع من دون أن تشتكي، وأنها تحملت إلحاح الإمبراطورة «إليزابيث» الشديد عليها في إنجاب ولي عهدٍ للبلاد.

ليس هذا فحسب ما استوقفني في قصة حياة «كاترين الثانية»، لكن استوقفني أيضًا ذلك التشابه الكبير والمرعب بين حياتها وحياة صديقتها ملكة فرنسا «ماري أنطوانيت». لقد جاءت الأخيرة من مسقط رأسها في النمسا كي تعيش في البلاط الملكي الفرنسي الحافل بالمخططات والدسائس والمؤامرات، ونجحت في السيطرة على هذا البلاط حتى انتهى أمرها باندلاع الثورة الفرنسية الكبرى في 14 يوليو من عام 1789. إن هذا التنقل التراجيدي في حياة الشخصيتين جاء متشابهًا لدرجة غريبة، سواء كان في رحلة الصعود أو حتى في النهاية الدرامية لكل منهما. لقد ماتت «كاترين الثانية» بشكل مفاجئ بعد يوم واحد من إصابتها بالشلل الدماغي في الوقت الذي كانت فيه في أوج قوتها وعظمتها، بينما أعدمت «ماري أنطوانيت» على يد الثوار من الشعب الفرنسي.

إن كل هذه المفارقات بحياة الإمبراطورة «كاترين الثانية» تجعلنا على يقينٍ تامٍ من أن كل حاكم يجلس على كرسي الحكم في أي زمان أو مكان يحمل جانبين لشخصيته. الأول هو ذلك الجانب الذي يحمل الخير، أما الثاني هو ذلك الذي يحمل القسوة والشدة. ربما يرى شخص ما جانب الخير فحسب في شخصية الحاكم، بينما يرى شخص آخر جانب الشر والقسوة فحسب. يجلس هذان الشخصان ويقدم كل منهما ما يراه من أدلة تشير إلى صدق رأيه في هذا الحاكم، من دون أن يدركا أن كلاهما على صواب. إن الحاكم يحمل بشخصيته الجانب الطيب، المصلح، المتسامح، راعي الفقراء، وفي الوقت

ذاته يحمل الجانب القاسي، الشديد الذي يلجأ للقمع إذا ما استدعى الأمر للحفاظ على الدولة وترابطها وتماسكها.

والآن، دعونا نكمل رحلتنا مع شخصية جديدة تتمتع هي الأخرى بالغموض وكانت حياتها مليئة بالإثارة والمفارقات.

فيرجينيا وولف

حينما تتجسد المأساة في شخص



«أنا في أشد الحاجة للعُزلة، أحتاجُ بأن أشعُر بانتمائي لنفسي، مؤخرًا بدأت أقتنع تمامًا بأن القراءة هي حياتي الأُخرى السرية، وملجأي الشخصي الذي أهرب إليه دائمًا».

«فيرجينيا وولف»

شهد يوم 25 يناير من عام 1882م ولادة واحدة من أيقونات الأدب الحديث وإحدى علاماته التي ستظل باقية في وجدان العالم للأبد .. ففي هذا اليوم ولدت الكاتبة الإنجليزية «فيرجينيا وولف» في العاصمة الإنجليزية «لندن» لأبوين يعشقان الفنون والثقافة؛ حيث كان والدها مؤرخًا وكاتبًا وكانت والدتها عارضة لرسومات الفنانين، وكانت عمتها إحدى أشهر المصورين في القرن التاسع عشر. وقد أصقلت هذه النشأة النزعة الفنية داخل «فيرجينيا» منذ طفولتها.

ظهرت ملامح موهبة «فيرجينيا» في وقت مبكر وتحديدًا عندما كانت في التاسعة من عمرها؛ ذلك حينما قامت هي وأشقاؤها بابتكار فكرة جريدة عائلية. حملت هذه الجريدة اسم «هايد بارك نيوز غايت» .. وهي الجريدة التي أخذت «فيرجينيا» تستعرض فيها بشكل روائي عددًا من المواقف الطريفة التي تحدث لأسرتها.

كشفت «فيرجينيا» في مذكرتها عن بعض ملامح حياتها أثناء فترة طفولتها؛ إذ أوضحت أن أسرتها اعتادت خلال فصل الصيف الانتقال من «لندن» إلى منطقة «كورنوال» بالساحل الجنوبي الغربي لإنجلترا، لافتة النظر إلى أن ذلك الانتقال السنوي قد أثار بداخلها الكثير من التغيرات التي جعلتها ترصد الكثير من الاختلاف الكبيرة بين الحياة في المدينة والحياة في

القرية خاصةً في النواحي المتعلقة بالالتزام والحرية؛ ذلك الأمر الذي دفعها للكتابة في سن مبكرة للتعبير عما اختلج في نفسها من مشاعر متداخلة يرجع سببها إلى الاختلافات التي باتت تلاحظها من حولها.

على أي حال، بدأت رحلة «فيرجينيا» مع المعاناة والألم مبكرًا. فعندما كانت في الحادية عشر من عمرها توفيت إحدى شقيقاتها، ثم توفيت والدتها وهي في سن الثالثة عشر. هذا كله عرّض «فيرجينيا» إلى أزمة نفسية زادت حدتها بوفاة والدها وهي في الثانية والعشرين من عمرها. لقد أصابتها حالة من الاكتئاب الشديد جعلتها عاجزة تمامًا عن الكتابة.

على ما يبدو أن ما شهدته «فيرجينيا» من مواقف مأساوية وهي لا تزال في سن صغيرة كان السبب الرئيسي في ظهور كل هذا الكم من الحزن والألم في كتابتها وفي العديد من رواياتها المشهورة. على أي حال، بعد وفاة والدها وتحديدًا في عام 1905، انتقلت «فيرجينيا» للعيش في منزل أختها الكبرى التي كانت تعمل رسامة. لقد أصبح هذا المنزل فيما بعد مركزًا لتجمع عدد كبير من الفنانين والكُتّاب الكبار.

ظلت «فيرجينيا» تعيش في منزل أختها لمدة سبع سنوات حتى التقت بزوجها الكاتب «ليوناردو وولف». كانت «فيرجينيا» في ذلك الوقت تصارع أحزانها، فاحتوى «ليوناردو» أحزان «فيرجينيا» وقلقها وساعدها كثيرًا كي تتجاوز محنتها. لقد كتبت «فيرجينيا» في رسالتها الأخيرة قبل انتحارها أن زواجها الذي استمر لما يقرب من ثلاثين عامًا كان هو الحدث الوحيد السعيد في حياتها.

أخذ «ليوناردو» يشجعها أكثر على الكتابة، بل وتعاونا في شراء طابعة مستعملة أصبحت حجر الأساس التي أقيمت عليه دار النشر الصغيرة التي قام الزوجان المحتبان بتأسيسها في منزلهما ليقوما بنشر مؤلفاتهما، ثم مؤلفات الكثير من الكُتّاب الكبار فيما بعد.

لكن حياة «فيرجينيا» الأدبية كانت قد بدأت قبل هذا الزواج بأعوام. ويعتبر عام 1908 هو البداية الحقيقة لها ككاتبة. ففي ذلك العام، قررت «فيرجينيا» التمرد على القواعد السائدة لكتابة الرواية في العصر الفيكتوري وقررت أن تبتكر نمطًا جديدًا للرواية يتفوق فيه الكل على الجزء بحيث تتخلل الرواية الكثير من مظاهر ومناحي الحياة التي غابت عن الروايات التقليدية المتعارف عليها آنذاك. وبالفعل، قامت «فيرجينيا» بتجربة طريقتها الجديدة في الكتابة؛ تلك التي ظهرت في رواية لها تم نشرها بالملحق الأدبي لجريدة «التايمز» وغيرها من الصحف في ذلك الوقت.

لكن، يبدو أن المعاناة كانت مصرة على ملاحقة «فيرجينيا». خلال الثلاث سنوات الأولى من زواجها أخذت صحتها النفسية والعقلية تتدهوران مما جعلها تعاني من حالة عدم إتزان وتدخل في حالة اكتئاب شديدة؛ حتى إنها أقدمت على الانتحار في عام 1913 لأنها شعرت أن أختها باتت تحتقرها، وأن زوجها لم يعد يحبها بسبب علتها النفسية. لكن بالرغم من كل هذه المعاناة، استمرت «فيرجينيا» في الكتابة حتى جاء عام 1915 وهو العام الذي صدرت فيه روايتها الأولى بعنوان «رحلة الخروج»؛ تلك الرواية التي استوحت «فيرجينيا» ملامح الكثير من شخوصها من نماذج موجودة في الحياة الواقعية من بينهم أفراد أسرتها وأصدقائها.

تـدور أحـداث هـذه الروايـة حـول «راتشـيل فينـراس»، تلـك الفتـاة المرفهـة التـي لم تتعـرض لمصاعـب الحيـاة. تذهـب «راتشـيل» في رحلـة إلى جنـوب إفريقيـا تتعـرف مـن خلالهـا عـلى معنـى الحريـة. وبعـد رحلـة قصـيرة إلى منطقـة «الأمـازون» تصـاب «راتشـيل» بعـدوى مـرض قاتـل يوقعهـا في نوبـات مـن الهذيـان قبـل أن تمـوت. وبينـما يصـف أسـلوب السـرد الـذي اتبعتـه «فيرجينيـا» النـاس والمبـاني وعنـاصر الطبيعـة وصفًـا عامًـا، تطـوف بطلـة الروايـة «راتشـيل» في أحلامهـا ونوبـات هذيانهـا في عـوالم سرياليـة. وبرحلـة «راتشـيل» إلى المجهـول تبـدأ «وولـف» رحلتهـا في التمـرد عـلى طريقـة الكتابـة الكلاسـيكية.

لكـن كـما ذكـرت لـك عزيـزي القـارئ، يبـدو أن المعاناة كانـت مصرة عـلى ملاحقـة «فيرجينيـا». ففـي شـهر أبريـل مـن العـام نفسـه انتابتهـا حالـة شـديدة مـن القلـق والاكتئـاب دخلـت عـلى إثرهـا في نوبـات مـن الهذيـان، لكـن «فيرجينيـا» تمكنـت بشـجاعة مـن مواجهـة أزمتها النفسـية ومـن التغلـب عـلى كل تلـك الخيـالات البغيضـة التـي تهـدد سـلامتها. كـما اجتهـدت في إبعـاد أشـباح الجنـون والاكتئـاب عنهـا. لقـد تحدثـت «فيرجينيـا» عـن ذلـك الأمـر في مذكراتهـا. وبالرغـم مـن وجودهـا عـلى هـذه الحالـة النفسـية المأسـاوية، نـشرت «فيرجينيـا» روايتـين همـا: «الليـل والنهـار» في عـام 1919، ثـم روايـة «غرفـة يعقـوب» عـام 1922.

وبعـد أعـوام مـن المعانـاة ومـن محاربـة الإعتـلال النفسي الـذي ألم بهـا، تمكنـت «فيرجينيـا» مـن الوقـوف مرة أخـرى عـلى قدميهـا ومواصلة

تطبيق أفكارها المتمردة حتى إنها في عام 1924 ألقت محاضرة في جامعة «كمبريدج» بعنوان «الشخصية في الرواية»، تلك التي نُشرت في العام نفسه التي في كتيب لها. وفي تلك المحاضرة، احتفت «فيرجينيا» بالانفصال عن قيم المجتمع الأبوي وهاجمت النزعة التقليدية في الرواية لإغفالها جوهر الشخصية، ثم قامت في العام التالي بنشر رواية أخرى بعنوان «السيدة دالواي». وتم تصنيف هذه الرواية على أنها تنتمي إلى تيار «ما بعد التأثيرية». تعرضت هذه الرواية للكثير من الموضوعات الشائكة؛ حيث تخللتها الكثير من الأحداث التي تعالج القضايا النسوية والمرض العقلي والشذوذ الجنسي في «إنجلترا» في زمن ما بعد الحرب العالمية الأولى.

وبعد ذلك بأعوام وتحديدًا في عام 1927 نشرت «فيرجينيا» رواية جديدة لها عُرفت باسم «الفنار». والحقيقة أن «فيرجينيا» اختارت موعدًا للنشر يتوافق مع الذكرى الثانية والثلاثين لوفاة شقيقتها «جوليا»؛ حيث كانت هذه الرواية سردًا لذكريات طفولتهما في الإجازاة الصيفية في منزل عائلتهم الريفي. لقد حققت هذه الرواية نجاحًا كبيرًا على المستويين النقدي والبيعي ويمكن اعتبارها السبب في تغيير مسار كتابة الرواية في العالم أجمع؛ حيث قامت «فيرجينيا» باستبدال حالة التسلسل السردي إلى بناء ثلاثي الأجزاء. أوضحت «فيرجينيا» فيما بعد أنها كانت قد قررت التمرد على ما كان يقوم به كُتّاب الرواية في ذلك الوقت باهتمامهم المبالغ فيه باللغة واختيار

العبارات المنمقة أكثر من اهتمامهم بالمفاهيم الواقعية وبالسرد الواقعي الممزوج بالخيال.

إن الكتاب الذي أصدرته «فيرجينا وولف» بعنوان «غرفة تخص المرء وحده» في عام 1929، ضم بين طياته عددًا من المقالات النسوية لها وكان بمثابة القنبلة التي انفجرت في وجه المجتمع الإنجليزي الذي كان ولا يزال يتسم حتى وقتنا هذا بالتحفظ. ناقشت خلاله «فيرجينا وولف» دور المرأة في الأدب، وطرحت من خلاله فكرة ضرورة امتلاك المرأة للمال ولمسكن خاص بها. كما انتقدت غياب المرأة عن مشاهد التاريخ، مؤكدة أن تصدر الرجال لهذه المشاهد ليس بسبب افتقار المرأة للقدرة وللعقل، ولكن بسبب فقرها. وأوضحت «وولف» أن هناك حالة من عدم المساواة الواضحة بين النساء والرجال في فرص التعليم وفي العمل، الأمر الذي يؤثر بالسلب على المجتمع بأثره. كما حثت النساء أيضًا على التمرد على المقولة الشهيرة «ملاك في المنزل»، تلك التي تعود إلى قصيدة شاعت خلال العصر الفيكتوري في القرن التاسع عشر تمدح النساء لأنهن يضحين بأنفسهن من أجل الرجال.

خلاصة القول، إن كل أفكار «فيرجينيا» في تلك القضية تحديدًا يمكن توضيحها من خلال تلك الكلمات التي تضمنتها إحدى مقالاتها حيث قالت: «ما تحتاجه النساء ليس التعليم فقط، إذ ينبغي أن تتمتع النساء بحرية التجربة وأن يختلفن عن الرجال

بدون خوف ويعبرن عن اختلافاتهن بحرية التجربة، كما ينبغي تشجيع النشاط الفكري بما يعزز دائمًا وجود نساء يفكرن ويبتكرن ويتخيلن ويبدعن بحرية مثلما يفعل الرجال وبدون خشية من السخرية منهن والعطف عليهن».

جدير بالذكر أن اندلاع الحرب العالمية الثانية كان بمثابة بداية النهاية. لقد أثرت الحرب العالمية الثانية على حياة «فيرجينيا» وعلى صحتها النفسية بشكل كبير. بعد فترة من كتاباتها المناهضة للحروب والداعية للسلام قُتِل ابن أختها أثناء القتال في الحرب الأهلية التي اندلعت في إسبانيا بذلك الوقت وتحديدًا في عام 1937. ساهمت هذه الحادثة في تدهور حالتها النفسية أكثر، حتى إنها تفرغت بعدها لمناهضة الحرب في كتاباتها. ربطت «فيرجينيا» بين ذكورية المجتمع وبين الحروب وبين مقت النساء لكل هذا. وفي الفترة ما بين عامي 1940 و1941 تلك التي عانت «فيرجينيا» فيها من حالة اكتئاب شديد، كانت «لندن» تُقذف بالقنابل. ولم تجد «فيرجينيا» سبيلاً غير الكتابة لتخرجها من أحزانها ومعاناتها. عكفت على كتابة مذكراتها وعلى تأليف روايتها «بين الفصول»؛ تلك الرواية التي أوضحت فيها كيف تهدد الحرب الفن والإنسانية.

وفي تلك الأثناء، زادت حدة حالة الاكتئاب التي كانت تعانيها «فيرجينيا». ولم يأتِ مستوى روايتها تلك على النحو المرضي لها وشعرت أنها رواية بالغة الخفة. أوصلتها حالة الاكتئاب التي

سيطرت عليها إلى أن تشعر بأنه لا جدوى من الكتابة وأن كل ما عليها فعله هو أن تواصل السباحة ضد التيار. وما أجج تلك الفكرة بداخلها هو شعورها بأن «لندن» باتت معرضة للغزو الألماني وأن حضارة بلادها باتت على وشك الانهيار. وأمام كل هذا الرعب الذي أحاط بحياتها وببلادها، ازدادت مشاعر الإحباط لدى «فيرجينيا» حتى باتت تشعر أنها أصبحت عاجزة تمامًا عن الكتابة. استمرت حالتها النفسية تسوء يومًا بعد يوم حتى عاودتها نوبات من الهوس الاكتئابي مرة أخرى. وخوفًا من انهيار مقاومتها ومن عدم قدرة المحيطين بها على تحملها، قررت «فيرجينيا» إنهاء حياتها بيدها. أردت «فيرجينيا» معطفها وملاءته بالحجارة، ثم أتجهت نحو نهر «أوز» وأغرقت نفسها فيه.

تمت

في الواقع، فضلت أن أتحدث عن المشاهد الأخيرة في حياة «فيرجينيا وولف» هنا في تلك المساحة التي خصصتها لنفسي؛ ذلك لأن تلك المشاهد، في رأيي الشخصي، شديدة القسوة والحزن والألم مما سيتيح لي فرصة التطرق إلى موضوع سأخبرك به عقب الانتهاء من سرد تلك المشاهد الأخيرة في حياتها، ذلك الموضوع الذي يعتبره البعض موضوعًا شائكًا جدًا.

قبل وفاة «فيرجينيا» بيوم واحد وتحديدًا في مارس من عام 1941 أرسلت «فيرجينيا» أخر خطاباتها إلى أختها، ذلك الذي قالت

فيه: «أشعر أنني ذهبت بعيدًا هذه المرة، ولن أتمكن من العودة مجددًا .. فيبدو أن الأمر تمامًا كما كان في المرة الأولى، أسمع أصواتًا باستمرار، وأنا أعلم أنني لن أتغلب على هذا الآن، لقد حاربت ضده، لكنني لم أعد أستطيع ذلك».

ويوضح ذلك الخطاب بما لا يدع مجالاً للشك الحالة النفسية التي كانت عليها «فيرجينيا»، وهو الخطاب الذي يشير أيضًا إلى أنها في طريقها لقتل نفسها بالرغم من أنها لم تومئ فيه إلى الكيفية، أو إلى المكان. وربما لم تخطط «فيرجينيا» لكل ما حدث لها منذ تلك اللحظات، وما حدث لها عقب إلقائها بنفسها في نهر «أوز» الواقع خلف منزلها مباشرةً.

على الجانب الآخر، كتبت «فيرجينيا» خطابًا لزوجها قالت فيه: «عزيزي .. يتأكد لدي أنه سينتابني الجنون مرةً أخرى. أشعر أنه لا يمكننا خوض أوقات عصيبة كهذه من جديد. أشعر أنني لن أتعافى هذه المرة. بدأت الأصوات تداهمني ولا يمكنني التركيز. لذلك أفعل ما أراه الأفضل. لقد منحتني كل سعادة ممكنة .. لم أكن أظن أن هناك من هم أسعد منا، حتى داهمني هذا المرض الفظيع .. لا استطيع الجهاد أطول من ذلك .. أعرف أنني أفسدت حياتك، ولكني أعلم أن باستطاعتك أن تواصل الحياة بدوني ..أردت فقط أن أقول كم أدين لك بكل سعادة في حياتي .. لقد كنت بالغ الصبر معي وكريمًا بلا حدود .. لو كان هناك من أنقذني فهو أنت ..ضاع

مني كل شيء إلا يقيني بكرمك .. لا استطيع المضي في إفساد حياتك بعد الآن .. لا أظن أن هناك من كان أسعد منا».

وبعد ما يقرب من ثلاثة أسابيع على غياب «فيرجينيا» غير المبرر ومن البحث عنها من قِبل زوجها وأختها، اكتشفت مجموعة من الأطفال الصغار جثة «فيرجينيا» بعد أن جرفها التيار بالقرب من الجسر في 19 أبريل من عام 1941 .. وعلى الرغم من علم زوجها وأختها بالحالة النفسية التي كانت تمر بها «فيرجينيا»، خاصةً بعد تعرض منزلها للقذف بالقنابل مرتين أثناء الحرب، فإنهما كانا يرفضان فكرة انتحارها نهائيًا. لكن بعد أن وجدا قبعتها وعصاها، ثم جثتها لم يكن أمامهما سوى الاستسلام للفكرة والقبول بها حتى لو كان عقلهما وروحهما ترفضان الاعتراف بموتها.

يمكننا التعرف أكثر على الحالة النفسية التي كانت عليها «فيرجينيا» خلال أيامها الأخيرة من خلال خطاب أرسله زوج أختها «بيل» إلى أحد أصدقائه بعد إختفائها بأيام وهو الخطاب الذي كُشف عنه عام 2010 حيث قال: «كان واضحًا قبل عدة أسابيع من إختفائها أن «وولف» كانت في طريقها لواحدة من نوبات الانهيار العصبي الطويلة المؤلمة، والتي طالما انتابتها كثيرًا .. مر عليها عامان تتوقع الجنون، تبعهما عامان استيقظت فيهما على عالم شكلته الحرب، مما يجعلني أوقن أنها لم تكن بكامل عقلها».

الجدير بالذكر هنا أن ما جعل خطاب «فيرجينيا» لزوجها خطابًا مؤلمًا جدًا لم يكن فقط تجسيده لمدى الألم والوجع والانهيار النفسي الذي كانت عليه قبل وفاتها، ولكن طريقة تعامل الإعلام والصحافة مع هذا الخطاب وإصدار الأحكام المجحفة عليها.

بعد أقل من شهر على وفاة «فيرجينيا وولف»، قامت صحيفة «صاندي تايمز» البريطانية الشهيرة بنشر مقالة للسيدة «كاثلين هيكس» زوجة أسقف «لينكولن»، تلك المقالة التي أظهرت شعور تلك السيدة بالتفوق الأخلاقي على «فيرجينيا» التي ماتت منتحرة حيث قالت «كاثلين» في تلك المقالة: «قرأت في صحيفتكم يوم الأحد الماضي أن الطبيب الشرعي المسئول عن التحقيق في وفاة السيدة «وولف» قال إنها بلا شك أكثر حساسية من معظم الناس لوحشية الحياة في وقتنا هذا .. بأي حق يستطيع أي شخص زعم هذا؟ إن قال هذا حقًا، فإنه يحط من قدر أولئك الذين يخفون آلامهم الداخلية بشجاعة ويحتملون الحياة بلا أنانية لأجل الآخرين. فالعديد من الناس، ربما حتى الأكثر حساسية منها، خسروا كل شيء وشهدوا العديد من الأحداث المرعبة، لكنهم ما زالوا يشاركون بنبل في صراع الله ضد الشيطان. أين هي مبادئ الحب والإيمان لدينا؟ وماذا سيحدث لنا إذا بدأنا بالاستماع والتعاطف مع هذه المشاعر من عدم القدرة على الاستمرار؟».

ربما اخترت لك، عزيزي القارئ، هذه المقالة تحديدًا، لأنها أفضل مُدخلٍ لما أريد أن أقوله. فكما رأينا، إن مبادئ السيدة «هيكس» التي ظلت تتحدث عن الحب والإيمان لم تشتمل، أو تتضمن الشعور بالتعاطف .. مما دفع زوج «فيرجينيا» الذي كان يعاني من الانهيار والحزن على وفاة زوجته وحبيبته للرد على تلك السيدة في ظل كل ما يمر به من ألم ومعاناة لكي يوضح ويبرر موقف زوجته؛ حيث قال في رسالة نشرتها الصحيفة نفسها: «لا أظن أنه بإمكاني الصمت والسماح لانتشار معلومات خاطئة مثل أن «فيرجينيا وولف» انتحرت لأنها لم تستطع مواجهة «الأوقات الرهيبة» التي نمر بها جميعًا .. فقد قامت الجريدة بنشر كلماتها على أنها «أشعر بأنني لا استطيع المضي في هذه الأوقات الرهيبة» في حين كانت الرسالة الحقيقة تقول: «أشعر بأنني أجن مرة أخرى .. أشعر بأننا غير قادرين على الخوض في تلك الأوقات الرهيبة مرة أخرى». قبل 25 سنة عانت «فيرجينيا» من انهيار عصبي، وقد بدأت الأعراض القديمة لهذا الانهيار تعاودها قبل 3 أسابيع من إنهائها لحياتها؛ حيث باتت متأكدة أنه لم يعد باستطاعتها التعافي هذه المرة. وقد شعرت بالإجهاد والضغط من الحرب كالجميع، ومرضها مرة أخرى كان جزئيًا بسبب هذا الإجهاد. لكن كلمات خطابها تثبت أنها انتحرت، ليس لعدم قدرتها على الاستمرار، بل لأنها شعرت بأنها ستجن مرة أخرى، بلا أمل للتعافي هذه المرة».

انظروا معي ماذا حدث وقارنوا بينه وبين ما يحدث الآن لأشخاص من المجتمع يظنون أنهم أفضل وأكثر إيمانًا من غيرهم دون النظر إلى حالة هؤلاء الأشخاص النفسية، أو دون أن يعيشوا تجربتهم، أو أن يعرفوا ما ألم بهم من معاناة، مما يضطر أناس من أهلهم إلى الرد عليهم وهم في غمرة حزنهم من أجل التبرير والتوضيح .. وهو الأمر الذي يحدث تمامًا في تلك الأيام ولكن بصورة مختلفة عبر وسائل التواصل الاجتماعي المختلفة التي نصّب الناس فيها أنفسهم حكامًا وحراسًا للمبادئ والأعراف، فيحكمون على هذا بأنه صالح وعلى هذا بإنه فاسد، وعلى هذا بإنه من أهل الجنة وعلى هذا بإنه من أهل النار .. وهذا مؤمن وهذا كافر. إن كل هذه الأحكام لا تصدر إلا بناءً على مدى توافق، أو اختلاف الشخص محور النقاش مع أفكار كل إنسان من أولئك الحمقى المثيرين للشفقة.

ما أردت أن أقوله على وجه التحديد هو أن أسوء ما يمكن أن يعيشه البشر هو تنصيب البعض منهم لأنفسهم حراسًا على الفضيلة، وسماحهم لأنفسهم بإصدار أحكام بالسلب، أو بالإيجاب على أي إنسان. وإلى هؤلاء أقول، من فضلكم دعوا الناس وشأنهم واهتموا بشئونكم وسيكون ذلك أفضل كثيرًا.

جيرترود بيل

الجاسوسة التي لقّبها العرب بأم المؤمنين البريطانية



«لن أحاول بعد هذا صُنع الملوك ..إنه أمر متعب للغاية».

«جيرترود بيل»

هذه المرة سنتحدث عن امرأة غير عادية بكل المقاييس؛ فهي امرأة غيَّرت تاريخ العالم بكل ما تحمله هذه الكلمة من معاني. يمكن أن نقول بكل ثقة إن مغامراتها عبر التاريخ كانت استثنائية بكل المقاييس. لهذا، ربما ستكون قصة مغامراتها هي القصة الأطول في هذا الكتاب. إن بطلة هذه المغامرة هي «جيرترود لوثيان بيل» التي عرفها التاريخ باسم «جيرترود بيل».

ولدت «جيرترود بيل» في مدينة «درم» بإنجلترا عام 1868لأسرة أرستقراطية ثرية؛ حيث كان والدها وريثًا لإمبراطورية صناعية مهمة عمل على تحديثها وتطويرها. عندما ولدت «جيرترود» كان يعمل لدى والدها في مناجم الفحم وأفران الحديد والألومنيوم التي يمتلكها أكثر من 47 ألف عامل، وكان يُنتج ثلث ما تستهلكه «بريطانيا» من الحديد، وهذا يعني أنه كان أحد أباطرة الصناعة والمال في شمال «إنجلترا».

لم تستمر الحياة العائلية الهادئة التي نعمت بها «بيل» كثيرًا؛ حيث ماتت أمها متأثرة بمرض الالتهاب الرئوي الحاد و«بيل» لا تزال في الثالثة من عمرها. وقبل أن تتم «بيل» الثامنة من عمرها تزوج والدها من السيدة «فلورانس أوليف» الكاتبة المسرحية التي تنتمي إلى الطبقة الأرستقراطية في «باريس». وفي الواقع أثّرت تلك السيدة كثيرًا في شخصية «بيل».

لقد كانت «فلورانس» شديدة الذكاء ومُحبّة للعلم، مما جعلها تساهم في فتح عالـمًا واسعًا أمام ابنة زوجها «بيل»، وجعلها تتعلق بالقراءة وبالعلم وبالبحث. وفي الوقت ذاته، كانت «فلورانس» تقوم بتربية «بيل» تربية

أرستقراطية صارمة .. حتى إن «بيل» وصفت تلك التربية في رسالة إلى والدها قائلة: «كانت تربيتها لي تشبه مشد الصدر الذي كانت تحبكه بدرجة لافتة».

لم تكن «فلورانس أوليف» أبدًا زوجة الأب بالمفهوم التقليدي المتعارف عليه. لكنها كانت أقرب ما تكون إلى مرشدة ثقافية وأخلاقية تقود «بيل» إلى عالم غريب عليها في بيوت عُمال المصانع. كانت «فلورانس» تعد دراسة عن طريقتهم في الحياة، وتلاحق «بيل» بملاحظات لاذعة حول طريقتها الفوضوية والعبثية في السنوات الأولى من حياتها. كشفت «بيل» في مذكرتها أن هذا التزاوج بين الانفلات والصرامة في طريقة تربيتها كان السبب في حبها للمغامرة والبحث والاكتشاف. كانت تلك التربية هي التي منحت «بيل» صفات وسمات شخصية أهلتها للدور الذي لعبته ببراعة فيما بعد، حيث كانت «بيل» المرأة الوحيدة بين 19 رجلاً اختارهم وزير المستعمرات «ونستون تشرشل» وهو يرسم مستقبل العالم العربي بعد القضاء على الإمبراطورية العثمانية التي عُرفت في ذلك الوقت باسم «رجل أوروبا المريض» لكثرة الهزائم التي تكبدتها من الدول الأوروبية.

هذا يعني أن المراحل الأولى من حياة «بيل» لم تختلف كثيرًا عن حياة غيرها من الفتيات في «لندن» خلال الحقبة الزمنية التي عُرفت باسم «العصر الفيكتوري». لكن سرعان ما تمردت «بيل» على تلك الحياة؛ حيث رفضت الاستسلام للصورة التي حددها المجتمع في ذلك العصر للمرأة والربط بينها وبين البقاء في المنزل والتفرغ لرسم اللوحات الزيتية، أو المشاركة في حفلات الرقص والتعارف.

لكن، كما قلت لك، عزيزي القارئ، قررت «بيل» أن تكسر تلك القيود، وأن تخرج عن الصورة والإطار الذي وضعه المجتمع للمرأة لتصنع أسطورتها الخاصة. بدأت «بيل» في كسر تلك القيود لأول مرة بإنهاء فكرة احتكار الرجال للتعلم في جامعة «أكسفورد»، أو «كمبريدج». وهنا، يجب أن نوضح أنه على الرغم من كون جامعة «أكسفورد» كانت إحدى مراكز التفكير الحر في «بريطانيا» في ذلك الوقت، فإن القاعدة التي كانت سائدة تقول أن الفكر الحر حكرًا على الرجال فقط. لكن «بيل» كسرت تلك القاعدة والتحقت بالجامعة لدراسة التاريخ. وأصبحت «بيل» بعد تخرجها أول امرأة في تاريخ «إنجلترا» تحصل على شهادة جامعية في دراسة التاريخ الحديث من جامعة «أكسفورد»؛ ذلك الحدث الذي لا يمكننا أبدًا تجاهله أو إغفاله.

تحكي «بيل» في مذكراتها وكتاباتها عن تلك الفترة قائلة:«كانت القاعدة تقضي أن ذلك التفكير حكر على الرجال فقط. ولم يكن من الغريب إلقاء محاضرات في قاعات تلك الجامعة حول تبعية المرأة للرجل، مثل محاضرة الفيلسوف الشهير «هربرت سبنسر» التي قال فيها: «إن التفكير يُشكل خطرًا على المرأة، ويُحمّل دماغها أكثر من طاقته ويُضعف قدرتها على الإنجاب». ولا عجب أيضًا أن المدرسين كانوا يتقبلون وجود البنات في قاعات الدرس على مضد، حتى إن أحدهم أصر على أن يُجلِسهن وظهورهن له.

على أي حال، بعد تخرج «بيل» في الجامعة في عام 1889 وهي في عمر الـ 21 استمرت في تدميرها وكسرها للقواعد الاجتماعية. لقد كانت «بيل» تبغض بشدة الحياة التي تعيشها فتيات الطبقة الأرستقراطية؛ حيث حفلات الرقص والبحث عن زوج المستقبل. لقد كان لديها الكثير من الاهتمامات

المختلفة مقارنةً بفتيات جيلها. لم يقتصر اهتمامها على انتظار عريس المستقبل، ولم تحب فكرة التقاط زوج من الحفلات البرجوازية. ربما كان هذا هو سر تعثر مشاريع الزواج من أحد أفراد عائلتها؛ لأن كثيرًا من رجال ذلك الزمن لم يطيقوا فكرة الزواج من أول امرأة تحصل على شهادة عُليا في التاريخ الحديث، وتحب أن تختلي بنفسها مع القلم والأوراق وتتمرد على مظاهر الأنوثة الفيكتورية. لم تعثر «بيل» على الزوج المناسب ضمن خُطَّابها المتعددين، بالإضافة إلى أنها لم تكن ترى أن الزوج والبيت البرجوازي المنتظر في «لندن» هو مكانها. لقد كانت الصحراء والشرق التي التقت فيهما لأول مرة «بيل» مع «لورانس العرب» بمنطقة «كركميش» في سوريا، وهو اللقاء الذي سيغير مثار حياتها كما سنعرف فيما بعد، هما ما تصبو إليه.

بعد ثلاث سنوات من تخرجها في الجامعة وتحديدًا في عام 1892، كانت «بيل» قد بلغت الـ 24 من عمرها. بدأت «بيل» مغامرتها وتمردها الجديدين. ويمكننا أن نقول أن «بيل» بدأت أيضًا تخطو أولى خطواتها نحو مصيرها الذي سيسجل دورها المحوري في تغيير معالم الشرق الأوسط ليصبح بالصورة التي نعرفه عليها الآن من حيث التقسيم السياسي والدول.

ففي ذلك الوقت سافرت «بيل» إلى «طهران» لتقيم مع عمتها، التي كانت زوجة السفير البريطاني هناك، لتكون «طهران» هي البوابة الأولى التي تجتازتها «بيل» لعبور الشرق الأوسط واكتشاف سحر الشرق. رحلت «بيل» إلى «طهران» وفي حقيبتها قواميس باللغة العربية واللغة الفارسية. وبعد رحلة دامت أسابيع بين القطار والسفينة وصلت «بيل» إلى أسوار «طهران»، التي رسمت بيوتها الطينية وحدائقها الخضراء وسط الصحراء الممتدة مشهدًا غير عادي جاء وصفه في مذكرات «بيل» وفي كتاباتها.

وبعد عامين من وجودها في «طهران»، أصدرت «بيل» كتابها الأول في عام 1894 بعنوان «صور فارسية». تحدثت فيه «بيل» عما شاهدته أثناء إقامتها في «طهران»؛ حيث وصفت فيه الطاعون الذي اجتاح «طهران» خلال زيارتها لها وشبهته بالزائر الذي يطرق كل باب. ووصفت «بيل» كيف أصيبت حياة أبناء «طهران» بالشلل التام، وكيف لم يهتم المسئولون بعزل المرضى، أو بدفن الموتى تاركين المصابين في الشوارع يلفظون أنفاسهم الأخيرة وينقلون العدوى. فسرت «بيل» هذا الإهمال بما سمته بـ «القدرية الشرقية»، ورأت أنها هي ما تمنع الناس من القبض على زمام الأمور بأنفسهم.

كما صورت «بيل» في كتابها هذا الحياة الشرقية على أنها حياة مختلفة تمامًا وغامضة وتبدو لها في بعض الأحيان غير واقعية ويصعب فهم تفاصيلها وإدراكها في كل الاحوال. لقد كانت هذه الحياة بالنسبة لها حياة رتيبة لا يطرأ عليها أي تغيير من جيل لآخر. لم يكن هذا الرأي تعبيرًا عن كراهيتها للشرق بل هو محبة امتزجت بالتعالي؛ إذ أشارت في رسائلها الخاصة فيما بعد أكثر من مرة إلى شوقها الجارف لحدائق الورد الفارسية. إن مشاعر المحبة والشوق التي حملتها «بيل» للشرق هي ما دفعتها إلى ترجمة قصائد أشهر شعراء الفارسية الشاعر «حافظ الشيرازي» وهي حتى الآن أهم وأدق ترجمات أعماله إلى الإنجليزية.

لكن تلك الرحلة الغامضة والمثيرة بالنسبة إلى «بيل» قد اختلطت بقصة رومانسية محبطة ومؤلمة تركت أثرًا كبيرًا في نفسها، وكانت أحد أسباب التعجيل بانطلاقها نحو عالمها الجديد والعيش وسط الصحراء والاكتشافات هناك. فهناك التقت «بيل» شابًا إنجليزيًا مفلسًا اسمه «هنري كادوجان»،

يعمل سكرتيرًا ثالثًا في السفارة الإنجليزية، صحبها في رحلة صيد في الصحراء، وسرعان ما نشأت قصة حب قوية بينهما وطلب منها الزواج. لكن عائلتها رفضت ذلك الزواج حينما اكتشفت أن حبيب «بيل» شاب فقير مقامر ذو سمعة سيئة؛ حيث عُرف عنه أنه دائم التقرب من الفتيات والسيدات الثريات الرومانسيات صاحبات الثروة والجاه. لم يتوقف الأمر عند الرفض فحسب، لقد استدعتها أسرتها كي تعود إلى «لندن» فورًا، وهو ما حدث بالفعل ولكن سرعان ما رجعت «بيل» إلى «طهران» لأنها كانت تحب ذلك الشاب فعلاً. لكنها حينما عادت اكتشفت موت «كادوجان» بعد إصابته بالحمى، الأمر الذي أصابها بحالة من الحزن الشديد ولم تجد ما يواسيها في حزنها غير السفر والترحال.

كانت أول رحلة لها للشرق صوب مدينة «القدس» في عام 1899 ذلك بعد أن تعلمت العربية وأصبحت تتحدثها بطلاقة. وسرعان ما بدأت «بيل» تكسب شهرة واسعة داخل «القدس»؛ حيث اشتهرت بكونها رحّالة أرستقراطية تسير في الشوارع الضيقة للمدينة القديمة بثوب فيكتوري طويل واسع وحذاء برقبة عالية، وعادة ما كانت تدخن السجائر في هذه الجولات.

يمكن قول أن «بيل» في رحلتها إلى «القدس» قد تخلصت من شبح الحبيب الراحل، وبدأت في اكتشاف الجانب الآخر من حكاياتها مع الشرق من حيث عادات الناس وتقاليدهم، وساعدها إتقانها للغة العربية على اقتحام جوانب جديدة بهذه الحياة. ومن «القدس» رحلت عبر نهر «الأردن» إلى «أريحا»، وبعد أن قضت أيامًا في جبل «حوران» توجهت إلى «دمشق» ومنها إلى «تدمر»؛ حيث بقيت أيامًا توجهت بعدها عائدة إلى «لندن».

لكن قبل رحلة «بيل» إلى الشرق الأوسط، كانت لها مغامرة أخرى كشفت عن طبيعة شخصيتها وعن حبها للاستكشاف ورسم الخرائط وإعادة تقسيم الحدود. وكما كانت «بيل» أول امرأة تحصل على شهادة عُليا في التاريخ الحديث، كانت أيضًا أول امرأة في التاريخ تتسلق قمة جبال «الألب» الفرنسية في عام 1899؛ أي بعد سبع سنوات من رحليها من «لندن» وإقامتها في «طهران». إن الأمر المثير في قصة تسلق «بيل» لجبال «الألب» ليس فقط في كونها أول امرأة تتسلق تلك الجبال، ولكن في عدد من الأمور الأخرى التي يأتي من بينها إثبات عدد من الوثائق التاريخية أنها كانت أول إنسان يتسلق جبال «الألب»، تلك السلسلة من الجبال شاهقة الارتفاع التي يبلغ ارتفاعها أكثر من 3960 مترًا. أما الأمر الآخر المثير في تلك المغامرة كان في تخلي «بيل» عن ملابس النساء التقليدية المعروفة في تلك الحقبة الزمنية وقيامها بارتداء البنطال والملابس الرجالية كي تسهل على نفسها تسلق الجبال.

بالطبع، واجهت «بيل» الكثير من الصعوبات خلال تلك المغامرة، تلك الصعوبات التي تحدثت عنها في مذكراتها وكتاباتها. ففي عام 1902وأثناء تسلقها لجبل «فينستيرارون»، أحد جبال سلسلة جبال «الألب» الذي يقع في سويسرا، واجهت عاصفة ثلجية أثناء تسلقها للجبل باستخدام الحبال، ولم تتمكن من الرؤية بسبب العاصفة فبقيت معلقة لمدة 50 ساعة حتى وصلت لها المساعدة. ولحسن الحظ، أن إصابة «بيل» اقتصرت على لسعة صقيع في يديها وقدميها. وكشفت «بيل» في كتاباتها عن رحلاتها ومغامرتها عن قيامها بوضع خرائط جديدة كشفت فيها عن الطرق التي اتبعتها أثناء تسلقها للجبال كي تساعد المتسلقين لتلك الجبال في المستقبل. الجدير بالذكر

هنا أنه بسبب إسهامات «بيل» أُطلق اسمها على إحدى قمم جبال «الألب» ولاتزال تلك القمة معروفة باسمها حتى الآن.

يجب أن نوضح أيضًا أن هناك فترة من الترحال عاشتها «بيل» قبل توجهها نحو الشرق الأوسط. شملت تلك الفترة السفر إلى «رومانيا»؛ حيث عملت بالسفارة البريطانية هناك، ثم انتقلت بعد ذلك إلى «القسطنطينية» عاصمة الإمبراطورية العثمانية. وهناك، بدأت «بيل» في الوصول إلى مبتغاها وإلى ما كنت تبحث عنه فأصابها ما يمكننا أن نُطلق عليه «سحر الشرق»؛ حيث اكتشفت «بيل» في تلك المدينة العتيقة الكثير من الأمور الجديدة عليها، مثل القيم والطقوس الروحية والثقافة الأقرب إلى البدائية والفطرة وهي الأمور التي حركت بداخلها غريزة البحث والاكتشاف والسعي لمعرفة ماضي البشرية وتاريخها. وربما ما ساعد «بيل» في التقدم أكثر في عملها كعالمة آثار ومستكشفة هو الدعم الذي حظيت به من السلطان العثماني «عبد الحميد الثاني» المعروف عنه حبه للعلم والثقافة والتاريخ؛ حيث سمح لها بالتنقيب عن الآثار في البلاد التابعة للإمبراطورية العثمانية بصحبة علماء الآثار العثمانيين لتشكل تلك النقطة البداية الحقيقة لرحلة «بيل» نحو اكتشاف وإعادة تشكيل الشرق الأوسط.

مع مرور الأيام، ازداد عشق «بيل» للشرق وازداد معه حبها للاكتشاف وللبحث في تاريخ الإنسانية، الأمر الذي جعلها تقوم في عام 1905 بعدد من الزيارات لبعض البلاد منها «حيفا» و«الهند» و«سنغافورة». وضعت «بيل» في مطلع هذا العام خطة لما سمته في كتاباتها بمرحلة عمل تستهدف دراسة العادات والتقاليد الشعبية في الشرق الأوسط.

ومن هنا، بدأت «بيل» تخطو خطواتها الأولى لتكون أهم جاسوسة في تاريخ الإمبراطورية البريطانية من دون أن تشعر، أو تقصد، أو تهدف لهذا الأمر. ففي تلك الرحلات، اكتشفت «بيل» أسلوبًا فريدًا في جمع المعلومات لا يهتم بشخص مصدر المعلومة، فباتت ترى أن المعلومات المهمة يمكن أن تحصل عليها من أتفه المصادر. لقد بنت «بيل» هذا الأسلوب على نصيحة أسداها لها ديبلوماسي كبير عملت معه في السفارة البريطانية في رومانيا. وكما ذكرت لكم في ذلك الوقت كانت «بيل» قد بدأت أولى خطواتها في تجاوز الخط الدقيق بين البحث العلمي وبين الجاسوسية. لقد حقق لها كتابها الذي خرجت به في تلك الفترة والذي أطلقت عليه اسم «الصحراء والزرع» شهرة واسعة خاصة بين أوساط السياسيين في «لندن».

في تلك الأثناء، التقت «بيل» بإحدى الشخصيات التي ستلعب دورًا محوريًا في حياتها وستجعل منها «جيرترود بيل» التي عرفها التاريخ وصانعة الشرق الأوسط. كان هذا الشخص هو «مارك سايكس»، وهو الطرف الإنجليزي في الاتفاقية العالمية الشهيرة بين إنجلترا وفرنسا المعروفة باسم «سايكس بيكو» التي أعادت تقسيم الشرق الأوسط في أعقاب الحرب العالمية الأولى. كان هذا هو اللقاء الأول بين «بيل» و«سايكس» ولكنه لم يكن الأخير. لقد أصبح «سايكس» المندوب السامي البريطاني لشئون الشرق الأدنى، حتى قبل أن يصل إلى مقر عمله في القاهرة؛ ذلك المقر الذي غيّر من شكل منطقة الشرق الأوسط وكتب منه «سايكس» نهاية الإمبراطورية العثمانية. لقد كان «سايكس» مجرد كاتب مقالات مشهور عُرف عنه كرهه الشديد للشرق وللعرب. لقد كان يصف العرب في كل كتاباته بأنهم أشخاص كسالى محدودي التفكير ويملئهم الشر.

لكن «بيل» كانت ترفض تلك الآراء كليةً، الأمر الذي جعلها تستغل فرصة اللقاء الذي جمع بينها وبين «سايكس» لمناقشته فيها والتعبير عن اختلافها معه؛ حيث أخبرته أنها بحكم ما عرفته من معايشتها للعرب ومن بحثها في عادتهم وتقاليدهم أنهم ليسوا كما يراهم، بل هم أناس يتبعون أعراف وتقاليد أخلاقية صافية تعود إلى بداية الحضارة. وبالطبع، لم يقتنع «سايكس» بوجهة نظر «بيل». لقد كان كل منهما يقف في زاوية بعيدة كل البعد عن الآخر وهو ما سيتضح خلال السنوات التالية في عمر كل منهما. لقد عمل «سايكس» على تقسيم البلاد العربية، بينما استسلمت «بيل» إلى عشقها للبلاد العربية حتى إنها توفيت فيها بعد أن شكلتها على هواها.

تمر الأيام وتستمر «بيل» في رحلاتها المختلفة إلى بلاد الشرق حتى جاء عام 1909. سافرت «بيل» في ذلك العام إلى العراق للتنقيب والبحث عن الآثار في «بابل» وفي المناطق المحيطة بها بهدف التوصل إلى كنوز الحضارة الأشورية والسومارية وغيرهما. وهناك كان لقاؤها الأول مع «توماس أدورد لورنس» الذي عُرف تاريخيًا فيما بعد باسم «لورانس العرب». وكانت تلك هي نقطة بداية عملها لصالح المخابرات البريطانية. لقد استغل «لورانس العرب» حصولها على إذن مباشر من السلطان العثماني للتنقيب عن الآثار في تلك المنطقة وأقنعها بكاتبة تقارير عن خط السكة الحديد الجديد الذي يربط بين «إسطنبول» و«بغداد» وعن مدى تقدم العمل فيه؛ حيث كانت بريطانيا تسعى بقوة لمعرفة كل الأخبار المتعلقة بهذا المشروع الذي كان ينجز من قِبل الألمان لصالح الدولة العثمانية. وكما هو معلوم كانت «بريطانيا» على عداء مع كلتا الدولتين في ذلك الوقت.

وبالفعل، استطاعت «بيل» في ذلك الوقت أن تلتقي بالمهندس الألماني المشرف على المشروع وقامت بتوطيد علاقتها به بشكل كبير حتى نجحت في الحصول على ما تيسر لها من معلومات حول المشروع دون أن يشك فيها مطلقًا. الجدير بالذكر هنا أن أحد أسباب موافقة «بيل» على العمل لصالح المخابرات البريطانية هو إعجابها الشديد بشخصية وأفكار «وينستون تشرشل» وزير المستعمرات في ذلك الوقت الذي سيقود بريطانيا بعد ما يقرب من ثلاثين عامًا من ذلك التاريخ خلال الحرب العالمية الثانية بصفته رئيس للوزراء. ومن الثابت تاريخيًا أن «بيل» قامت بعمل أكثر أهمية للمخابرات البريطانية في ذلك الوقت؛ حيث قامت خلال إقامتها في العراق ضمن البعثة الأثرية برسم خرائط مفصلة للمدن العراقية وجمعت معلومات كبيرة وموثقة عن العشائر العراقية وعن علاقتها ببعضها البعض. لقد خدمت تلك المعلومات بشدة بريطانيا فيما بعد كما سنري معًا.

بعد ذلك بعدة أعوام وتحديدًا في عام 1913، زارت «بيل» الجزيرة العربية بأمر من المخابرات البريطانية بحجة التنقيب والبحث عن الآثار أيضًا، وتذكر «بيل» في كتاباتها أن تلك الرحلة كانت صعبة جدًا ومحفوفة بالمخاطر. لقد كانت أول امرأة أجنبية تزور الجزيرة العربية. نجحت «بيل» في مهمتها إلى حدٍ كبيرٍ وتمكنت من التعرف على الكثير من الأوضاع الداخلية هناك وجمعت الكثير من المعلومات عن القبائل العربية في المناطق المختلفة، مثل «نجد» و«الطائف» و«الحجاز».

تصف «بيل» رحلتها إلى الحجاز ومدى عدم رضاها عن قيامها بتلك الأعمال لصالح المخابرات البريطانية في كتاباتها اليومية قائلة: «اليوم أعاني

نوبة شديدة من الاكتئاب - كيف أضع هذا الشعور في كلمات معبرة؟ هل أكون أفضل حالاً أم سيزداد اكتئابي أكثر من أي وقت مضى؟ تساورني الشكوك العميقة فيما إذا كانت مغامرتي بعد كل تلك المشاق تستحق كل هذا العناء. أنا لن آبه بالمخاطر التي تكتنف مغامرتي، فقد جُبِلت على ذلك؛ ولكنني بدأت أتساءل: ما الفائدة المرجوة من هذه المغامرة برمتها؟ أخشى عندما أصل إلى النهاية أن أنظر إلى الوراء وأقول: «هل ما قمت به كان مستحقًا»، أم أنني من المرجح عندما أنظر إلى الوراء سأقول: «ما قمت به كان مضيعة للوقت»؟! ومع ذلك فمن المؤكد أن ما قمت به لا يمكن التراجع عنه الآن، لقد سبق السيف العذل. أعتقد أنني حمقاء عندما دخلت في معمعة هذا الضياع، عندما أقحمت نفسي بأمور أنا في غنى عنها، إذ لم يكن لي مطلق الحرية لممارسة أعمال هي من صميم اهتماماتي الخاصة، هذا أدى إلى تثبيط همتي. لأنها أتت بعد فوات الأوان، مثل معظم أفكارنا الحكيمة، هذه هي الأفكار التي تختلج مخيلتي هذه الليلة، ومع خشيتي من خطورتها إلا أنها تقترب من الحقيقة».

في العام التالي لهذه الزيارة عادت «بيل» مرة أخرى إلى العراق لتستقر فترة هناك في «بغداد». وكانت الشرارة الاولى للحرب العالمية العظمى كانت قد انطلقت في عام 1914. وباتت «بيل» في موقف لا تحسد عليه؛ إذ كانت بلادها إنجلترا تحارب إلى جوار فرنسا في مواجهة ألمانيا والدولة العثمانية التي تضم بين أراضيها البلاد التي تعشقها، ومن بين تلك البلاد كانت العراق بالطبع. وبعد أن اندلعت الحرب وجدت«بيل» نفسها فجأة محور اتصالات عديدة. إن الخرائط التي رسمتها لسوريا والعراق أصبحت ضرورة ملحة في

وزارة الحرب البريطانية، كما أن خبرتها الكبيرة التي اكتسبتها أثناء رحلاتها العديدة إلى بلاد الشرق الأوسط جعلت مكتب المعلومات البريطاني الذي أُسس في «القاهرة» يُطالب بضرورة عملها فيه.

وقبل أن نكمل حديثنا في الأحداث التاريخية، يجب أن نتحدث عن مفارقة مهمة. هذه المفارقة هي أن معظم الشخصيات السياسية البريطانية التي كانت تنتقد في العلن ما تقوم به «جيرترود بيل» من زيارات إلى الصحراء وأعمال استكشاف أثرية كان ينتقدون ما تقوم به «بيل» لكونها امرأة. لقد كان فكرهم المحافظ المنتمي إلى العصر الفيكتوري يرفض جملةً وتفصيلاً شكل حياة «بيل». لكن هذا المجتمع الرافض لما تفعله «بيل» والذي حاول منعها من الترحال تجنبًا لإغضاب الإمبراطورية العثمانية أصبح هو نفسه بأشخاصه المؤثرين فيه يسعون وراء «بيل» ويعملون على إقناعها لاستئناف عملها معهم، خاصةً وأنها كما أوضحت لكم من قبل كانت ترى بعد زيارتها للجزيرة العربية بأمر من المخابرات البريطانية أنها أقحمت نفسها في عمل لا ترض عنه ولا يناسب شخصيتها.

على أي حال، وصلت «بيل» إلى القاهرة في عام 1915، أي بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى بعام واحد. وهناك التقت مرة أخرى مع «لورانس» صديقها والشخص الأقرب إلى تفكيرها الذي كان القيادي الثاني بهذا المقر بعد الجنرال «جيلبرت كلايتون»، وهو الأمر الذي حمسها كثيرًا للعمل ولقبول العمل لصالح بريطانيا والحلفاء في تلك الأعمال الاستخباراتية. وسرعان ما أصبحت «بيل» أحد العناصر المهمة هناك، بل يمكننا أن نقول أنها أصبحت عنصرًا لا غنى عنه في شبكة جمع المعلومات البريطانية؛

حيث أعطت «لورانس» فكرة كبيرة عن طبيعة القبائل العربية وعن الحالة النفسية والمعيشية لهم وعن مدى استعدادهم للثورة على العثمانيين وغيرها من المعلومات المهمة التي استغلها «لورانس» في مفاوضاته مع العرب أثناء الحرب.

مرت الأيام والسنوات وانتهت الحرب العالمية الأولى في عام 1918 بهزيمة ألمانيا والدولة العثمانية وانتصار دول الحلفاء بقيادة بريطانيا. وفي عام 1919، سقطت الدولة العثمانية نهائيًا على يد «مصطفى كمال أتاتورك». كلفت الخارجية البريطانية «بيل» بالذهاب إلى العراق مرة أخرى وتقديم تقرير شامل ومفصل عن أحوال العراق تقديمًا لاحتلاله، وهو ما قد تم بالفعل.

لقد استغرقت كتابة «بيل» للتقرير ما يقرب من عشرة أشهر، وهو التقرير الذي لايزال يُعتبر نموذجًا للتقارير السياسية والمخابراتية التي يجب أن يحتذى به. لقد استطاعت «بيل» أن تتغلغل في المجتمع العراقي وأن تتقرب من صفوته وعامته على حدٍ سواء وأن توظف جلسات النميمة النسائية في التعرُّف إلى عادات المجتمع العراقي وثقافته وعلى كل المتغيرات التي طرأت عليه خلال الحرب العالمية الأولى، حتى إنها استطاعت كسب حب الجميع في «بغداد» لدرجة أن أهل العراق لقبوها بـ «أم المؤمنين»، ولقبها الكثير من العامة باسم «الخاتون» نظراً لأناقتها واتباعها لفنون الإتيكيت واختلافها عن النساء العراقيات في ذلك الوقت.

لكن يجب أن نوضح هنا أن التقرير لم ترضي في الكثير من نقاطه رئيسها المباشر في مكتب «القاهرة». لقد انقلب ضدها رئيسها في العمل، ولكن على

ما يبدو أن تأثير «بيل» كان أكبر من تأثير ذلك المدير. لقد كان تأثيرها حاسمًا على تشكيل دولة العراق وعلى تأسيسها في عام 1920. لقد كانت «بيل» ترفض إقامة دولة خاصة بـ «الأكراد» مثبتةً بذلك تحيزها للعرب بشكل كبير. كما أنها كانت ترفض بشدة رغبة الحكومة البريطانية في الهيمنة على حقول النفط في شمال العراق وترى أنها من حق الشعب العراقي وأنها يجب أن تُستغل في إعمار البلاد وفي النهوض بها.

لكي نتعرف أكثر على أهمية الدور التاريخي الذي لعبته «بيل» في تلك المرحلة الزمنية والتاريخية الفارقة يجب أن نتوقف عند بعض الأحداث التي تلت الحرب العالمية الثانية والتي كان أولها في عام 1918. عقب عودة «بيل» إلى «لندن» في أعقاب الحرب وجدت الأجواء مشحونة بالكثير من المؤامرات التي كانت تحاك والتي كانت تهدف في أساسها إلى تقسيم التركة العثمانية على بريطانيا وفرنسا كغنائم حرب. وبالطبع، كانت الحجة المستخدمة في ذلك معدة مسبقًا ومفادها: «إن هؤلاء العرب ليس لديهم خبرة في شئون الحكم حاليًا وينبغي أن يتعلموا ذلك على أيدينا».

في الوقت ذاته، كان الشريف «حسين بن على» شريف «مكة» ينتظر مكافئته الخاصة من بريطانيا على قيادته للثورة العربية الكبرى؛ إذ كان ينتظر إعلانه ملكًا رسميًا على «الحجاز» و«الجزيرة العربية»، على أن يتم تعيين ابنه «فيصل» ملكًا على سوريا وابنه الآخر «عبد الله» ملكًا على «بغداد». وفي تلك الأثناء، توطدت علاقة «بيل» و«فيصل بن الشريف حسين» حتى إنه صار يناديها بكلمة «أختي».

على عكس والده كان الأمير «فيصل» على استعداد تام لفعل أي شيء من أجل تتويجه ملكًا. وقد دفعه هذا الاستعداد إلى أن وقّع في الثالث من يناير عام 1919 مع «حاييم وايزمان» زعيم الحركة الصهيونية وقتها اتفاقًا يقبل «فيصل» بموجبه مبدأ إقامة وطن لليهود في فلسطين ذلك على عكس موقف والده تمامًا الذي خسر حكمه لكل من «الحجاز» و«الجزيرة العربية» بسبب رفضه التام لفكرة إقامة وطن لليهود في فلسطين وعدم الاعتراف بوعد «بلفور». نشرت «بيل» في كتاباتها ومذكراتها رسالة من الأمير «فيصل» قال فيها: «استنكر بشدة موقف أولئك الأقل إطّلاعًا ومسئولية من قادتنا وقادتكم والذين يتجاهلون ضرورة التعاون بين العرب والصهاينة. فنحن العرب وخاصةً المتعلمين منا ننظر بتعاطف عميق إلى الحركة الصهيونية ونتمنى أن يلقى اليهود ترحيبًا حارًا هنا».

وفي تلك الأثناء، وتحديدًا في عام 1919 كانت «بيل» قد عادت إلى الشرق الأوسط كما ذكرنا من قبل. لكنها حينما عادت لم يكن شيئًا كما كان. لقد بدأت الحركات القومية في الظهور بقوة وأخذ دورها يتعاظم، الأمر الذي جعل «بيل» تصطدم مع المسئولين البريطانيين في العراق وتحديدًا في «بغداد»؛ حيث شعرت بأن نصائحها التي قدمتها بشأن مستقبل البلاد قد ضُرب بها عرض الحائط، وأن هناك تعنتًا شديدًا من قِبل البريطانيين في السماح بإقامة حكومات عربية مستقله، مما أدى إلى اشتعال الاضطرابات واندلاع ثورة دموية عارمة في العراق احتجاجًا على السياسات البريطانية التي كانت «بيل» تعارضها وتحذر منها. وكما توقعت بالضبط، لقد كانت الخسائر البريطانية

فادحة، تلك التي تمثلت في مئات القتلى وخسارة ما يقرب من 50 مليون جنيه إسترليني، فيما تمثلت خسائر العرب في عشرات الآلاف من القتلى كان معظمهم من المدنيين.

وهنا، برز دور «بيل» بقوة في إخماد كل تلك الأحداث العنيفة بفضل علاقتها القوية والودودة مع زعماء العشائر العراقية؛ حيث قامت بتلطيف العلاقات وتخفيف حدة تأثير القمع البريطاني عليهم، حتى جاء عام 1921 وهو العام الذي بعث فيه «تشرشل» وزير المستعمرات البريطاني بكبار دبلوماسي إلى مؤتمر «القاهرة» لبحث مستقبل بلاد ما بين الرافدين. الجدير بالذكر هنا أن «بيل» كانت المرأة الوحيدة الحاضرة في ذلك المؤتمر وكان إلى جانبها صديقها المقرب «لورانس». يجب أن نوضح هنا أيضًا أن مهمة المؤتمر لم تكن سهلة مطلقًا. لقد كان الرأي العام البريطاني في حالة غليان وغضب شديدين بسبب تصاعد مصاريف قوات الإحتلال البريطانية هناك في وقت كانت تعاني فيه بريطانيا بشدة اقتصاديًا بسبب تداعيات الحرب العالمية الاولى.

بالفعل، نجحت «بيل» في تنفيذ وجهة نظرها التي كونتها بناءً على خبرتها وحبها لعرب العراق والجزيرة العربية، حيث أقر المؤتمر رأيها الذي ساندها فيه «لورانس» وتم تعيين الأمير «فيصل» بن الشريف «حسين» ملكًا على العراق. وبالطبع، كان على «بيل» أن تلعب دورًا مهمًا بعد المؤتمر من أجل أن تمهد الطريق عبر علاقاتها مع زعماء العشائر في المدن العراقية المختلفة للاعتراف بتعيين الأمير «فيصل» ملكًا على البلاد وهو ما نجحت فيه بالفعل؛

إذ نجحت «بيل» في تهدئة المعارضة بكل أنواعها والقضاء على المخاوف التي سيطرت على زعماء العشائر، وتم بالفعل تتويج الأمير «فيصل» ملكًا على العراق. تقول «بيل» في مذكراتها أنها زارت الأمير «فيصل» عقب تتوجيه لتقديم المباركة له فخطابها بقوله: «أنت عراقية وأنت بدوية مثلنا» لافتة إلى أن هذه العبارات كانت أعظم مديح سمعته في حياتها.

وصل نفوذ «بيل» في أشهر حكم «فيصل» الأولى إلى مستوى عالٍ للغاية؛ حتى إنها كانت هي التي تنظم له قوائم المدعوين لحفلات القصر الملكي، وهي التي تشرف على عمل الخدم في القصر. لقد كانت سيدة القصر بحق، وقد قامت بذلك الدور بإتقان ودهاء على الرغم من أنها كانت قد قاربت على سن الخامسة والخمسين من عمرها. ليس هذا فقط، بل ظلت على علاقة قوية بزعماء العشائر وكانت تقوم بالتنسيق الشامل بين المندوب السامي البريطاني، والبلاط الملكي العراقي. أما على الجانب البريطاني، تم تكليفت «بيل» بإعداد تقارير دورية حول الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتوجهات الرأي العام العراقي، وهي التقارير المحفوظة إلى الآن في مركز الوثائق في «لندن».

يعود الفضل أيضًا إلى «بيل» في تأسيس المتحف العراقي الذي ظل حافظًا لأهم الآثار التي وجدتها وللآثار العراقية البابلية القديمة وللمخطوطات والتحف حتى عام 2003؛ حيث سرقت وتحطمت بعض الآثار في ظل تدهور الأوضاع في العراق أثناء الغزو الأمريكي لها ونهبت وخربت الكثير من الآثار، تلك التي

تـم إرجـاع البعـض منهـا خـلال الفـترة مـا بعـد عـام 2006. كذلـك يعـود الفضـل إلى «بيـل» في حفـظ بعـض القطـع الأثريـة الموجـودة في «تدمـر»؛ تلـك التـي نهبهـا ودمرهـا «داعـش» في عـام 2016.

عـلى أي حـال، ظلـت «بيـل» مستشـارًا للملـك «فيصـل»، وتعاظـم نفوذهـا حتـى إنـه قـال لهـا ذات يـوم عندمـا طلبـت إذنـه لزيـارة وطنهـا في بدايـة عـام 1926: «ابـدًا، هـذا هـو وطنـك لكـن إن رغبـت بزيـارة والـدك فـلا مانـع مـن ذلـك».

لكـن هـذا العـام كان شـاهدًا عـلى انقـلاب كل شيء في حيـاة «بيـل» رأسًـا عـلى عقـب. لقـد تبدلـت حياتهـا بشـكل كبـير؛ إذ خسـرت عائلتهـا معظـم ثروتهـا في إضـراب طويـل لعـمال المناجـم في النصـف الأول مـن عـام 1926، الأمـر الـذي أدخلهـا في نوبـة اكتئـاب شـديدة لتمـوت «جيرتـرود بيـل» في 11 يوليـو مـن العـام نفسـه نتيجـة تناولهـا جرعـة مضاعفـة مـن الحبـوب المنومـة. ولم يُعـرف حتـى الآن إن كانـت «بيـل» قـد فعلـت ذلـك عـن عمـد بهـدف إنهـاء حياتهـا، أم إنهـا كانـت في حالـة نفسـية وصحيـة سـيئة تسـببت في موتهـا نتيجـة تناولهـا لتلـك الحبـوب.

تمت

«جيرتـرود بيـل» هـي واحـدة مـن أكثـر الشـخصيات المثيرة للجدل في التاريـخ، فحتـى الآن لا تـزال كتـب التاريـخ مختلفـة حولهـا. ففـي الوقـت الـذي لا يراهـا فيـه البعـض سـوى جاسوسـة عملـت لحسـاب المخابـرات البريطانيـة ونجحـت بفضـل مهارتهـا في خـداع القبائـل العربيـة في تحقيـق الأهـداف الاسـتعمارية لبلادهـا، يـرى البعـض

الآخر أنها أحبت بالفعل الشرق الأوسط وعملت لأجل مصلحة الشعوب العربية التي أحبتها، بل إنها كانت أشبه بحائط الصد الذي حد من الأطماع البريطانية في الشرق الأوسط وفي شبه جزيرة العرب. ولكي نكون منصفين فإن مذكرات «بيل» الشخصية دعمت هذه الفكرة وأوضحت بشكل كبير عدم رضاها عن الكثير من الأهداف الاستعمارية البريطانية. ومن أكثر الأمور التي توقفت عندها في مذكرات «بيل» ورسائلها الشخصية تلك الرسالة التي بعثتها عام 1902 لوالدها حينما كانت في بلاد الشام التي قالت فيها: «إن المرء إذا عرف هذه البلاد لا يطيق فراقها». ثم أعقبتها برسالة أخرى إلى أحد أقاربها في «لندن» تُعبر فيها عن من مدى سعادتها وحبها لبلاد الشرق وللعرب قائلة: «يا الله ما أجمل هذه البلاد .. ليتني أقضي حياتي كلها متنقلة بين ربوعها».

لكن هذا الحب الذي عبّرت عنه في رسائلها لم يكن مجرد كلام، أو مشاعر حالمة لفتاة أوروبية عشقت سجية الحياة في بلاد الشرق، لكنه كان تعبيرًا حقيقيًا عما بداخلها تجاه بلاد الشرق الأوسط.

ففي أعقاب الحرب العالمية الأولى وانتهاء الدولة العثمانية بشكل رسمي، صدر وعد «بلفور» من وزير الخارجية البريطاني «بلفور» لصالح الجمعية الصهيونية يعدها فيه وزير الخارجية بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. استنكرت «بيل» بشدة هذا الإعلان الصهيوني وكتبت قائلة: «إنني أكره الإعلان الصهيوني، وأنا على ثقة إنه لا يمكن تنفيذه، فالبلد (فلسطين) إجمالاً لا تناسب اليهود،

لأن ثلثي سكانها من العرب المسلمين. إنني على يقين من إنه مخطط مصطنع لا تربطه أية صلة بالحقائق».

وهو ما يعني بما لا يدع مجالاً للشك أن «بيل» رفضت بشدة المشروع الصهيوني واستنكرته. والثابت تاريخيًا هنا أن «بيل» عارضت هذا الإعلان بشدة لكن قوتها لم تكن كافية للتصدي له بشكل كامل. وعلى ما يبدو أن ما تعرضت له «بيل» وأسرتها في نهاية حياتها خاصةً ذلك الإضراب الذي حدث بين عمال المناجم المملوكة لأسرتها كان عقابًا لها على وقوفها في وجه المشروع الصهيوني ومعارضتها له. كما نعرف جميعًا، إن الحركة الصهيونية حركة عالمية حاربت دائمًا من يقف في وجه أطماعها ومشاريعها بأساليب قذرة، ومن بين تلك الأساليب ما حدث مع أسرة «بيل» وما حل بها من خراب.

على أي حال، لازالت شخصية «بيل» كما ذكرت لكم محل خلاف تاريخي. فهي الشخصية التي قيل عنها أنها إنسانة شديدة الطيب وعالمة ومستكشفة محبة للآثار ولتاريخ الإنسانية. لقد عملت «بيل» على تأسيس متحف العراق وحافظت على كل الآثار التي كان لها الفضل في اكتشافها. في الوقت نفسه، هي الشخص الذي قدم للمخابرات البريطانية معلومات وخرائط مهمة عن منطقة الشرق الأوسط؛ خاصةً العراق ساعدت بريطانيا على الانتصار في الحرب وفي احتلال تلك المنطقة.

وفي الوقت نفسه هي الشخص الذي ذهب إلى بلاد الحجاز في رحلة محفوفة بالمخاطر من أجل التجسس على قبائل هذه البلاد، لكنها كتبت بعد ذلك تعبر عن ندمها عما فعلته مؤكدةً أنها أقحمت نفسها في أعمال تبغضها .. ومن هذا كله يمكنني قول أن «بيل» كانت نفسها في حيرة من أمرها، فهي لم تسعى كي تكون واحدةً من أهم عملاء المخابرات البريطانية خلال تلك الحقبة الزمنية المليئة بالتوترات والحروب والأزمات العالمية، لكن الظروف وحدها هي من وضعتها في تلك المغامرة.

بلا شك وأيًا ما كانت طبيعة شخصية «جيرترود بيل»، فإنها ستظل بما قدمته للعالم من علوم واكتشافات أثرية مهمة في وقت لم يلتفت فيه الكثير للبحث في تاريخ الإنسانية، شخصية مؤثرة لن ينساها التاريخ. كما لن ينس التاريخ أنها أيضًا ماتت في بلاد العراق التي أحبتها وعشقتها واعتبرتها وطنًا بديلاً لها.

إن «جيرترود بيل» مثال للكثير من الأشخاص الذي لا يترددون في الوقوف إلى جوار بلادهم في وقت الشدائد. لكنها في الوقت ذاته لم تتخلى عن مبادئها ولا عن أهدافها الإنسانية. يمكن أن أقول إن «بيل» قد استغلت قوة مكانتها السياسية لدى بلادها من أجل الحفاظ على تلك القيم والمبادئ. لا يمكننا أن نغفل حقيقة إنه لولا دور «بيل» وما فعلته في مؤتمر «القاهرة» عام 1920، لكان وضع البلاد العربية قد تدهور للغاية ولتمت سرقة كل ممتلكاته النفطية لصالح بريطانيا بصورة أكبر مما حدث بها وقتها.

نخرج من هذا الأمر بحقيقة مفادها أن السياسية هي بالفعل فن الحصول على الممكن. إن بطلة قصتنا هذه كانت تدرك جيدًا أنه مهما بلغت من مكانة فهي لن تتمكن من تحقيق كل ما تسعى وتطمح إليه تجاه البلاد العربية. لذا، لقد عملت «بيل» على تحقيق الممكن والمتاح والخروج بأقل الخسائر كما يقولون. كان من المفترض أن يتوج الأمير «فيصل» ابن الشريف «حسين» ملكًا على سوريا وبلاد الشام لكن تلك المنطقة باتت تحت الحماية الفرنسية. ذلك في الوقت الذي لم يكن هناك شخصية يمكنها أن تتولى حكم العراق، فكان تتويجه على العراق بصفته أحد السادة الأشراف وامتداد للنسل الشريف الذي حكم الحجاز لمئات السنوات ولأنه يحظى بمكانة رفيعة لدى القبائل العربية التي كانت ولا تزال تبجل الأشراف من نسل النبي الكريم ﷺ.

والآن، دعونا نكمل رحلتنا عبر التاريخ لنتعرف على مغامرة جديدة وشخصية جديدة نتعمق أكثر في قصتها وفي تفاصيل حياتها.

مارجريت ميتشل

ذهب مع الريح



«بمجرد ما نؤجل تقديم الاعتذار يصبح الأمر أكثر صعوبة إلى أن يصير في النهاية مستحيلاً».

«مارجريت ميتشل»

هي صاحبة واحدة من أشهر الروايات والأعمال الأدبية في تاريخ العالم وهي رواية «ذهب مع الريح»، تلك الرواية التي حققت نجاحًا كبيرًا وتم تحويلها إلى فيلم سينمائي شهير حمل الاسم نفسه. لكن الغريب في الأمر أن «ميتشل» لم تكتب في حياتها سوى تلك الرواية. وعلى الرغم مما حققته الرواية من نجاح كبير، رفضت «ميتشل» كتابة جزء ثانٍ لهذه الرواية الوحيدة.

ولدت «ميتشل» في 8 نوفمبر عام 1900. والدتها هي «إيزابيل ستيفن» من أصول أيرلندية كاثوليكية ووالدها «يوجين ميتشل» رجل قانون من أصول أسكتلندية. ضمت عائلة «ميتشل» العديد من الجنود السابقين الذين قاتلوا في الحرب الأهلية الأمريكية. انبهرت «ميتشل» في طفولتها بقصص الحرب التي قصها عليها أقرباؤها، حتى إنها كانت مولعة منذ طفولتها بالكتابة. ومن شدة شغفها بهذا الأمر صممت كتاب مغامرات خاص بها صنعت غلافه من الورق المقوى.

ألفت «ميتشل» مئات القصص عندما كانت طفلة. لكن محاولاتها الأدبية لم تقتصر على تأليف الروايات والقصص، وإنما تعدتها إلى تأليف المسرحيات، وهو ما ظهر جليًا أثناء دراستها بالمرحلة الثانوية. لكن «ميتشل» المولعة بالكتابة صادفتها العديد من المشاكل الدراسية بسبب كرهها لمادة الرياضيات التي وجدتها مادة معقدة وجعلتها تكره الذهاب إلى المدرسة

خاصةً أثناء المرحلة الابتدائية، حتى إن أمها كانت تجبرها على الذهاب إلى المدرسة رغمًا عنها وسط بكاء شديد من «ميتشل».

مرت الأيام على «ميتشل»، وفي كل يوم كان يمر عليها كان يزيد حبها وشغفها للكتابة. وحينما بلغت «ميتشل» عامها الثامن عشر، تحديدًا في عام 1918 ضربت حياتها مجموعة من الأحداث الجثام. تمثلت الفاجعة الأولى في وفاة والدتها جراء إصابتها بالأنفلونزا الإسبانية التي كانت آنذاك وباءً يهدد العالم تمامًا مثل جائحة «كورونا» التي نعيشها الآن. بعدها توفي خطيبها وكان شابًا يدعى «كليفورد هينري» أثناء قتاله ضمن صفوف الجيش الأمريكي خلال الحرب العالمية الأولى في إحدى المعارك في فرنسا.

وهو ما يعني أن «ميتشل» التي كانت آنذاك لاتزال في مرحلة المراهقة أصبحت المسئولة عن تدبير شئون المنزل بعد وفاة والدتها. كان عليها الاعتناء بوالدها، وتدبير شئون حياتها في وقت كانت تشعر فيه بالحزن والاكتئاب والضياع. لكن «ميتشل» نجحت في تخطي أحزانها ونجحت في أن تبدأ حياتها العملية في عام 1921؛ أي بعد مرور ثلاث سنوات على تلك الأحداث الجثام؛ حيث التحقت بالعمل كصحفية ميدانية في صحيفة «أتلانتا» الأمريكية. وبذلك، تكون «ميتشل» قد حققت حلمها بالانتساب إلى مهنة تقوم في أساسها على الكتابة.

بعد عام من التحاقها بالعمل في جريدة «أتلانتا»، وتحديدًا في عام 1922 كانت «ميتشل» على موعد جديد مع التغيير في حياتها الشخصية. كان هناك رجلان يتنافسان على كسب قلبها والفوز بحبها، واحد منهما كان لاعب كرة

قدم سابق يُدعى «بيرين أبشو» عُرف عنه أنه صاحب العديد من المشاكل مع القانون بسبب تمرده الدائم. أما الرجل الثاني فكان رجلاً متزنًا وملتزمًا يُدعى «جون مارش» يعمل بمجال الصحافة ويشغل منصب رئيس تحرير الجريدة التي تعمل فيها «ميتشل». أختارت «ميتشل» التي كانت في مرحلة المراهقة في ذلك الوقت الارتباط بـ «أبشو»؛ ذلك الشاب المتمرد والثائر على الحياة والمفعومة حياته بالجنون والإثارة. لكن بعد عام من الزواج بدأت «ميتشل» تشعر بالضيق من زوجها الذي لم يكن ملتزمًا نهائياً تجاه نفسه، أو تجاه أسرته. لم يكن يشعر أبدًا بالمسئولية الواقعة على عاتقه كزوج. لقد كان دائم التنقل من وظيفة إلى أخرى، وبالتالي لم يكن له مصدر ثابت للدخل، مما اضطر «ميتشل» للاعتماد على نفسها بشكل كبير من أجل توفير نفقات الحياة. ومن المفارقات العجيبة أن «جون مارش» - ذلك الصحفي الرصين الذي رفضت «ميتشل» الزواج منه - هو من مد لها يد العون في تلك الفترة ووقف إلى جوارها. لقد ساعدها في الحصول على عمل ثابت بالجريدة التي يعمل بها براتب 25 دولارًا في الأسبوع، وهو ما كان مبلغًا كبيرًا في ذلك الوقت، لتتمكن «ميتشل» من مواصلة حياتها الشخصية والمهنية بشكل أفضل. ولكن بعد مرور عام آخر على زواجها من «بيرين أبشو» لم تعد «ميتشل» تتحمل الاستمرار معه، فتم طلاقها في عام 1924 ليمثل هذا الطلاق الصدمة العاطفية الثانية بحياتها.

بعد طلاق «ميتشل» بعام واحد وأمام إصرار «جون مارش» على التقرب منها، وإظهار حبه الدائم لها، بدأت «ميتشل» في الانجذاب له عاطفيًا

ومبادلته مشاعر الحب وتم زواجهما في عام 1925. لكن بعد عام واحد من الزواج، تعرضت «ميتشل» لكسر في كاحلها سرعان ما تفاقم بسبب العلاج الخاطئ مما جعلها تلزم المنزل وتعتزل العمل الصحفي تمامًا، ذلك الأمر الذي أصابها بضيق شديد. لكن الزوج المحب العاشق لزوجته حاول أن يشجعها على ممارسة الكتابة من المنزل فقام بشراء آلة كاتبة لها حتى تتمكن من الكتابة مرة أخرى.

على ما يبدو أن الجلوس في المنزل لفترات طويلة جعل «ميتشل» تسترجع ذكرياتها، وما كان يُقص على مسامعها أثناء طفولتها من قصص حول الحرب الأهلية الأمريكية والقتال وما تنطوي عليه من مغامرات. قررت «ميتشل» في عام 1926 البدء في كتابة روايتها الأولى «ذهب مع الريح»؛ تلك التي استغرقت كتابتها عشر سنوات كاملة. خرجت هذه الرواية إلى النور في عام 1936 في شكل عمل أدبي مكون من ألف صفحة، مما جعلها أشبه بملحمة أدبية.

في الواقع، لا يزال الشعب الأمريكي يعتبر هذه الرواية حتى الآن أشهر وأهم رواية في القرن العشرين؛ حيث إنها لم تكن مجرد رواية تؤرخ لأحداث الحرب الأهلية فقط، لكن كان لها طابع إنساني كبير الأثر في نفوس كل من يقرأها. لهذا، أسمح لي عزيزي القارئ أن نبتعد عن سياق الأحداث قليلاً لكي أحكي لك ملخص رواية «ذهب مع الريح»، ثم نعود بعد ذلك لاستكمال قصة حياة «ميتشل».

تحكي الرواية قصة ملحمة الجنوب الأمريكي القديم والحرب الأهلية الأمريكية، ومصير «سكارليت أوهارا»، تلك الفتاة التي كانت تبلغ من العمر 16 عامًا عندما واجهت مصاعب الحرب وعانت من أهوالها، لكنها نجحت في النهاية في إعادة بناء الجنوب. ترصد الرواية الكثير من التفاصيل التاريخية من خلال قصة حياة «سكارليت» ومغامراتها العاطفية؛ حيث أحبت تلك الفتاة في بداية حياتها شابًا يُدعي «أشلي ويلكس» لم يبادلها مشاعر الحب وشرع في الزواج من غيرها، مما دفع «سكارليت» للزواج من شاب آخر من أجل إثارة غيظه فحسب. كان هذا الشاب هو «تشارلز هاملتون»، شقيق صديقتها «ميلاني». تنتقل «سكارليت» للعيش معه في «أتلانتا» لكنه سرعان ما يموت في الحرب. تقرر «سكارليت» البقاء مع أسرة زوجها المتوفي. وأثناء فترة الحداد ، شاركت «سكارليت» في حفل خيري للتبرع للمتضررين من الحرب. ومع تقدم جنود الشمال باتجاه «أتلانتا»، تحتاج «سكارليت» لمساعدة «ريت بتلر» - ذلك الشاب الذي أحبها من طرف واحد - لإخراجها وأسرتها من المدينة خاصةً «ميلاني» التي كانت في حالة ولادة. وهنا يسرق «ريت» حصانًا وعربة لإنقاذ «سكارليت» وعائلتها، ثم يهرب وينضم للجيش الاتحادي. لكنه قبل أن يغادر يطلب من «سكارليت» أن تمنحه قلبها ويقبّلها رغمًا عنها، فترفضه مجددًا وتتمنى له الموت في ساحة المعركة، فيتركها وحيدة مع «ميلاني» وابنها وخادمتها.

وبعد أشهر تحتاج «سكارليت» للمال، فتعود إلى «أتلانتا» لتطلبه من «ريت» الذي كان الشخص الوحيد الذي يمكنها الاعتماد عليه. وهناك

تعرف أنه في السجن لسرقته ذهب الاتحاديين، فتزوره محاولةً إقناعه أن زيارتها هذه لإنقاذ حياته، لكنه يكشف لها كذب نواياها، مما يزيد كرهها له. وبعد فترة قصيرة تقابل جارهم القديم «فرانك كيندي» الذي حاول التقرب من أختها «سولين»، لكن «سكارليت» تسلبه منها وتعتزم الزواج منه بعد تأكدها من أنه المنقذ الوحيد لها بسبب وضعه المادي الجيد في المجتمع. أخيرًا، تنجح «سكارليت» في استمالته وفي الزواج منه. وبهذا، تحصل «سكارليت» على المال اللازم لاستعادة منزلها القديم وتُبقي أسرتها فيه. لكن بعد مُضي أسبوعين فحسب على زواجهما، تدرك «سكارليت» مدى تسرعها في الزواج للمرة الثانية من رجل لا تحبه. لم تستمر حياتها الزوجية طويلاً لمقتل «فرانك» أثناء إغارة جماعة من المتعصبين.

بعد وفاة «فرانك» يعرض «ريت» الزواج على «سكارليت»، فتوافق أخيرًا على طلبه. يقضي الاثنان شهر عسل يعودان بعده إلى «أتلانتا». وهناك، يؤسس «ريت» حياة عائلية مستقرة، فيبني قصرًا فاخرًا لتعيش «سكارليت» فيه، ويدخلا عالم الأثرياء. وبعد فترة تحمل «سكارليت» من «ريت» وتستمر علاقتها جيدة معه إلى أن تلد فتاة جميلة يرتبط بها «ريت» ارتباطًا وثيقًا ويقل اهتمامه بـ «سكارليت» التي ما زال قلبها معلقًا بـ «شلي» الذي أحبته في فترة مراهقتها. تعترف «سكارليت» بهذا الحب لـ «ريت»، لكنه حاول إقناعها أنها مجرد ذكريات الطفولة وتستمر حياتهما الزوجية إلى أن تموت ابنتهما فجاءة. وهنا، يفقد «ريت» عقله وينعزل عن عائلته تمامًا.

وفي هذه الفترة، تدرك «سكارليت» أنها تحب زوجها «ريت»، وأن حبها لـ «أشلي» لم يعد إلا وهمًا. لكن «ريت» كان قد اتخذ قراره بتركها بعد أن فقد حبه لها. لقد تركها وحيدة تواجه حزنها على وفاة ابنتهما. وهنا، تقرر «سكارليت» العودة إلى «تارا» ـ مسقط رأسها ـ لكي تستعيد قوتها ولتفكر بطريقة تستعيد بها زوجها. وتنتهي الرواية بقول «سكارلييت»: «سأفكر في الأمر كله غدًا في «تارا»؛ حيث يمكنني تحمُّل العواقب حينها. سأفكر بطريقة ما استعيده من خلالها، في المحصلة، غدًا يوم جديد».

نعود مرة أخرى عزيزي القارئ إلى حياة صاحبة هذه الرواية «مارجريت ميتشل». ولكن قبل أن نستأنف الحديث عن حياتها يجب أن نشير إلى أن الفضل في نشر تلك الرواية التي حققت بسببها «ميتشل» شهرة وثروة كبيرتين يعود إلى صديقتها «لويز كول». لقد كانت «كول» تعمل محررة في مؤسسة «ماكميلان» للنشر. وبحكم طبيعة عملها، أخبرت «كول» نائب رئيس تلك المؤسسة «هارولد لاثام» بما كتبته «ميتشل»، حيث قالت: «لم يقرأه أحد سوى زوجها، ولكن إذا كانت تستطيع الكتابة بالطريقة ذاتها التي تتحدث بها، فلا بد أن يكون كتابها رائعًا».

وفي عام 1935، بدأ «لاثام» رحلة أدبية عبر الولايات المتحدة استمرت لمدة 3 أشهر بحثًا عن كُتّابٍ جدد. بدأ «لاثام» بولاية «جورجيا»، حيث التقى «ميتشل» في حفل غداء أقيم على شرفه في نادي «أتلانتا» الرياضي. وهناك، طلب منها أن يقرأ روايتها، فابتهجت «ميتشل» كثيرًا، لكنها في الوقت ذاته كانت تعرف الوضع المروع الذي كانت عليه الرواية.

لقد بهت لون أوارقها وأصفر، وكانت تشتمل على الكثير من التعديلات المكتوبة بالقلم الرصاص على هوامش الصفحات. كما كانت لدى «ميتشل» عدة نسخ من بعض فصول الرواية، ولم تكن قد أكملت كتابة الفصل الأول منها بعد. وبسبب شعورها بالإحراج أنكرت أن لديها ما يمكن أن تعرضه عليه في الوقت الحالي. وعلى الرغم من أنه أمهلها فرصة لإنجاز مشروع روايتها هذه، فإنها كانت ترفض مناقشة الأمر في كل مرة يطلب منها الرواية وتعده أن يكون أول من يطلع عليها عندما تكون مستعدة لعرضها على أحد. كانت «ميتشل» تظن أن هذا الاحتمال بعيد التحقق، لكن ما حدث فيما بعد غيّر موقفها، بل وحياتها إلى الأبد.

بعد هذا الحفل، ذهبت «ميتشل» برفقة عدد من الكُتّاب الطموحين إلى بيت أحدهم لإكمال حديثهم عن الأدب والكتابة. وهناك، سألها بعضهم عن سبب عدم إعطائها مسودة الرواية للسيد «لاثام» على الرغم من إلحاحه في طلبها. فصرحت «ميتشل» بظنها في روايتها، وأنها تشعر بالحرج من تقديمها للسيد «لاثام» وهي على هذا النحو. لكن إحدى الكاتبات الحاضرات انتقدت «ميتشل» وتصرفها هذا مشيرة إلى أن «ميتشل» لها نظرة جادة بالحياة تكفي لأن تجعل منها روائية ناجحة .. ثم أضافت قائلة لـ «ميتشل»: «لقد رفضني أفضل الناشرين، مع أن كتابي رائع ويقول الجميع أنه سيحرز جائزة «بوليتزر»، أعتقد أنك تبددين وقتك في محاولتك الفاشلة».

وقد أثار هذا الموقف غضب «ميتشل» بشدة. وظل هذا الغضب يلازمها إلى أن رجعت منزلها. فما كان من «ميتشل» في هذه اللحظة إلا أن جمعت كل

ما وقعت عليه يدها من أوراق روايتها، ثم توجهت مُسرعة إلى الفندق الذي يقيم فيه «لاثام». لقد كان «لاثام» على وشك المغادرة للحاق بقطاره. ولحسن الحظ، لحقت به «ميتشل» وأعطته أوراق الرواية. لم يكن لدى «لاثام» مكانًا في حقيبته يسع هذا الكم الكبير من الأوراق، فاضطر الى شراء حقيبة ليضع فيها هذه الأوراق.

المفارقة هنا أنه في الوقت الذي شعرت فيه «ميتشل» بالندم على ما فعلته بعد أن عادت إلى منزلها وهدأت ثورة غضبها، كان «لاثام» يقضي رحلته في القطار مستغرقًا في قراءة أوراق روايتها. أُعجب «لاثام» كثيرًا بالرواية وقرر نشرها. ومن ثم، وجدت رواية «ذهب مع الريح» طريقها إلى عقول وقلوب الملايين من القراء في مختلف أنحاء العالم وتحولت إلى رواية كلاسيكية جذبت اهتمام كل من قرأها. حصلت الرواية بعد عام واحد من نشرها وتحديدًا في عام 1937 على جائزة «بوليتزر» للأدب؛ وهي أهم جائزة أدبية في الولايات المتحدة الأمريكية.

في تلك الأثناء، كانت الحرب العالمية الثانية قد اندلعت ولكن الولايات المتحدة الأمريكية لم تكن قد دخلت الحرب بعد. لقد فضلت البقاء على الحياد وعدم إقحام نفسها في حرب أخرى بسبب الصراعات القائمة بين الدول الأوروبية. لكن «ميتشل» التي عاشت طفولتها على قصص الحروب قررت أن تتطوع للعمل مع منظمة الصليب الأحمر الأمريكية؛ حيث ركزت المنظمة في ذلك الوقت نشاطها على إيصال الإمدادات الغذائية والطبية لبلدة

«فيموتييه» الفرنسية. استمرت «ميتشل» في العمل هناك حتى إنها حصلت نتيجة لجهودها العظيمة على لقب مواطنة فرنسية فخرية، ثم حصلت على لقب المواطنة في عام 1949.

في ذلك العام وبعد تكريمها على جهودها بفترة ليست بكبيرة وتحديدًا في 16 أغسطس من عام 1949 تعرضت «مارجريت ميتشل» لحادث سيارة أثناء عبورها للطريق. توفيت «مارجريت ميتشل» إثر هذا الحادث بعد مكوثها في المستشفى لمدة 5 أيام في حالة سيئة. وقد قيل وقتها أن سائق السيارة التي صدمتها كان في حالة سكر شديدة مما جعل المحكمة تدينه بتهمة القتل غير العمد وحُكم عليه بالسجن لمدة 40 عامًا مع الأعمال الشاقة.

وبهذه الحادثة يُسدل الستار عن قصة حياة «مارجريت ميتشل» التي توفيت قبل أن تبلغ عامها الـ 49 وتدفن في «أتلانتا». ولكن بعد وفاتها بعشرات الأعوام وتحديدًا في 16 مايو عام 1977 تم تحويل المنزل الذي كتبت فيها «ميتشل» رواية «ذهب مع الريح» إلى متحف يحتوي على وثائق وشرائط أصلية لرواية وفيلم «ذهب مع الريح»، بالإضافة إلى عدد من مقتنيات «ميتشل» الشخصية.

تمت

إذا نظرنا من بعيد إلى حياة الكاتبة «مارجريت ميتشل»، لن نجد بها أي إنجاز يُذكر سوى رواية «ذهب مع الريح»، وهي الرواية التي لم تكن «ميتشل» مقتنعة بالأساس أنها تبلغ من القيمة الأدبية ما تجعلها تستحق

النشر، حتى إنها قالت ـ كما ذكرت لكم في أحداث قصتها ـ إنها كانت تخجل منها وتشعر أنها غير مناسبة للنشر. ولولا حالة الغضب التي اعترت «ميتشل» نتيجة كلام الكاتبة التي شاركتها الحفل والتي على ما يبدو أنها أصابتها الغيرة من «ميتشل» بسبب رغبة مدير دار نشر كبيرة مثل مؤسسة «ماكميلان» في نشر رواية «ميتشل» في الوقت الذي رفض فيه الكثيرون نشر عملها، لما كانت رواية «ذهب مع الريح» لتخرج إلى النور وتصبح إحدى العلامات البارزة في الأدب في تاريخ الإنسانية. وهنا، لا ننسى بالطبع أن «ميتشل» نفسها شعرت أنها أخطأت وتسرعت عندما قامت بتسليم أوراق الرواية إلى مدير دار النشر واعتبرت هذا التصرف تصرفًا مندفعًا جاء نتيجة لغضبها وما كان عليها أن تقوم به.

لكن ما خرجت به أنا شخصيًا من قصة «مارجريت ميتشل» أنه ليس من المهم إذا أردت أن تكون كاتبًا مؤثرًا أن يكون لك مئات العناوين الأدبية، وليس من المهم أن يكون همك الأكبر هو إصدار كتاب كل عام لتلحق بمعرض الكتاب، كما هو حال الكثير من الكُتّاب الآن. لقد بات النشر السنوي لهم مجرد عادة من دون النظر إلى المحتوى الذي يقدموه، وهو الأمر الذي أدى بشكل، أو بأخر، إلى تدهور الحياة الثقافية في الشرق الأوسط. لم يعد الكثير من الكُتّاب يهتمون بالمحتوى المقدم للقارئ بقدر اهتمامهم بزيادة عدد العناوين التي يقومون بإصدارها.

لهذا، يمكن لجميع من يرى في نفسه القدرة على أن يكون كاتبًا، أو حتى من يحلم أن يصبح كاتبًا أن يجعل قصة «مارجريت ميتشل» مثالاً يقتدي به.

مثال مفاده أنه يمكن لعمل واحد فقط أن يحقق من الشهرة والثروة ما لا يمكن لمئات الأعمال أن تحققه، بشرط أن يكون هذا العمل جدير بأن يُطلق عليه عمل أدبي. إن الكتابة شأنها شأن الكلام. فكما نقول إن الإنسان عليه أن يتحدث فقط بكلام له قيمة ومعنى وألا يُطلق العنان للسانه، فإن الأمر نفسه ينطبق على الكاتب. على الكاتب ألا يُصدر كتابًا إلا إذا كان يرى فيه أنه بالفعل يستحق النشر، لأن ذلك سيكون أفضل له وللمجتمع.

أما الشيء الثاني الذي توقفت عنده في قصة حياة «ميتشل» وروايتها «ذهب مع الريح» هي المدة التي ظلت تكتب فيها الرواية والتي بلغت عشر سنوات كاملة. على الرغم من أنني شخصيًا أرى أنها فترة زمنية طويلة جدًا ـ فعمر الإنسان لا يوجد به الكثير من العقود الزمنية ـ فإني أرى أن تلك المدة يمكن أن نستخلص منها درسًا مهمًا مفاده أنه يتوجب على الكاتب أن يهتم بما يكتبه وأن يمعن في مراجعته وتدقيقه، وألا يقول إنه قد انتهى من العمل إلا عندما يشعر بالفعل أنه انتهى منه وأنه استوفى كل الشروط اللازمة لأن يصبح عملاً مطبوعًا بين أيدي الناس. لا يوجد أي سبب لكي يتعجل الكاتب في تسليم كتابه لدار النشر، ولا يوجد في عالم الكتابة والأدب ما يُسمى بوقت يلزم فيه تسليم الكتاب.

إن الشيء الثالث هو عنصر المفارقة. دائمًا ما تكون الأمور التي نعتبرها أخطاءً هي السبب في ظهور الكثير من الأعمال الإبداعية العظيمة. في الواقع، إن ما حدث مع رواية «ذهب مع الريح» تكرر مع الكثير من الأعمال في مختلف العصور. في الواقع، كثيرًا ما نُشِرت أعمال عن طريق المصادفة، أو

اكتشف كُتّابٌ أو مبدعون عن طريق المصادفة، أو حتى الخطأ. ليس كل الأخطاء من النوع الذي يندم المرء على ارتكابه، فهناك أخطاء يمكنها أن تغير مجرى التاريخ وحياة البشر نحو الأفضل.

والآن، لنكمل مسيرتنا ونكتشف معًا الكثير من الأمور والحكايات والتجارب. لنذهب إلى شخصية أخرى، أو إلى مغامرة جديدة.

إيفا براون

المراهقة التي صنعت صورة النازية



«أيتها الفتاة الصغيرة، إن سحر تحفظك واستسلامك النهائي أسرني من جديد، وإني لا أحس بضرورة قول ذلك لك، فأنت أفضل صديق ولم يسبق لأحد أن منحني من المسرات ما منحتني».

جزء من رسالة بخط يد «هتلر» كتبها إلى «إيفا براون» في عام 1941

هي واحدة من النساء اللواتي شاركن في تغيير تاريخ العالم. لم تكن فحسب حبيبة زعيم ألمانيا النازية «أدولف هتلر»، ولم تكن فقط شاهدة على واحدة من أهم حقب التاريخ الحديث؛ حيث اندلعت الحرب العالمية الثانية. لقد كانت أيضًا واحدة من شخصين قاما بصناعة صورة النازية والترويج لها حتى سيطرت أفكارها على عقول الشعب الألماني أجمع، بل وأصبح لها متعاطفين خارج ألمانيا أيضًا. الشخص الأول هو «جوزيف جوبلز» وزير الدعاية والإعلام وأحد مؤسسي الحزب النازي. يُعتبر «جوزيف جوبلز» بكل المقاييس أسطورة في عالم الإعلام. فلا يمكننا الحديث عن الإعلام النازي والترويج إلى «هتلر» وأفكاره من دون الحديث عن «جوبلز»، و«إيفا براون». إن عمل كل منهما كان متصلاً بشكل دائم مع الآخر.

مع الأسف الشديد، إن المعلومات المتوافرة عن «إيفا براون» قبل لقائها بـ «هتلر» تكاد تكون معدومة. لكن ما عُرِف عنها أنها ولدت في مدينة «ميونخ» الألمانية في 6 فبراير عام 1912، وأنها الابنة الثانية لرجل أرستقراطي يُدعى «فريدريك» عمل مدرسًا وذاع صيته في هذه المهنة. انفصل والدها عن والدتها في عام 1921 لأسباب مالية ترجع إلى الأزمة المالية الكبرى التي عصفت بالعالم في ذلك الوقت وأدت إلى تضخم مالي كبير في الاقتصاد الألماني وتدمير مدخرات الألمان بشكل كبير وإصابتهم بالفقر المضجع.

أتمت «إيفا» دراستها الثانوية في إحدى المدارس الكاثوليكية في مدينة «ميونخ»، ثم درست لمدة سنه في مدرسة إدارة الأعمال في «اتحاد الأخوات الإنجليز». حصلت «إيفا» من هذه المدرسة على مؤهل دراسي متوسط، وحينما كانت في السابعة عشر من عمرها عملت مساعدة لدى المصور الألماني الشهير «هينرش هوفمان» الذي كان في ذلك الوقت المصور الرسمي للحزب النازي، الذي كان لايزال في مهده. وفي 6 فبراير عام 1927 تحديدًا التقت «إيفا براون» لأول مرة بـ «هتلر» في مكتب «هوفمان». أما عن تفاصيل ذلك اللقاء الأول فقد كتبت «إيفا براون» في مذكراتها قائلة: «دخل رجل إلى متجر «هوفمان» .. فما كان من «هوفمان» إلا أن طلب مني بصفتي المساعدة الشخصية له أن أقوم بواجب الضيافة مع هذا الضيف والذي بدا لي أنه كان مهمًا جدا بالنسبة له .. وبعد أن غادر «هتلر» المكان حاولت معرفة هويته .. فأجابني «هوفمان» متعجبًا: ألا تعرفين من هو هذا الرجل إنه زعيمنا «أدولف هتلر»».

هنا، تذكرت «إيفا» أن هذا اللقاء لم يكن اللقاء الأول. لقد كان هناك لقاء آخر قبل ذلك التاريخ بسبع سنوات وتحديدًا في 9 نوفمبر من عام 1923. وقتها كانت «إيفا» في العاشرة من عمرها. وفي هذا اليوم قرر «هتلر» والجنرال «إريش لودندروف» وعدد من أعضاء الحزب النازي أن يقوموا بانقلاب للاستيلاء على السلطة والتخلص من الحكومة التي كانت السبب في هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى وفرض معاهدة «فرساي» التي أذلت الشعب الألماني وسمحت لـ «فرنسا» نهب ثروات البلاد، مما أدى إلى

تضخم مالي كبير أفقر الشعب الألماني .. كان هدف «هتلر» ورفاقه التخلص من تلك الحكومة ومحو عار الهزيمة وبناء ألمانيا الجديدة .. في ذلك الوقت كانت «إيفا» لاتزال تدرس في مدرستها الابتدائية. بعدما أنهت «إيفا» يومها الدراسي وبينما هي في طريقها إلى المنزل برفقة أختها الكبرى لاحظت انتشار رجال الجيش المسلحين يبعدون الفتيات الصغار عن الطريق نظرًا لوقوع اشتباكات. وبالرغم من هذا أصرت «إيفا» على أن تقترب أكثر من الأحداث لترى «هتلر» لأول مرة وسط الاشتباكات.

على أي حال، منذ ذلك اللقاء الثاني ظلت «إيفا» شخصية مقربة من «هتلر» على مدار 13 عامًا كاملاً حتى انتهى ذكرهما وأخبارهما من العالم في عام 1945. وعلى الرغم من فارق السن الكبير بين الاثنين، فإنهما كانا متفاهمين بشدة. فعندما التقى «هتلر» بـ «إيفا» في مكتب مصوره الشخصي «هوفمان»، كان «هتلر» في الثامنة والثلاثين من العمر، بينما كانت «إيفا» في عمر الـ 17، وهو ما يعني أن «هتلر» كان يكبرها بـ 21 عامًا. ومنذ ذلك اللقاء، باتت «إيفا» أحد أهم عوامل حركة الدعاية النازية.

لكن قبل أن نتعمق أكثر في علاقة «إيفا» و«هتلر»، وقبل أن نرصد دورها في صناعة الإمبراطورية النازية التي سيطرت في وقت ما على كل العواصم الأوروبية فيما عدا «لندن»، يجب أن نوضح الظروف النفسية التي كان عليها «هتلر» في ذلك الوقت لأن تلك الظروف سيكون لها عامل مهم في التقريب بين «هتلر» و«إيفا». ففي خلال الفترة التي تعرف فيها «هتلر» على «إيفا» كان منشغلاً للغاية بإعادة بناء وتنظيم الحزب النازي ونشر أفكاره في كل

أرجاء ألمانيا من أجل الوصول إلى الحكم بالطرق الشرعية عبر الانتخابات. لكن، كان هناك أمر آخر قد استحوذ على اهتمام «هتلر» بشكل كبير في ذلك الوقت. كان ذلك الشيء هو حبه لـ «جيلي روبال» ابنة أخته غير الشقيقة، تلك التي أحبها مثل ابنته واهتم بها بشدة وظلت تقيم معه حتى انتحرت في عام 1932. وبالرغم من أن أسباب انتحار هذه الفتاة - التي كانت في مثل عمر «إيفا» - يحيط بها الغموض، هناك الكثير من المصادر التي أشارت إلى أن «جيلي» كانت على علاقة مع شاب يهودي يقيم في «فينا»، وأنه حينما علم «هتلر» بالأمر منعها من التواصل معه مما أصاب الفتاة باكتئاب وجعلها تُقدم على الانتحار.

بعد انتحار «جيلي» أصيب «هتلر» بحالة من الاكتئاب الشديد حتى إنه ظل لفترة لا يفارق حجرة «جيلي»، يبكي عليها من شدة حزنه على فراقها. لكن بعد فترة ليست بطويلة، نجحت «إيفا» في انتشال «هتلر» من حالة حزنه وظل الاثنان يلتقيان بشكل يومي، ومن هنا بدأ دور «إيفا» الحقيقي في حياة «هتلر»؛ حيث باتت أقرب إنسان إليه.

الجدير بالذكر هنا أن بعض المصادر ذكرت أن «إيفا» حاولت كثيرًا انتشال «هتلر» من عزلته لأنها كانت تحبه بشده. فشلت «إيفا» في بداية الأمر في محاولتها تلك مما جعلها تلجأ إلى استخدام الحيلة. قامت «إيفا» بمحاولة انتحار لكنها لم تكن محاولة جادة؛ حيث كان الهدف منها مجرد لفت انتباه «هتلر» إليها. وبالفعل، نجحت حيلة «إيفا». وبعد تماثلها للشفاء ازداد ارتباط «هتلر» بها، حتى إنها أصبحت مقيمة لديه منذ ذلك الوقت، وباتت

هي الوحيدة المسموح لها بتصويره وتصوير الكثير من الاجتماعات المهمة مع رجال حكومته والشخصيات الدولية التي يلتقي بها كما سنعرف فيما بعد.

هنا، يجب أن أوضح أنه على الرغم من ارتباط «هتلر» بـ «إيفا»، فإنه كان حريصًا بشدة على أن يخفي ذلك الارتباط عن الشعب الألماني، بل وعن العالم أجمع. أستطيع أن أقول إن الشعب الألماني لم يسمع عن «إيفا براون» إلا بعد القضاء على الحزب النازي في أعقاب الحرب العالمية الثانية. ليس هذا فقط، بل إن دول الحلفاء أيضًا لم تكن تعرف شيئًا عنها. لقد ظلت «إيفا» في نظر الجميع مجرد مساعدة لـ «هتلر»، أو المصورة الشخصية له. لم يكن يعرف حقيقة علاقتها به سوى بعض رجال «هتلر» المقربين له، وكان على رأسهم «جوزيف جوبلز» و«ألبرت شبير».

على أي حال، رافقت «إيفا» «هتلر» والوفود الألمانية في عدد من الزيارات الخارجية. كانت هي من تقوم بتصوير كل شيء حتى اجتماعات الغرف المغلقة. تشير الكثير من المصادر التاريخية إلى أن «إيفا» استمرت بالعمل لدى «هوفمان» حتى بعد أن أصبحت على علاقة بـ «هتلر»، واستمر ذلك لفترة إلى أن عملت بشكل رسمي سكرتيرة خاصة لـ «هتلر».

وفي عام 1933؛ أي بعد عام من ارتباط «هتلر» و«إيفا» بشكل فعلي انتقل «هتلر» للعيش في منزل ريفي صغير كان قد اشتراه في منطقة جبال «سالزبورغ»، تلك المنطقة نفسها التي أقبل عليها رجال الحزب النازي فيما بعد حتى يكونوا إلى جوار «هتلر» في وقت عطلته. في ذلك الوقت، انتقلت «إيفا» إلى العيش والإقامة مع «هتلر» بشكل كامل. ووفقا لما ذكره

خادم «هتلر» الشخصي «هاينز لينج»، كان لكل من «إيفا» و«هتلر» غرفتا نوم وحمامان متصلان بأبواب داخلية، ولكنهما في بعض الليالي كانا يخلدا للنوم في غرفة واحدة. كما أشار إلى أن «إيفا» كانت تدعو أصدقائها وأقاربها بشكل منتظم لزيارتها ومرافقتها خلال إقامتها هناك، حيث إنهم الضيوف الوَحيدين المسموح لهم بالقدوم.

أعلم أنك عزيزي القارئ قد تكون بدأت في طرح العديد من الأسئلة التي يأتي في مقدمتها: «كيف صنعت «إيفا» صورة الحزب النازي؟». وهنا أقول لك إن الحزب النازي كان قائمًا بشكل كبير على فكرة الدعاية والتسويق لنفسه بمفهوم حديث سبق مفهوم عصره بمراحل.

لقد وقع على عاتق كلٍ من «إيفا براون» و«جوزيف جوبلز» مهمة حشد الجماهير وكسب تعاطف الشعب في أوسع نطاقٍ ممكن. كان «جوبلز» يفكر و«إيفا» تصور، واهتمت «إيفا» بالتوجيهات التي علّمها إياها «جوبلز» عند التقاطها للعديد من الصور وتصوير الأفلام التي تُظهر «هتلر» في صورة المواطن العادي وليس القائد الأعلى للدولة. صنعت «إيفا» هذا بشكل احترافي وغير متكلف، لدرجة إنها كثيرًا ما كانت تصور «هتلر» من دون أن يدرك الأمر حتى تُظِهره الصورة، أو الفيلم بصورة طبيعية. كان الثلاثي «هتلر» و«إيفا» و«جوبلز»، يحترمون عقلية الشعب الألماني ويعرفون أنه لو شعر بأن هناك ثمة تكلف في إظهار «هتلر» بمظهر مبالغ فيه، سيفسد الأمر برمته.

في الواقع، يرجع الفضل في وجود الكثير من المواد المصورة التي سجلت أهم اللحظات في تاريخ «الرايخ الألماني الثالث» إلى «إيفا براون». إن تلك اللحظات والأحداث التي التقطتها «إيفا» تعتبر مهمه في تاريخ العالم أجمع؛ حيث سجلت «إيفا» الكثير من الأفلام لـ «هتلر» أثناء تفقده للجيوش وأثناء قيادته للمعارك وفي بعض الاجتماعات المهمة أثناء فترة الحرب العالمية الثانية. وبالطبع، لم يكن «هتلر» بمفرده في هذه الصور والأفلام. لقد تم تصوير العديد من الشخصيات المهمة في الحزب النازي وعدد من قيادات العالم وفي مقدمتها «بينيتو موسليني» زعيم إيطاليا الفاشية.

وهو ما يعني أن «إيفا» قد صنعت تلك الصورة عن ألمانيا النازية و«هتلر»، تلك التي تم تصديرها إلى الشعب الألماني وإلى العالم أجمع، وهي الصورة التي شارك في إخراجها، أو بالأحرى أشرف على إخراجها العبقري «جوزيف جوبلز». وقد ساهم هذا الأمر في زيادة شعبية الحزب النازي للدرجة التي جعلت الشعب الألماني أجمع يسير خلفه ويدعمه. وفي الوقت الذي كان يصنع فيه «جوبلز» الدعاية النازية ويصور أحداث الانتصارات الحربية المتتالية أثناء الحرب العالمية الثانية، كانت «إيفا» تقوم بالأمر نفسه ولكن على الجبهة الداخلية. لقد اهتمت بإظهار «هتلر» للشعب الألماني في حالات من شأنها أن ترفع من الحالة المعنوية للشعب الألماني، بل وتشجعه على المعارك التي يخوضها «هتلر»، وتوضح له أن كل ما يقوم به «هتلر» يهدف به استعادة عظمة ألمانيا.

ويجب أن نذكر هنا أنه على الرغم من اهتمام «هتلر» بإخفاء علاقته بـ «إيفا» عن عامة الشعب الألماني، فإنهما ظهرا معًا خلال حفل زفاف شقيقتها «جريتل» قبل نحو عام من سقوط «الرايخ الثالث» قبيل انتهاء الحرب، وبعد ذلك أقسمت «إيفا» على الولاء الكامل إلى «هتلر»، وانتقلت لتعيش معه في «برلين» في حصنه المنيع الذي أُطلِق عليه ملجأ، أو قبو «الفوهرر» بالقرب من مقر استشارية «الرايخ»، والذي أدار «هتلر» منه شئون الحرب. لقد رفضت «إيفا» كل محاولات «هتلر» لإبعادها عن هذا المكان خوفًا عليها من أي أذى قد يطولها بسبب الحرب. لكن «إيفا» رفضت تلك المحاولات وظلت إلى جوار «هتلر» حتى النهاية تدعمه نفسيًا وتقوم بواجبها ليس فقط كحبيبته، أو السكرتيرة الشخصية له، ولكن كمواطنة ألمانية ترفض التخلي عن بلادها وقائدها في هذا الوقت العصيب.

تجدر الإشارة هنا إلى أن الكتمان الذي غلف به «هتلر» علاقته بـ «إيفا» كان السبب في إثارة كثير من الأقاويل حول علاقة «هتلر» بالنساء. لكن دائرة معارف «هتلر» المقربة منه هي فقط من كانت تعلم بسطوة عشق «إيفا» على قلب «الفوهرر»؛ أي القائد باللغة الألمانية. بيد أنهم لم يتمكنوا من الحديث عن تلك العلاقة إلا بعد ما شاع خبر انتحار «هتلر» و«إيفا» في أعقاب الحرب العالمية الثانية. ويبرهن المقربون من «هتلر» على أنه كان يتصل بـ «إيفا» يوميًا خلال الحرب، ويغير من خطط تنقله ومن جداول مواعيده أحيانًا ليلتقي بها.

على الرغم من الدور الكبير الذي لعبته «إيفا» في حياة «هتلر»، لم يشر أي من المؤرخين إلى تأثير «إيفا» على قرارات «هتلر» العسكرية. وقد أفاد بعضهم أن «الفوهرر» كان يجنب حبيبته سماع الأحاديث السياسية والعسكرية. لكن ما من أحدٍ قد دخل إلى غرفتهما الخاصة، وسمع ما دار بينهما من أحاديث. لم تكن «إيفا» حبيبة وزوجة فحسب في أخر 40 ساعة من عمرها، بل كانت المرآة التي يطل منها «هتلر» على العالم. لقد كانت هي من تعرف كيف تصوره وتلتقط له الصور التي نراها حتى يومنا هذا، تلك التي تتصف بالصارمة القاسية التي أعطت انطباعًا قويًا عن «هتلر».

مرت الأيام واشتعل العالم بالحرب العالمية الثانية. اتحدت الدول ضد «هتلر» وألمانيا النازية بدعم كامل من الصهيونية العالمية التي شعرت أن وجود «هتلر» يهدد أهدافها وطموحاتها. لقد كان «هتلر» الرجل الوحيد في العالم تقريبًا الذي كشف على الملأ مؤامرات اليهود ومدى خطورتهم وسعيهم للسيطرة على الاقتصاد العالمي والسيطرة على الشعوب لتنفيذ مصالحهم. كما أنه صرح في أكثر من مناسبة أن اليهود لا وطن لهم. فإنهم وإن كانوا يحملون جنسية أية دولة، يعملون ضد مصالحها لحساب أهدافهم الخاصة. لهذا، كان لا بد من القضاء على «هتلر». ومن ثم، دخلت الولايات المتحدة الأمريكية في الحرب العالمية الثانية بعدما كانت قد أعلنت قبل سنوات عن قانون الحياد. إن ضغط اللوبي الصهيوني المتحكم في الاقتصاد الأمريكي دفعها لدعم إنجلترا والاتحاد السوفيتي الشيوعي بالمال والسلاح من أجل التغلب على «هتلر». وهنا، يجب أن نذكر أنه لولا أن سخرت الولايات المتحدة الأمريكية كل

مواردها الاقتصادية والعسكرية لصالح إنجلترا، وروسيا وفرنسا في حربهم ضد «هتلر» لما تمكنت هذه الدول الثلاث مجتمعة من هزيمة «هتلر».

على أي حال، مرت الأيام واشتعلت الحرب كما ذكرنا من قبل وحاول الكثيرون إقناع «إيفا» بالهرب من «برلين» لكنها كانت ترفض دائمًا وتقول: «هل تعتقدون أني سأتركه يموت وحده».

وفي الأول من شهر أبريل عام 1945 وقبيل سقوط «الرايخ» بأيام سافرت «إيفا» من «ميونخ» إلى «برلين» لتكون مع «هتلر» في ملجأ «الفوهرر». رفضت «إيفا» الهرب عند اقتراب الجيش الأحمر السوفيتي من العاصمة الألمانية كما ذكرنا من قبل. وبعد منتصف ليلة الثامن والعشرين من شهر أبريل تزوجت «إيفا» من «هتلر» في احتفال مدني صغير قصير في ملجأ «الفوهرر». شهد على عقد الزواج كل من «جوزيف جوبلز» و«مارتن بورمان». بعدها، تناول «هتلر» إفطارًا متواضعًا مع عروسته. وبعد زواج «إيفا» من «هتلر»، تغير اسمها رسميا إلى «إيفا هتلر»، وعند توقيعها على وثيقة الزواج وقعت برمز عائلتها (ب)، ثم عدّلته إلى (هـ) إشارةً إلى «هتلر».

وفي الثلاثين من أبريل عام 1945 وتحديدًا في تمام الثالثة والنصف وخمس دقائق، أبلغ عدد من الحراس عن سماع دوي طلقات نارية، ثم قال خادم «هتلر» إن الحراس وجدوه هو و«إيفا» و«جوزيف جوبلز» وزوجته وبناته الست منتحرين. قيل بعدها أنه تم إخراج الجثامين عبر مخرج الطوارئ إلى حديقة خلفية وحرقها هناك. ووفقًا لهذه الرواية فإن «إيفا براون» قد ماتت وهي في سن الثالثة والثلاثين.

تمت

في الواقع، إن قصة «إيفا براون» وعلاقتها بـ «هتلر» من أصعب القصص التي سردتها في ذلك الكتاب، ذلك لما تعرض له الاثنان من تشويه وتلفيق وتزييف لتاريخهما. إن تاريخ «هتلر» و«إيفا براون» قد تم تحريفه بشكل كبير لا لشيء سوى لتشويه صورة «هتلر» وإظهاره هو وكل أعاونه في صورة شيطانية. إن الكثير من عوام الناس حاليًا ينظرون إلى «هتلر» على أنه سفاح صاحب شخصية موتورة، ذلك على الرغم من أن «جوزيف ستالين» زعيم الاتحاد السوفيتي في الحرب العالمية الثانية قد ارتكب الكثير من المجازر تجاه شعبه وبعض البلدان التابعة له مثل «أوكرانيا» وتجاه الشعب الألماني والشعب البولندي لا يمكن مقارنتها بما فعله «هتلر». فإن كان أحدهما يستحق الفوز بلقب «السفاح» فإن «ستالين» سيفوز به عن جدارة. يكفي أنه وحده تسبب في مقتل ما يقرب من 20 مليون إنسان حول العالم، بالإضافة طبعًا إلى استخدامه القمع السياسي في بلاده وتخلصه من المعارضين له وقتلهم. لكن لأن «ستالين» هو الذي فاز بالحرب، فإنه ورجاله هم من كتبوا التاريخ وفقًا لهواهم.

قد تتعجب هنا حينما أقول لك أن كل ما أشيع عن قيام «هتلر» بعمل محارق لليهود وتعذيبهم بصورة واسعة النطاق هو أمر مبالغ فيه بشدة. وفقًا للوثاق التاريخية، ثبت أن المنظمة الصهيونية العالمية بقيادة «حاييم وايزمان» كانت قد وقعت على اتفاق مع «هتلر» يسمح لليهود بمغادرة ألمانيا بجزء كبير من ممتلكاتهم. لكنهم استغلوا الحرب العالمية الثانية واعتقال «هتلر» لأعداد كبيرة من اليهود بتهمه الخيانة العظمي والتجسس لصالح دول أخرى من

أجل الترويج لقضيتهم والضغط على المجتمع الدولي من أجل إقامه دولة لهم في فلسطين، وهو ما حدث بالفعل بعد ثلاث سنوات من انتهاء الحرب العالمية وتحديدًا في عام 1948.

لكي تفهم عزيزي القارئ الأمر بصورة أوضح تابع موقف العالم تجاه ما سُمي باضطهاد النازية لليهود وموقفه تجاه ما فعله «ستالين» في «أوكرانيا» و«بولندا» على سبيل المثال. هل تعلم عزيزي القارئ أن «جوزيف ستالين» قد أفقر الشعب الأوكراني واستولى على كل ثروات البلاد التي كانت تحت حكم الاتحاد السوفيتي، إضافة إلى الحبوب والطعام للدرجة التي تسببت في مجاعة عظمى أودت بحياة 10 ملايين شخص. كل هذا يرجع سببه إلى أن الشعب الأوكراني كان يرفض الحكم الشيوعي لبلاده، وهي الواقعة المثبتة تاريخيًا .. ليس هذا فقط بل أمر «ستالين» أيضًا بإقامة ما عُرف تاريخيًا باسم مجزرة «كاتين» تجاه الشعب البولندي التي راح ضحيتها ما يقرب من 300 ألف شخص من بينهم ستة آلاف ضابط تم إعدامهم ودفنهم جميعًا في غابة «كاتين». لم يتحرك العالم تجاه هذه المجزرة، بل قامت الولايات المتحدة الأمريكية الليبرالية بدعم «ستالين» والاتحاد السوفيتي الشيوعي وإمداده بالمال والسلاح من أجل الصمود في وجه «هتلر»، ذلك في الوقت الذي خرجت فيه صحف العالم وأمريكا تملأ العالم عويلاً على ما يحدث لليهود في ألمانيا من أحداث؛ تلك الأحداث الملفقة.

على أي حال، ليس هذا فقط ما أود الحديث عنه هنا. هناك أمر آخر غاية في الأهمية وأعتقد أنه يرتبط بشكل كبير بما ذكرته في السطور السابقة، ذلك الذي يتعلق بنهاية «هتلر» و«إيفا براون». وفقًا للرواية السوفيتية الرسمية، إن «هتلر» و«إيفا براون» انتحرا وتم احراق جثتهما في حديقة مجاورة لملجأ «الفوهرر»، وأن الجنود السوفييت وجدوا الجثتين متفحمتين وتم نقلهما إلى «موسكو» عاصمة الاتحاد السوفيتي. وهنا، يجب أن نذكر أمرين غاية في الأهمية. الأول، هو أن «جوزيف ستالين» ظل يرفض لسنوات عديدة اطلاع أي من القوى الغربية على هاتين الجثتين، مؤكدًا أنه تم إجراء اختبار الحمض النووي عليها والتأكد من أنهما لكل من «هتلر» و«إيفا براون»، وظل يتعامل مع هاتين الجثتين على أنهما سر حربي من أسرار الدولة. أما الأمر الثاني، يتمثل في اعتراف «ستالين» نفسه بعد سنوات من الحرب العالمية الثانية أن الجثتين اللتين عُثر عليهما لا تعودا إلى «هتلر» أو «إيفا براون» وأنه تم إشاعة ذلك بهدف تهدئه العالم بعد الحرب.

تم تأكيد هذا الأمر بعد سنوات من سقوط الاتحاد السوفيتي وبعد إجراء فحص لجثة «هتلر» من قِبل بعض رجال المخابرات الأمريكية؛ حيث ثبت أن الجثة التي نسبت إلى «هتلر» تعود إلى سيدة في الأربعين من عمرها. وهنا، يجب أن أشير إلى أن الجثتين اللتين عُثر عليهما كانتا متفحمتين تمامًا بصورة يصعب معها التوصل إلى حقيقة أصحابهما بأي شكل من الأشكال، وهو ما يجعلنا نطرح سؤالين مهمين: «كيف تمكن الجنود السوفييت الذي اقتحموا «برلين» التأكد، أو حتى القول بأن تلك الجثتين هما لـ «هتلر» و«إيفا براون»؟

وما الأسباب التي أكدت لهم هذا باستثناء أن تلك الجثتين وجدتا في حديقة إلى جوار ملجأ «هتلر»؟. يجب الإشارة في هذا السياق إلى أن جميع الوثائق الأمريكية التي تتحدث في هذا الشأن تثبت أن الجثتين لا تعودا إلى أي من «هتلر» أو «إيفا براون».

إذا كان الأمر كذلك، فأين ذهبت جثتا «هتلر» و«إيفا براون»؟ وكيف لم تتمكن جيوش التحالف التي اجتاحت «برلين» من العثور عليهما مثلما عثروا على العديد من أعضاء وقيادات الحزب والحكومة النازية؟

في الواقع، إن الإجابة عن هذا السؤال تبدو معقدة تمامًا مثله. هناك الكثير من الأقاويل والروايات، لكن أقربها إلى الصدق هي الرواية التي تستند إلى وثائق مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي التي رفع عنها الحظر في عام 2018 . تؤكد هذه الرواية على هروب «هتلر» إلى أميركا اللاتينية بواسطة غواصة ألمانيا من طراز «يو 3023» بعد أسبوعين على تقارير انتحاره. تقول الرواية أنه قد اختبأ في مكان مجهول في ألمانيا، ثم ظل في الغواصة لمدة أسبوعين حتى هدأت الأمور، ثم انطلقت به الغواصة نحو سواحل أمريكا اللاتينية وتحديدًا إلى كولومبيا، ثم إلى الأرجنتين؛ حيث عاش هناك بقية حياته بداخل مزرعة بسيطة حتى مات وهو في عمر الـ 73 عامًا.

يمكنك التعرف على هذه القصة بشكل أوضح من خلال مشاهدة الفيلم الوثائقي «هتلر: الهروب الكبير»، وهو فيلم من إنتاج شبكة «نتفليكس»، ويتم خلاله تتبع رحلة هروب «هتلر» من «برلين» حتى الأرجنتين؛ حيث أوضح الفيلم أن «هتلر» وصديق له و«إيفا براون» قد عاشوا في مزرعة في «بوينس إيرس» وأن صاحب هذه المزرعة قد استقبلهم بنفسه.

وهو ما يعني أن قصة نهاية «هتلر» لازالت يكتنفها الغموض، وربما تكشف السنوات المقبلة عن جديد في تلك القصة مع استمرار البحث في مجرياتها. لكن الأمر المؤكد بالنسبة لي أن شخصًا بذكاء «هتلر» لم يكن لينتحر بمثل هذه السهولة، أو ليستسلم.

ماتا هاري

الجاسوسة التي انحنى العالم احترامًا لها



«عندما نحب بحق نعرف أنفسنا ونعرف الآخرين معرفة أفضل ولا نعود في حاجة إلى الكلمات، أو الوثائق، أو التصاريح، أو الاتهامات، أو الدفاعات نحتاج فقط إلى ما يقوله سِفر الجامعة: «الجور في موضع العدل والظلم في موضع الحق. إن الله سيحكم على الصديق والشرير، لأن لكل عمل ولكل أمر وقتًا هناك»».

من كتاب «الجاسوسة» للكاتب «باولو كويلو»

أصبح الكثيرون يعرفون اسم «ماتا هاري»، خاصةً بعد صدور رواية «الجاسوسة» للكاتب الكبير «باولو كويلو» في عام 2017. لكن قلة قليلة منهم هي من تعرف أي جزء من قصتها حقيقة وواقع، وأي جزء محض خيال. إن ما نعرفه بحق حولها هو أنها امرأة كثيرة الترحال، أجادت أكثر من سبع لغات بطلاقة. خلال الحرب العالمية الأولى، أدى بها جمالها الفاتن ومغامراتها العاطفية إلى الانخراط في شبكة جاسوسية معقدة لدرجة ورطتها في مشاكل جمة لم تتمكن حتى شهرتها الواسعة من إنقاذها منها.. فمن هى يا تُرى «ماتا هاري» بطلة هذه المغامرة؟

إن اسمها الأصلي هو «مارجريتا جِرترودا زيلي». ولدت في السابع من شهر أغسطس سنة 1876 في مدينة «ليواردن» في هولندا. كان واضحًا عليها منذ سن مبكرة أنها ستكبر لتصبح شخصية استثنائية. فمنذ سنوات طفولتها الأولى في شمال هولندا، عُرِف عنها أنها ذات شخصية وملامح بارزة، جميلة ولامعة ومظهرها يوحي بقوة كبيرة تتقد في داخلها. جدير بالذكر أيضًا أنه كان لدى «مارجريتا» موهبة خاصة في تعلم اللغات الأجنبية.

منذ نعومة أظافرها، تعلمت «مارجريتا» كيف تنال مرادها من الرجال عبر إرضائهم واستمالتهم، بدءًا من والدها الشغوف بها «آدم زيل»، التي كانت «مارجريتا» الابنه المفضلة والمدللة لديه. كان والدها غالبًا ما يُغدق عليها الهدايا الباهظة والثمينة. لقد كان والدها رجل أعمال ثري عودها هي وأشقائها على حياة الترف والبذخ، لكنه سرعان ما أفلس عندما كان عمر «مارجريتا» 13 سنة فقط.

بعد إفلاسه، هجر والدها الأسرة وهرب بعيدًا مع امرأة أخرى؛ بعدها، توفيت والدتها وكانت «مارجريتا» لاتزال في 15 من عمرها. بعد وفاة والدتها، تم إرسال «مارجريتا» وهي في سن المراهقة إلى مدرسة كي تتعلم مهنة التدريس حتى تصبح مُدرّسة في المستقبل؛ ومن هناك، انتقلت إلى مدينة «لاهاي» الهولندية بعد أن تم طردها من هذه المدرسة بسبب تورطها في فضيحة جنسية مع المشرف على المدرسة وكان عمرها لم يتجاوز 16 عامًا. هنا، يجب أن نوضح أن «مارجريتا» التي ستُعرف فيما بعد باسم «ماتا هاري» أوضحت أنها مظلومة في تلك الواقعة وأن المشرف هو من استدرجها وأنها لم تتمكن من مقاومته ولم يكن أمامها سوى الانصياع لرغباته. لقد كانت «مارجريتا» بلا أب، أو أم يحمونها من هذا الرجل، فاستسلمت له مغلوبة على أمرها.

كانت «لاهاي» آنذاك مدينة تعج بضباط الجيش الاستعماري الهولندي الذين عادوا من الخدمة في الهند الشرقية الهولندية، أو ما يُعرف اليوم باسم «إندونيسيا»، وهو الأمر الذي جعلها تعرف الكثير من أخبار تلك البلاد

البعيدة عنها. إن ما كانت تسمعه عنها من حكايات جعلها تحب تلك البلاد وترغب في زيارتها يومًا ما، وهو ما سيحدث فيما بعد.

حينما كانت «ماتا هاري» في سن 18، قرأت إعلانًا في أحد الصحف عمودًا باسم «القلوب الحائرة». كان صاحب هذا الإعلان شابًا برتبة نقيب يُدعي «رودولف ماكلاود». كان رجلاً غنيًا يبحث عن فتاة ذات شخصية جذابة بهدف الزواج منها وتأسيس عائلة. وبدافع الملل والرغبة في خوض مغامرة جديدة في الحياة وكذلك البحث عن الاستقرار، قامت «ماتا هاري» بمراسلة صاحب الإعلان. لقد بدت لها فكرة الزواج من رجل مثله أفضل طريق لحياة أفضل من الحياة التعيسة التي تعيشها. كما كانت ترى فيه الرجل الذي سيعيد إليها سنوات البذخ والترف التي نشأت عليهما.

كانت تعرف جيدًا أن الضباط العسكريين في الهند الشرقية يعيشون في منازل وقصور فاخرة وواسعة، ويحظون بوجود الكثير من الخدم تحت تصرفهم. لقد قالت في حوار لاحق: «أردت العيش مثل الفراشة» .. وبعد التقائها بالنقيب «رودولف» بستة أيام فقط أعلنا عن خطوبتهما، ثم تزوجا في يوليو سنة 1895.

تزوجت «ماتا هاري» البالغة من العمر 18 عامًا من النقيب «رودولف ماكلود» الذي كان يبلغ من العمر ضعف عمرها. لقد كان مهووسًا بالجنس وبالعلاقات الغرامية. أنجبت منه «ماتا» بعد أن سافرت للعيش معه في إندونيسيا ولدًا وبنتًا.

يجب أن نذكر هنا أن زوجها الذي عرفته بواسطة إعلان زواج نُشر في جريدة، كما ذكرنا من قبل، لم يستطع تجاوز تلك الحقيقة فتحولت حياتها معه

إلى جحيم دائم. لقد كان دائم الشك بها وكان دومًا ما يقول لها أنه يشعر بأنها ستتركه وتهرب مع أحد الضباط. وبالتالي، لم تكن الحياة التي عاشتها «ماتا» مع «رودولف» هي تلك التي توقعها، بالإضافة إلى أن «رودولف» لم يكن غنيًا كما أوهمها في بداية الأمر. على العكس، لقد كان غارقًا في الديون بسبب إدمانه للعب القمار، ناهيك عن علاقاته الجنسية الكثيرة خارج إطار الزوجية. لذلك، بدأت «ماتا» في الانجراف بعيدًا عنه تمامًا.

مضت الأيام، وأخذ وضع «ماتا» يزداد سوءًا يومًا بعد يوم. لقد أصبح زوجها يشرب الخمر بإفراط. كما قرر هجرها كي يهتم بعشيقته الجديدة. أغضبت هذه التصرفات «ماتا» كثيرًا وجعلتها هي الأخرى تبتعد عن زوجها لتهتم بدراسة الثقافة الإندونيسية، تلك التي ستعود عليها، كما سنرى، بالنفع فيما بعد. وفي سنه 1899، أي بعد مرور أربع سنوات على زواجهما، ترقى «رودولف» إلى رتبة رائد في قاعدة عسكرية أخرى في الهند الشرقية الهولندية. قرر «رودولف» ترك زوجته وعائلته وقصد جهة عمله الجديدة ليعثر على منزل هناك. وفي تلك الأثناء، مرض طفليهما مما دفع «رودولف» إلى العودة إليهما. وبعد عودته، عهد إلى طبيب بالقاعدة العسكرية بعلاجهما، لكن هذا الطبيب لم يكن مختصًا في علاج الأطفال. أعطى الطبيب الطفلين جرعة زائدة من الدواء مما أدى إلى تدهور حالتهما، حتى مات الابن.

هنا، يجب أن نذكر أن هناك قصة أخرى حول وفاة ذلك الطفل تقول بأن إحدى الخادمات الإندونيسيات اللواتي كنّ يعملن في منزل «ماتا» قامت

بقتل ذلك الطفل انتقاما من زوجها الذي كان يعاملها معاملة سيئة وكان يغتصبها بشكل متكرر فما كان منها إلا أن قتلت الطفل لكي تنتقم من ذلك الرجل صعب المراس.

بعد تلك الواقعة بثلاث سنوات وتحديدًا في عام 1902، تمت معاقبة زوجها لسوء سلوكه؛ إذ تعرض لعقوبات قاسية من قِبل إدارة الجيش أدت إلى إنزال رتبته، ثم نقله بعيدًا عن مستعمرات الهند الشرقية الهولندية. بعد العودة إلى هولندا، لم يكلف الزوجان نفسيهما عناء تصنع الحب والمودة. لقد انفصلا عقب عودتهما إلى بلدهما، ثم وقع بينهما الطلاق. وبالرغم من أن «ماتا» كان لها حق حضانة ابنتهما الوحيدة «جان»، فإن «رودولف» استغل نفوذه وأجبرها على التخلي عن حضانة الابنة لصالحه وحرمها من تربيتها. ولأن «ماتا» كانت في ذلك الوقت تعيش في فقر شديد، لم تتمكن من فعل أي شيء، أو حتى رفع دعوى قضائية ضد زوجها. استلمت «ماتا» للأمر وقررت الانتقال للبحث عن عمل وحياة جديدة في «باريس» عام 1903.

في الواقع، توجد رواية أخرى حول سبب عودة «ماتا» إلى هولندا. تقول هذه الرواية أن السبب الرئيسي كان وقوع حادث انتحار لزوجة أحد الضباط. كانت تعاني هذه الزوجة مما تعاني منه «ماتا»، فقررت أن تنهي حياتها بقتل نفسها، مما جعل «ماتا» تثور على البؤس والظلم الذي تعيشه مع زوجها وتقرر العودة إلى بلدها. لكنها حينما عادت وجدت نفسها من جديد وسط المجتمع الصغير لمدينتها التي تتغذى على مجالس النميمة والشائعات. لم تنس المدينة ماضي «ماتا»؛ خصوصًا بعد زواج والدها من أخرى ووفاة والدتها. كانت تلك الشائعات تتعمد الإشارة إلى «ماتا» على أنها فتاة سيئة

بسبب ما حدث لها في المدرسة وهي في سن المراهقة، مما جعلها تقرر السفر إلى باريس للعيش هناك.

على أي حال ومهما كانت الرواية الحقيقة، إن الشيء الثابت لدينا هو أن «ماتا» قد سافرت إلى باريس في عام 1903. يبدو أن «ماتا» قد واجهت صعوبات شديدة في بداية حياتها في «باريس»؛ حيث كتبت بعد رحيلها إلى هناك إلى أحد أقاربها قائلة: «لقد سئمت من محاربة الحياة. أرغب في أمر واحد من اثنين، فإما أن تعيش معي ابنتي، وأعد أن أتصرف كأم مثالية، وإما سأستمتع بالحياة الجميلة التي وجدتها هنا في «باريس»، على الرغم من أنني أعلم مسبقًا بأن نهايتها ستكون مأساوية».

حاولت «ماتا» الحصول على عمل لكنها لم تتمكن من ذلك. لم يكن أمامها سوى العمل في سيرك محلي وكعارضة أزياء لدى أحد الفنانين والمصممين. وفي سنة 1905، حققت نجاحًا كبيرًا كراقصة في ذلك السيرك. وللهروب من ماضيها ولبدء حياة جديدة قررت أن تعمل راقصة تحت اسم مستعار وكان هذا الاسم هو «ماتا هاري» واختلقت لنفسها حياة جديدة وادعت أنها أميرة إندونيسية هندوسية مستغلة في ذلك إتقانها للغة والثقافة الإندونيسية.

وبعد فترة ليست كبيرة أصبحت «ماتا هاري» مشهورة في كل القارة الأوروبية وليس فقط في «باريس». لقد تجمع حولها الرجال من كل أرجاء وبلدان العالم، لكن «ماتا» كانت تُفضل الوجود بالقرب من رجال الجيش من العسكريين، الذين أبهرتهم بجمالها وبملابسها الجريئة، وبذلك التاج المرصع بالمجوهرات التي كانت دائما ما تضعه فوق رأسها مما جعلها بالفعل تشبه ملكة من بلاد الشرق. ولكي تُضفي على عملها مزيدًا من السحر كانت

تستقطع وقتًا خلال عروضها الراقصة لتشرح باللغات الألمانية والفرنسية والإنجليزية والهولندية بشكل مفصل تلك الرقصات التي تؤديها. كانت دائمًا ما تقول أن رقصي هو عبارة عن شعائر مقدسة لدى المعبد الهندوسي. كما إنها كانت تمنح كل عرض ورقصة اسمًا وقصة يعبران عنها.

وبهذا، صارت «ماتا هاري» المرأة الأشهر في باريس كلها. كانت تقضي أغلب وقتها برفقة دبلوماسيين رفيعي المستوى ورجال أعمال ونخبة من الضباط العسكريين وأثرياء باريس الذين أغدقوا عليها الهدايا الثمينة، مثل المجوهرات والأحصنة الأصيلة،والأثاث الراقي، وكل ما قد تتخيله من وسائل الرفاهية والمتعة، لا لشيء إلا للاستمتاع برفقتها. ظلت «ماتا هاري» على مدار سنوات طويلة تؤدي عروضها الراقصة في كل العواصم الأوروبية الكبيرة وليس في «باريس» فقط، بل صارت مطلوبة في أرجاء العالم وباتت شخصية عالمية مشهورة.

في ذلك الوقت وتحديدًا في عام 1914، اندلعت الحرب العالمية الأولى، أو ما عُرفت باسم «الحرب العظمى». لم يؤثر اندلاع الحرب على نمط الحياة الفاخرة والمرفهة لـ «ماتا هاري»، لكنها في الوقت نفسه جعلتها محط كره الطبقة المتوسطة من الشعب. ففي الوقت التي كانت ترسل فيه هذه الطبقة ما لديها من أبناء وأشقاء وأزواج ليلقوا حتفهم في الحرب، كانت تتابع أخبار وصور «ماتا هاري» التي تعيش حياة مرفهة مع أصدقائها من كبار رجال الدولة.

بدأت رحلة «ماتا هاري» مع الجاسوسية في عام 1915. بينما كانت «ماتا» في زيارة إلى مدينة «لاهاي» في هولندا، التي كانت على الحياد في تلك الحرب،

زارها «كارل كرومر» المستشار الألماني بالنيابة في مدينة «أمستردام» وعرض عليها مبلغ 20 ألف مارك ألماني من أجل التعاون مع السلطات الألمانية أثناء الحرب. وافقت «ماتا» على هذا العرض، بل ورحبت به بشدة. لقد كانت «ماتا» تحب دومًا المغامرة وتبحث عنها.

وخلال عودتها عن طريق البحر من هولندا إلى فرنسا في شهر ديسمبر من السنة نفسها، قام أحد ضباط المخابرات البريطانية في أحد الموانئ البريطانية باستجوابها هي وجميع من كانوا على متن السفينة من المسافرين. لم يتم العثور بحوزتها على أي شيء قد يقود إلى الاشتباه فيها، إلا أن الضابط المسئول عن التحقيق كتب في ملاحظاته: «لقد كان هناك امرأة تُدعى «ماتا هاري» تتحدث الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والهولندية وربما الألمانية بطلاقة، وهي امرأة قوية وذات جمال أخاذ وترتدي ثيابًا مرموقة». ويبدو من هذه الملاحظات أن الضابط قد أشتبه فيها.

حينما عادت «ماتا» إلى العاصمة الفرنسية «باريس»، قررت الإقامة في فندق «جراند أوتيل». وبالرغم من أن المخابرات الإنجليزية والفرنسية كانتا قد أخذتا في ملاحقتها، فإن «ماتا» لم تلحظ هذه الملاحقة بسبب اعتيادها على أن تكون محط انتباه الرجال. لم تكن «ماتا» تهتم لأمر من يتتبعها، أو يلاحقها بنظراته، لكنها لم تدرك في ذلك الوقت أن «جورج لادو» رئيس وحدة الجاسوسية المضادة في وزارة الدفاع الفرنسية قد أصدر أمرًا لرجاله وعملائه بملاحقتها وتتبعها في كل الأماكن التي تذهب إليها من مطاعم ومتنزهات ومقاهي وصالونات ومحلات ونوادٍ ليلية. كان هؤلاء العملاء يتجسسون على بريدها ويتنصتون على هاتفها، كما قاموا بعمل قائمة لتسجيل

أسماء الأشخاص الذين كانت تلتقي بهم. ورغم كل هذا لم يعثروا على أي دليل يشير إلى أنها تجمع أو تمرر أية معلومات للجانب الألماني.

بحلول عام 1916، خسرت فرنسا تقريبًا كل المعارك التي خاضتها ضد ألمانيا في الحرب. ومن أكثر المعارك التي تكبدت فيها فرنسا خسارة فادحة هي معركة «فيردان» ومعركة «السوم» الطاحنتين اللتين استمرتا لأشهر عديدة. لقد أدت الأوحال والأوضاع المزرية والأوبئة وغاز الخردل، ذلك السلاح الذي كان حديث الاستخدام آنذاك، إلى مصرع مئات الآلاف من الجنود الفرنسيين.

كانت كل هذه الأمور سببًا رئيسيًا في تثبيط عزيمة الجنود الفرنسيين حتى سيطر اليأس على نفوسهم وفقدوا الرغبة في مواصلة القتال. هنا، شعر «جورج لادو» بأن اعتقال جاسوس كبير ومشهور قد يرفع من معنويات الجنود على جبهات القتال ويعيد شحذ الهمم لمواصلة الحرب.

في ذلك الوقت، كانت «ماتا هاري» تواصل عملها بالتخابر لصالح الألمان وإمدادهم بالمعلومات من دون أن يشعر بها أي أحد. لكنها ومن فرط ثقتها في نفسها لم تكن تشعر بما تخبئ لها الأقدار. ففي ذلك الوقت، التقت «ماتا» بنقيب شاب روسي الجنسية يُدعى «فلاديمير ماسلوف» كان يحارب في صفوف الجيش الفرنسي. لقد تعرض هذا الشاب لهجوم بغاز الخردل تسبب له في فقدان البصر في عينه اليسرى، وكان مهددًا بالعمى التام. وبالرغم من الحالتين النفسية والصحية السيئتين اللتين كانا عليهما «فلاديمير»، فإن «ماتا» قد أحبته بشدة حتى إنه عندما عرض عليها الزواج فرحت بشدة وقبلت بعرضه على الفور ومن دون تفكير. لكنها في الوقت نفسه كانت تفكر في

عملها لصالح الألمان؛ إذ أملت «ماتا» في أن يمنحها ذلك الزواج جواز مرور لمناطق الحرب كي تكون بالقرب من القاعدة العسكرية.

إن هذه العلاقة كانت بداية النهاية بالنسبة لـ «ماتا هاري». ففي تلك الأثناء، ذهبت «ماتا» لتستشير أحد أصدقائها القدامى، وهو ضابط يعمل بوزارة الحرب يُدعى «جون آلور»، حول تلك العلاقة وعن رغبتها في الذهاب للعيش بالقرب من القاعدة العسكرية التي يوجد بها حبيبها. لكن ما كانت «ماتا» تجهله في ذلك الوقت هو أن صديقها هذا صار يعمل في إدارة الجواسيس التي يترأسها «جورج لادو» الذي بدأ في تجنيد جواسيس تقوم بتتبع «ماتا».

وبالفعل، أرسلها صديقها إلى المكتب العسكري للأجانب في العقار رقم 282 في شارع «سان جيرمان». وهناك، أخبرها العملاء بأنه بإمكانها زيارة حبيبها «فلاديمير» بشرط أن تعمل لحسابهم وأن تتجسس على الضباط الألمان لصالح الحكومة الفرنسية مقابل مليون فرنك فرنسي. وافقت «ماتا» على الفور للعمل لصالح الحكومة الفرنسية. لقد كان هذا المبلغ أكثر من كافٍ لدعم نفقات المعيشة لها ولحبيبها بعد أن يتزوجا. لقد كتبت «ماتا» في دفتر يومياتها أنها لم تكن ترغب في أن تخون «فلاديمير» مع رجل آخر بسبب الفقر، ومن ثم كان هذا المال ضروريًا جدًا بالنسبة لها حتى لا تضطر للوقوع في خيانته.

على أي حال، وجه «جورج لادو» تعليمات لها بأن تعود إلى مدينة «لاهاي» الهولندية عبر إسبانيا وأن تنتظر هناك حتى تحصل منه على مزيد من التعليمات. وقد كتبت «ماتا» في دفتر يومياتها أيضًا أنه على الرغم من

العديد من اللقاءات التي جمعتها به لاحقًا، فإنه لم يطلب منها أبدًا تقديم أية معلومات تحصلت عليها. كما لم يستهدف أي رجل كي تقوم «ماتا» بإغوائه، ولم يوفر لها أية وسائل تبعث من خلالها بأية معلومة تكتشفها، أو مبالغ مالية تساعدها في مهمتها. دفع هذا الأمر «ماتا» إلى أن تبعث إلى «جورج لادو» برسالة عبر البريد العادي تخبره فيها بأنها تحتاج إلى مبلغ من المال من أجل شراء بعض الملابس الفاخرة إن كانت ستقوم بإغواء رجال مهمين.

وهنا، رد برسالة يطلب فيها من «ماتا» أن تذهب إلى إسبانيا. ركبت «ماتا» إحدى السفن التجارية الهولندية التي رست على أحد الموانئ البريطانية التي يتم فيها، كالعادة، التحقيق مع المسافرين. لكن هذه المرة ازدادت شكوك الضباط البريطانيين في هوية «ماتا» ونواياها مما جعلهم يرسلونها إلى لندن لإجراء تحقيقات موسعة معها.

ومثلما حدث في المرة الأولى، لم يعثر المحققون على أي شيء يدين «ماتا»، أو يثبت شكوكهم التي تحوم حولها. لكن الشيء المختلف هذه المرة هو أن «ماتا هاري» قد أصابها الرعب حينما صدر قرار باحتجازها لفترة. يرجع سبب الاحتجاز إلى أن ضباط التحقيق لم يكونوا متأكدين من هويتها، ولم يعرفوا ما إذا كانت فعلاً هي « مارجريتا جِرترودا زيلي» (اسمها الأصلي)، أم إنها «كلارا بانديكس» الجاسوسة الألمانية التي كانت تشبهها كثيرًا من حيث الهيئة والمظهر.

ولشدة يأسها ولرغبتها المُلحة في أن يُطلق سراحها، اعترفت «ماتا هاري» للمحققين البريطانيين بأنها في السادس عشر من شهر نوفمبر أصبحت عميلة للسلطات الفرنسية وأنه قد تم تجنيدها من قِبل «لادو». قامت السلطات

البريطانية بالاتصال بـ «لادو» للتحقق من إدعاءات «ماتا». لكن كان رد «جورج لادو» مفاجئًا وغير متوقع بالنسبة لـ «ماتا»، حيث قال: «لا أعلم عن الأمر شيئًا، أرسلوها إلى إسبانيا».

في الواقع، كان تصرف «جورج لادو» هذا بمثابة خيانة لأحد عملائه، لكنه أراد أن ينقذ نفسه من فضيحه ومن فشل جديد. إن ملفات المخابرات البريطانية التي تتعلق بتلك الفترة والتي كُشف عنها في عام 1971 قد لخصت رده في تلك الكلمات: «أنه كان قد شكك في أمرها منذ مدة وتظاهر بأنه قد وظفها لتعمل جاسوسة لصالح فرنسا، وكان ليشعر بسعادة كبيرة لوعرف بأن الشعور بالذنب تملكها لتعترف بحقيقتها».

وفي العاصمة الإسبانية «مدريد»، قررت «ماتا هاري» اكتشاف أي أسرار عسكرية يمكنها اكتشافها هناك. وقع في سحر جمالها وتصرفاتها دبلوماسي ألماني عينته السلطات الألمانية في مدريد يُدعى «أرنولد فون كال». لم يتوان «أرنولد» عن الحديث أمامها بعد وقت وجيز من معرفتها بشأن الخطط العسكرية لبلاده وكيف أنها ستسحق أعداءها في تلك الحرب. لقد باح لها في إحدى المرات بأن هناك مخططًا لإنزال ضباط ألمان وأتراك بالإضافة إلى المؤون من غواصة على سواحل المغرب. وهنا، سارعت «ماتا هاري» لنقل هذه المعلومة القيّمة إلى «لادو» لتطالب بجائزتها التي وعدها بها. أرسلت إليه «ماتا» برسالة، إلا أنها لم تتلق أي رد منه أبدًا، الأمر الذي زاد من غضبها وحنقها عليه.

في تلك الأثناء أيضًا، كانت «ماتا هاري» قد باتت تربطها علاقة صداقة قوية مع شخص يُدعى «جوزيف دونفين»، يعمل في المفوضية الفرنسية في

«مدريد». لقد عشقها «دونفين» لدرجة جعلته مهووسًا بها، حتى وصل حبه لها إلى أنه كان يثور ويغضب لمجرد رؤيتها تجلس مع رجال آخرين، أو تراقصهم. ومن أجل إطفاء نار الغيرة التي تتقد في داخله، أفصحت له «ماتا» بسذاجة عن سر عملها مع «لادو» وشرحت له بالتفصيل الدور الذي تقوم به. كما سردت له كل الأسرار التي اكتشفتها من الدبلوماسي الألماني.

بعدها، طلب منها «دونفين» أن تجلب له المزيد من المعلومات حول خطة الإنزال المغربي من «كال». وبالفعل، نفذت «ماتا» ما طلبه «دونفين» منها، لكن الأسئلة الكثيرة التي طرحتها «ماتا» عليه أثارت الشكوك في نفسه تجاهها. وبما أن «دونفين» كان سيسافر إلى «باريس» لفترة وجيز، كتبت «ماتا» رسائل طويلة تحتوي على الكثير من المعلومات التي اكتشفتها خلال مهمتها التجسسية وطلبت من «دونفين» أن يسلمها إلى «لادو» في باريس.

وفي شهر ديسمبر من عام 1916، وبينما كانت «ماتا هاري» تغزو أذهان الدبلوماسيين الواحد تلو الآخر في«مدريد»، أصدر «لادو» أوامره باعتراض كل رسائل الراديو بين «مدريد» و«برلين» وتفكيك شيفراتها باستعمال محطة استماع وتنصت نُصبت على قمة برج «إيفل»، ثم أدعى لاحقًا أن هذه الرسائل حددت بشكل واضح هوية «ماتا هاري» الحقيقية؛ تلك المتمثلة في كونها جاسوسة ألمانية.

في يناير سنة 1917، أرسل ضابط ألماني بالسفارة الألمانية في العاصمة الإسبانية «مدريد» رسالة مُشفرة إلى «برلين» يبرز فيها نشاطات جاسوس باسم «أتش21». اعترض الفرنسيون هذه الرسالة وحددوا هوية الجاسوس «أتش21» على أنه «ماتا هاري». يعتقد البعض أن المخابرات الألمانية كانت

تعرف أن تلك الرسالة سيتم اعتراضها وتفكيك شيفرتها وأنهم قد تعمدوا الإطاحة بـ «ماتا هاري»، التي كانت في ذلك الوقت جاسوسة مزدوجة تعمل لصالح الطرفين بعد أن فقدت الأمل في مساعدة «جورج لادو» لها.

عادت «ماتا هاري» إلى «باريس» متوقعة تلقي جائزتها الموعودة مقابل المعلومات الاستخباراتية التي منحتها للسلطات الفرنسية. لكنها تفاجأت برفض «لادو» رؤيتها، أو حتى استقبالها. وبعد جهد كبير وافق على لقائها غير أنه نفى أن يكون هناك شخص باسم «دونفين» قد أوصل إليه أية رسائل، أو معلومات من جهتها. وعندما قصدت مكتب استخبارات الأجانب تم إعلامها بإن «دونفين» كان «شخصا مجهولا» بالنسبة إليهم. بعدها بمدة اكتشفت «ماتا» أن أمرًا مريبًا يحدث بسبب تفكيك شيفرة رسالة ما من رسائل الراديو من جهة السفارة الألمانية في إسبانيا.

يجب أن نشير هنا أيضًا إلى أن الملفات الفرنسية التي أزيل عنها طابع السرية مؤخرًا كشفت أن الرسائل التي تحدد هوية «ماتا هاري» على أنها جاسوسة ألمانية قد تم جلبها إلى حضرة المدعي العام من طرف «لادو» في شهر أبريل من العام نفسه، وليس في شهر ديسمبر ولا يناير حسبما أدعى «لادو» أنها أُرسلت فيه. كذلك تُظهر الملفات أن «لادو» كان الشخص الوحيد الذي أطلع على الرسائل الأصلية قبل أن يتم فك شيفرتها وترجمتها. كما ورد في هذه الملفات أن الرسائل الأصلية اختفت من الملفات بشكل غامض، وكشفت أيضًا عن أنه في وقت لاحق من ذلك العام اعتقل «لادو» نفسه موجهًا لها تهمه التجسس ضد بلاده فرنسا لصالح ألمانيا، وتوضح الملفات أنه فعل هذا من أجل إنقاذ حياة «ماتا هاري» وتبرئة ذمتها. لكن ما فعله جاء متأخرًا.

على أي حال، بحلول شهر فبراير من عام 1917 بدأت «ماتا هاري» تشعر بغضب شديد وبعدم فهم لما يحدث حولها. إن «لادو» لم يقم بخيانتها وإدارة ظهره لها فحسب، بل إنه لم يدفع لها مقابل خدماتها فلسًا واحدًا. كما انقطعت عنها أخبار عشيقها «ماسلوف» الذي لم تعد تسمع عنه شيئًا منذ مدة طويلة وكانت تخشى أن يكون قد تعرض للإصابة مرة أخرى، أو أن يكون قد حدث له ما هو أسواء من الإصابة. لم يعد لديها ما يكفيها من المال، فأخذت تنتقل تدريجيًا إلى الإقامة في فنادق أرخص تكلفة في العاصمة الفرنسية «باريس».

وفي الثاني عشر من شهر فبراير من عام 1917، صدرت مذكرة اعتقال في حق «ماتا هاري» بداعي الاشتباه في كونها جاسوسة ألمانية. وفي اليوم التالي لصدور هذه المذكرة، اعتقلت «ماتا» وخضعت غرفتها في الفندق إلى تفتيش واسع وتم الحجز على كل أغراضها. ومن سوء حظ «ماتا هاري» أن المحقق الذي استجوبها كان «بيار بوشاردون»؛ ذلك الرجل الذي كان يعمل رئيس هيئة التحقيق لدى المجلس الحربي الثالث. كان شخصًا معروفًا عنه أنه عديم الرحمة وغليظ في التعامل مع كل مشتبه فيه. كما اتصف بخشونته وكرهه للنساء؛ خاصة «المتحررات» لأنه كان يعتبرهن عديمات الأخلاق، وهو ما زاد وضع «ماتا» سوءًا.

وبعد التحقيق، أمر «بوشاردون» بوضع «ماتا هاري» في الحبس الانفرادي في أبشع سجون «باريس» وأسوأها سمعة؛ ألا وهو سجن «سان لازار». لقد كانت الجرذان تشارك «ماتا هاري» فراشها في هذا السجن. ولم يُسمح لها حتى بالاستحمام، ومُنعت عنها كل أغراضها، وعلاجها، وإمكانية

حصولها على ملابس نظيفة، أو أي من مالها، أو إرسال رسائل عبر البريد، أو حتى التواصل مع محامٍ، كما لم يُسمح لمحاميها بزيارتها.

بعد ذلك بفترة، تقرر محاكمة «ماتا هاري» أمام محكمة عسكرية فرنسية سرية في شهر يوليو من عام 1917. تضمنت قائمة الاتهامات الطويلة التي وجهت إليها التجسس لصالح ألمانيا، وتحميلها مسئولية مقتل حوالي 50 ألف جندي فرنسي في الحرب.

استمرت المحاكمة لفترة حتى بدأت «ماتا هاري» تفقد الأمل في النجاة، وباتت تدرك أنها أصبحت في موضع الخاسر، وأن وضعها في تلك القضية أصبح خطيرًا للغاية. وبعد ثلاثة أشهر، دخلت «ماتا» في حالة من الاكتئاب الحاد وتوسلت الرحمة من سجانيها عبر مئات الرسائل التي أرسلتها. كما توسلت بشكل هستيري لرؤية محاميها «إدوارد كليني». وتوسلت بشكل خاص لرؤية عشيقها «ماسلوف» الذي حُجبت عنها رسائله التي كان يخبرها فيها بأن تأتي لزيارته في المشفى.

أثناء المحاكمة، اعترفت «ماتا هاري» أنها كانت قد تلقت مبلغًا ماليًا قدمه إليها مستشار ألماني لكنها لم تقم بما طُلب منها القيام به مقابل ذلك المال. كما أضافت أنها اعتبرت ذلك المال تعويضًا عن ممتلكاتها الشخصية التي حُجز عليها على الحدود الألمانية على يد الألمان في وقت سابق.

لم يُصّدق القاضي الفرنسي إدعاءاتها، أو أنها بريئة مما نُسب إليها. ووجه إليها تهمة امتلاكها لحبر سري قد وجد بين أغراضها، لكن «ماتا» أصرت على أنه ليس حبرًا سريًا، وأنه أحد مستحضرات التجميل الخاصة بها تستخدمه أثناء تأديتها لعروضها الراقصة. لكن ذلك الكلام لم يساعدها على الإطلاق

في كسب قضيتها. وفي اليوم التالي للمحاكمة، صدرت تعليمات بعدم السماح لهيئة الدفاع عنها باستجواب أي من الشهود الذين قد يبرؤون اسمها.

كذلك لم يُسمح لها سوى بكتابة رسائل إلى المستشار الهولندي، تلك التي ناشدته فيها بأن يُبرئ ذمتها، حيث كتبت له: «إن كل علاقاتي الدولية هي نتيجة عملي كراقصة لا غير، إنني لم اقترف أي أعمال تجسس في الواقع، كما أن عدم قدرتي على الدفاع عن نفسي بشكل لائق أمر مرعب ورهيب».

وفي نهاية محاكمتها في شهر يوليو من سنة 1917، كان عليها أن تنتظر مدة 3 أشهر كاملة حتى يُنفذ فيها حكم الإعدام رميًا بالرصاص. وبالطبع، باءت كل محاولات تخفيض عقوبة الإعدام إلى السجن المؤبد بالفشل. كما لقيت طلباتها المتواصلة في حصولها على عفو رئاسي رفضًا تامًا. تم تنفيذ حكم الإعدام في «ماتا هاري» في سرية تامة في صباح يوم الخامس عشر من شهر أكتوبر عام 1917.

أدت «ماتا هاري» عرضًا قويًا للثقة في النفس في آخر لحظات حياتها. وربما كان أفضل وأعظم عرض قد أدته على الإطلاق، ذلك وفقًا لرأي شهود العيان على هذا العرض. لقد سارت بفخر وكرامة رافعة رأسها في السماء، ورفضت أن يتم ربطها إلى العمود، ووقفت منتصبة القامة بفخر لا يضاهى. لقد وصفها الضابط برتبة نقيب الذي أشرف على إعدامها متعجبًا، حيث قال: «رباه! إنها امرأة تعرف حتى كيف تموت».

تمت

كما ذكرت لك، عزيزي القارئ، في بداية هذه القصة إن حياة «ماتا هاري» تختلط فيها الحقيقة بالإشاعات بشكل كبير، حتى إنه يصعب علينا

التمييز بينهما. إن كل حادث في حياتها له أكثر من رواية، وكل موقف له أكثر من تفسير. فحتى هذه اللحظة لازال هناك خلافًا عنيفًا بين المؤرخين حول ماهية «ماتا هاري»، وهل كانت حقًا جاسوسة لصالح الألمان، أم إنها كانت تعمل لحساب فرنسا وخانها «جورج لادو»، أم إنها كانت تعمل لحساب الدولتين وتربح الأموال من كلتيهما. إن الشيء الثابت حتى هذه اللحظة أنها لم تتحصل على أي أموال من الجانب الفرنسي. وأنها أمدته بالكثير من المعلومات، ذلك وفقًا للسجلات وللوثائق التي كُشف عنها من قِبل المخابرات الفرنسية والإنجليزية. ولكن في ظل كل هذا هل يمكننا تكوين صورة أقرب إلى الحقيقة عن «ماتا هاري»؟

نعم، يمكننا هذا ولكن اسمح لي في البداية، عزيزي القارئ، أن أوضح لك أنه وفقًا للوثائق الفرنسية والإنجليزية لم يتم تقديم أي دليل لهيئة المحكمة لتأكيد التهم الموجهة لـ «ماتا هاري»، أو حتى إثباتها. لقد كانت كل التهم الموجهة إليها تهمًا واهية، حيث لم تُحدد فيها أية أسرار تكون قد مررتها «ماتا» لعملاء، أو ضباط العدو الألماني. أما عن نمط حياة «ماتا هاري» غير الأخلاقي، بمعايير ذلك الزمن، فقد توفرت الكثير من الأدلة التي دعمت هذه الإدعاءات النمطية بطبعها. إن أحد رجال الشرطة الذي تم تكليفه سرًا بمهمة تتبعها أثناء تنقلاتها في العاصمة «باريس» قد شهد على طريقة إنفاقها المسرفة، بالإضافة إلى التقائها بعشاقها من ذوي السلطة والنفوذ والجنسيات المتعددة. بالرغم من ذلك، لم يتم العثور عند تفتيش أغراضها في الفندق الذي كانت مقيمة فيه على أي أدلة ملموسة قد تدعم إقامة قضية تجسس ضدها.

إذًا، هذا يدفعنا إلى سؤال مهم؛ ألا وهو: «هل كانت محاكمة «ماتا هاري» محاكمة سياسية بسبب التجسس فعلاً، أم إنها كانت محاكمة أخلاقية؟».

لكي نجيب عن هذا السؤال يجب أن نعرف أيضًا أن مرافعة هيئة الدفاع عن «ماتا هاري» لم تكن ذات أي تأثير يُذكر، ذلك على الرغم من كونها أحضرت عددًا من شهود العيان الذين أكدوا أن «ماتا هاري» كانت مجرد امرأة جذابة وشخصية عامة ذات شعبية كبيرة خاصة بين الرجال وأنها لم يكن لها قط أي نشاط ذي علاقة بالتجسس. إن «هنري دو مارجيري» الذي شغل وقتها منصب نائب وزير الشئون الخارجية بالحكومة الفرنسية وأحد أصدقاء «ماتا» قد دافع عنها بشراسة أمام المحكمة وأتهم هيئة الإدعاء بأنها رفعت قضية مغلوطة لا أساس لها من الصحة، حيث قال نصًا: «لم يبدر من هذه السيدة اللطيفة أي أمر قد يعكر صفو ثقتي الكبيرة بها، أو يؤدي بي إلى الاشتباه فيها في أي أمر يذكر».

ومن كل ما قد سبق وأمام كل هذا الكم من الحكايات المتعلقة بـ «ماتا هاري» وهي الحكايات التي تجعل من الصعب التأكد من كونها عميلًا مزدوجًا، أو من إنها جاسوسة لصالح فرنسا، أو جاسوسة لصالح ألمانيا، خاصة وإن الحكاية الواحدة قد تروى لك كل مرة بطريقة مختلفة من الشخص نفسه، هو ما يجعلنا على يقين من أن «ماتا هاري» لم تكن سوى ضحية سياسات جنسية وأخلاقية. لقد حكم المجتمع عليها بسوء الخُلق لأنها قررت التخلي عن

حياتها مع زوجها الذي كان يستعبدها ويسيء معاملتها، ولم تستمر في العيشة معه كما كان شائعًا بين النساء في ذلك الوقت. وبالتالي، أصبحت «ماتا هاري» لهذا السبب فحسب امرأة غير موثوق بها.

ربما أستدل على صحة هذا الاستنتاج من كلام الروائي الكبير «باولو كويلو» الذي كتب واحدًا من أهم الكتب عن حياة «ماتا هاري»؛ حيث قال «كويلو» عنها: «كانت «ماتا هاري» واحدةً من أوائل النسويات اللواتي عرفتهن البشرية، فقد تحدت توقعات الذكور آنذاك، واختارت بدل الحياة التقليدية المضطهدة التي كانت النساء تعيشها، حياة مستقلة حرة، ولكنها دفعت ثمن ذلك حياتها».

وما يزيد من صحة هذا الاستنتاج ما تضمنته الوثائق المنشورة على موقع الاستخبارات المركزية الأمريكية حول قضية «ماتا هاري»، تلك التي أظهرت براءة «ماتا» من التهم التي وجهتها إليها الحكومة الفرنسية، كما أظهرت أن الحكومة الفرنسية هي من خانت «ماتا هاري» وأدارت لها ظهرها في شكل من الجحود والنكران غير المسبوقين. إن فرنسا كانت البلد الوحيد الذي تجسست لصالحه «ماتا» لمرة واحدة فقط في حياتها.

على أي حال، لقد أكدت في بداية كلامي عن قصة حياة «ماتا هاري» أنه يصعب علينا الوصول إلى جانب الحقيقة فيها. لكن ربما ستكشف الأيام، أو السنوات المقبلة عن الجديد في حياة تلك المرأة التي كانت بلا شك ضحية. ولكن ضحية منّ؟ هذا ما هو المجهول بالنسبة لنا الآن. فقد تكون ضحية للحكومة الفرنسية، أو ضحية للحكومة الألمانية، أو حتى ضحية لـ «جورج

لادو»، الذي من الممكن أن يكون شأنه شأن الكثير من الرجال في ذلك الوقت كان ينظر لها باحتقار ويريد أن يلقي بها في السجن لا لشيء سوى لأنها امرأة متحررة قررت أن تتمرد على ذكورية المجتمع. وربما أيضًا كانت ضحية للحب، أو لسوء الأوضاع الاقتصادية.

والآن، دعونا نذهب إلى مغامرة جديدة ورحلة جديدة.

حكمت فهمي

سلطانة الغرام التي عشقت مصر



«أصبحت شهرة «حكمت فهمي» واسعة في مصر والعالم حتى إنها رقصت في أشهر الملاهي العالمية، ورقصت أمام «هتلر» ووزير دعايته السياسية «جوبلز»، وكانت همزه الوصل بين «السادات» والجواسيس الألمان».

من كتاب «السير فوق خيوط العنكبوت» للكاتب «صالح مرسي»

في البداية وقبل أي شيء إن كنت قد شاهدت هذا الفيلم السينمائي، والذي يحمل اسم بطلة هذه القصة «حكمت فهمي» وقامت ببطولته الفنانة «نادية الجندي» في عام 1994، عليك أن تنسى كل ما شاهدته لأن هذا الفيلم ببساطة قد سطح من قصة شخصية سيدة عظيمة ضحت بروحها من أجل حرية بلادها، وكانت دائمة المجاهرة بكرهها للإنجليز وبرغبتها في خروجهم من مصر، لكن مع الأسف الفيلم الوحيد الذي أنتج عن قصتها لم يهتم بهذا الجانب من حياتها قدر اهتمامه بوضع رقصات من الرقص الشرقي والأغاني لتؤديها الفنانة «نادية الجندي». باختصار شديد، فقد فُصلت قصة البطلة «حكمت فهمي» لتصبح على مقاس الفنانة التي عرفت في ذلك الوقت بـ «نجمة الجماهير»، والتي كان لا بد أن تتضمن أفلامها عددًا من الرقصات الاستعراضية. لذلك، إذا كنت قد شاهدت هذا الفيلم، فأرجوك اِنْسَ كل ما شاهدته، ودعنا نتحدث عن البطلة بشكل حقيقي وواقعي.

ولدت «حكمت فهمي» في 24 نوفمبر من عام 1907 بمحافظة «دمياط»، وعملت كممثلة في فرقة «علي الكسار»، ثم كراقصة في فرقة «بديعة مصابني»، ولُقبت بـ «سلطانة الغرام». كان معروفًا عنها علاقتها القوية بضباط القوات البريطانية من خلال ترددهم على الملهى الذي كانت

ترقص فيه، لكن لظروف الحرب سافرت إلى أوروبا. ومع الأسف الشديد، لا يوجد الكثير من المعلومات عن طفولة «حكمت فهمي» أو شبابها، أو حتى حياتها قبل احترافها الرقص.

دفعت علاقة «حكمت فهمي» بضباط بريطانيا الألمان للتفكير في تجنيدها لصالحهم. وبالفعل، نجحت ألمانيا في ذلك دون أن تعلم «حكمت فهمي» بأمر بتجنيدها من خلال جاسوس ألماني أوقعها في شباك غرامه. ففي إحدى الليالي، التي كانت ترقص فيها «حكمت فهمي» في ملهى بالنمسا، شاهدها رئيس المخابرات الألمانية، فرشحها لترقص للزعيم النازي «أدولف هتلر»، ووزير دعايته السياسية «جوزيف جوبلز» في ألمانيا. عندما شاهدها «جوبلز»، وعلم مدى عمق علاقتها مع الضباط الإنجليز في مصر، أمر بتجنيدها لصالح الألمان.

جاء تجنيد «حكمت فهمي» عن طريق شاب قدّم نفسه لها في الملهى، الذي ترقص فيه في النمسا، على أنه طالب مصري الجنسية اسمه «حسين جعفر»، وتمكن بعد ليلة وأخرى من التقرب منها، بل وأوقعها في حبه، ثم اختفى فجأة من حياتها. وبالطبع، كان «حسين جعفر» ما هو إلا ضابط ألماني الجنسية يدعى «جون أبلر»، وهو من أب وأم ألمانيين انفصل كلاهما عن الآخر، وكانت الأم تعمل بمحافظة «بورسعيد»، والتقت بمحامٍ مصري تزوجها وتبنى الطفل، وأطلق عليه اسم «حسين جعفر»، وعندما سافر إلى ألمانيا، التقطته المخابرات الألمانية، وتم تجنيده لإتقانه اللغة العربية.

أول المهام، التي أوكلت لـ «حسين جعفر»، كانت نسج علاقة غرامية مع الراقصة «حكمت فهمي» تمهيدًا لتجنيدها، حتى يتمكن من خلالها الحصول على خطة بريطانيا من حيث تمركز قواتها الدفاعية، وعدد القوات البريطانية ونوعها، ومدى تعاون الجيش المصري معهم إذا بدأت المعركة.

وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية، عادت «حكمت فهمي» إلى مصر لترقص في ملهى «الكونتيننتال»، دون أن تعلم أنها وقعت في فخ الجاسوسية لصالح ألمانيا، وسرعان ما انتقلت «حكمت فهمي» للعمل في ملهى «الكيت كات». وفي تلك الأثناء، عاد «أبلر» للاتصال بها مرة أخرى، بعد أن تمكن هو وزميله «مونكاستر» من دخول مصر عن طريق الصحراء الغربية متنكرين في زي عسكري بريطاني. وعلى مشارف محافظة «أسيوط»، استبدل هو وزميله ملابسهما، واستكملا رحلتهما إلى «القاهرة» لتنفيذ المهمة الموكلة إليهما.

وعندما وصل كلاهما إلى «القاهرة»، استقرا في فندق «شبرد» ليبدأ أول اتصال بينهما وبين المخابرات الألمانية من داخل مصر، وليعلنا عن الاستعداد لبدء العملية. كان أول عمل لـ «حسين جعفر» في «القاهرة» هو سرعة الاتصال بـ «حكمت فهمي». لذلك، توجه في اليوم نفسه إلى ملهى «الكيت كات» حيث كانت تعمل هناك، وبعد حديث مطول بينهما وبعد أن تأكد تمامًا من كراهية «حكمت فهمي» للإنجليز كشف لها شخصيته الحقيقة، وأوضح لها المهمة الموكلة له من قبل القائد «رومل»، فوافقت على الفور ورحبت بالتعاون معهم، حتى إنها استأجرت له عوامة قريبة من عوامتها.

ويبدو أن الظروف كانت تخدم «حسين جعفر» في بداية عمله بمدينة «القاهرة». ففي أحد الأيام وبينما صعد إلى سطح العوامة لتركيب إريال اللاسلكي، لاحظ وجود جندي بريطاني على سطح العوامة المجاورة له، فباغته «جعفر» بطلب المساعدة حتى لا يشك فيه، وسرعان ما عرف منه أن تلك العوامة خاصة بأحد قادة الجيش البريطاني في «القاهرة». وخلال أيام قليلة، نجح «جعفر» في توثيق علاقته بهذا القائد البريطاني بعد أن تعرف عليه، ونمت بينهما صداقة قوية دون أن يشك هذا الضابط الإنجليزي في أن «حسين جعفر» هذا الطالب المصري هو نفسه «أبلر» الجاسوس الألماني.

وبالفعل، نجحت «حكمت فهمي» في أن تمد الألمان بالكثير من المعلومات المهمة حتى إن وثائق الاستخبارات الألمانية في ذلك الوقت وصفتها بأنها كانت العميل الأول في نقل الأخبار، فقد مكنتها علاقاتها الطيبة مع الضباط البريطانيين من الحصول على معلومات خطيرة للغاية. فالراقصة المحبوبة جدًا كانت تكره البريطانيين وكانت على استعداد للقيام بأي عمل ضد العدو- عدو وطنها- ولم يتوقف «حسين جعفر» عن استغلال هذا الشعور لديها. وقد أخبرته «حكمت» عن انتقال عناصر من الجيش البريطاني من سوريا وفلسطين إلى مصر، كما أخبرت الجاسوسين الألمانيين عن وصول مائة ألف لغم إلى جبهة «العلمين»؛ ذلك عندما قررت بريطانيا إقامة خطها الدفاعي المحصن في هذه المنطقة بالرغم من عدم وضوح الموقف في ذلك الوقت.

كما عرف «حسين جعفر» من «حكمت فهمي» معلومات عن انتقال الفرقة النيوزيلندية الثانية إلى محافظة «مرسى مطروح»، وذلك قبل أن تتحرك الفرقة بزمن طويل. وربما كان من أهم الأعمال التي قامت بها «حكمت

فهمي» هي اصطحاب «حسين جعفر» إلى عوامتها حيث كان هناك رائد إنجليزي، يُدعى «سميث». وحينما ذهب «جعفر»، وجد «سميث» هذا يغط في نومٍ عميقٍ وبجواره حقيبة البريد الرسمي، الذي كان مكلفًا بإيصاله إلى القيادات الإنجليزية. كانت «حكمت» هي من وضعت منومًا شديد المفعول في كأس الخمر الخاص بالرائد الإنجليزي، وبالفعل تمكن «جعفر» من فتح الحقيبة، وكان بداخلها رسالة طويلة تعلوها عبارة «سري للغاية». كانت الرسالة تذكر تفاصيل التعزيزات التي سيتسلمها الجنرال «ريتشي» لتقوية خط دفاعه تأهبًا للمعركة الكبرى التي سيخوضها ضد «رومل»، كما كانت الرسالة تذكر أيضًا اسم ومكونات لواء مدرع سيرسل إلى الجبهة، وأضافت الرسالة أن خط الدفاع البريطاني سيكون في مدينة «العلمين». تعتبر هذه المعلومات التي مكنت «حكمت فهمي» «حسين جعفر» من الاطلاع عليها من أهم المعلومات التي حصل عليها «رومل» خلال تلك المرحلة.

الجدير بالذكر أنه في تلك الأثناء كان «حسين جعفر» قد نجح في التواصل مع عدد من المصريين الثائرين ضد الإنجليز والراغبين في خروج الاحتلال البريطاني من مصر، وكان على رأسهم «محمد أنور السادات» والذي كان في ذلك الوقت لايزال ضابطًا في الجيش المصري، ومعه «عبد اللطيف البغدادي» - والذي كان ضابطًا في سلاح الطيران- و«حسين عزت» وآخرون. وبعد فترة قليلة تعطل جهاز اللاسلكي الخاص بـ «حسين جعفر»، فاضطر لنقله إلى عوامة «حكمت فهمي» حتى يجد من يصلحه. وبالفعل، وافق «أنور السادات»، والذي كان يعمل بسلاح الإشارة، على إصلاحه، وكان هذا هو اللقاء الأول بين «حكمت فهمي» و«أنور السادات».

وعن ذلك اللقاء تحكي «حكمت فهمي» في مذكراتها قائلة: «عندما دخل «السادات» العوامة، سأل عن جهاز اللاسلكي، فضحك «أبلر» وقال له: «ستحصل عليه إذا عثرت عليه بنفسك. ثم بدأ «السادات» في البحث عنه، وأخذ يطوف في حجرات العوامة التي لم يجد بها سوى وسائل الراحة والرفاهية وصناديق الويسكي وكؤوس الشراب. وبعد أن شعر بالفشل، أخبره «أبلر» عن المكان المخبأ فيه اللاسلكي حيث كان بداخل جهاز (بيك أب) الموسيقي، وكان مخبئًا بطريقة لا يمكن لأحد اكتشافها. وبالفعل، فحص «أنور السادات» الجهاز، فاكتشف أنه معطل بالفعل، ووقتها قدم له «أبلر» جهازًا آخر أمريكي الصنع، وأخبره أن هذا الجهاز قوي ويعمل بكفاءة، لكنه لا يعرف كيفية تشغيله. اكتشف «السادات» وقتها أن الجهاز ليس له مفاتيح، فاقترح على «أبلر» إجراء تعديلات عليه ليجعله يعمل بمفاتيح مصرية الصنع يقوم هو بنفسه بتركيبها، فوافق «أبلر» على اقتراح «السادات» الذي حمل الجهاز في حقيبته، وتوجه به إلى بيته في «كوبري القبة»».

لكن ما هي إلا أيام قليلة حتى انكشف أمر «أبلر» أو «حسين جعفر» بسبب علاقة له مع فتاة مصرية يهودية تُدعى «إيفيت» كانت تعمل جاسوسة لصالح الوكالة اليهودية في مصر، وعن تلك الواقعة يقول «السادات» في مذكراته: «كان «أبلر» يعرف مصر من قبل، كما يعرفها كل أبنائها، فقد كانت أمه الألمانية تزوجت في ألمانيا من «صالح بك جعفر» المستشار. ثم حضرت معه إلى مصر، وفي يدها ولدها من زوجها الأول (الألماني) وكان ولدها هو «هانز أبلر»، وأراد الزوج المصري أن يوفر لابن زوجته حياة مطمئنة في مصر، فيسر له سبل التعليم والنجاح وأعطاه اسمًا مصريًا ولقب أسرته، وأصبح

«هانز أبلر» يُعرف في مصر باسم «حسين جعفر»، لكنه لم يكن ذلك الولد الصالح الذي ارتجاه زوج أمه، فقد فشل المستشار في إقناعه بالعدول عن حياة الليل بين المراقص والحانات، ولما أيقن بأنه لا سبيل لإصلاحه في مصر طرده من حياته. وككثير من العاملين في مجال الجاسوسية جاء السقوط على يد امرأة. فقد كان «أبلر» على علاقة براقصة فرنسية يهودية تُدعى «إيفيت»، وكانت في الحقيقة جاسوسة تعمل بدورها لصالح الوكالة اليهودية في مصر، وبينما كانت تقضي الليلة في عوامته، سمعته وهو يتحدث بالألمانية مع زميله عن المعلومات التي لديهم، وجهاز الإرسال الذي يخصهم، حيث كانت القيادة الألمانية قد حذرتهم من استخدام جهاز الإرسال في هذا التوقيت، وكانوا هم يتناقشون حول أهمية إرسال المعلومات التي تحصلت عليها «حكمت فهمي»، وسرعان ما أبلغت «إيفيت» قادتها والذين أبلغوا بدورهم المخابرات البريطانية لتسقط شبكة التجسس بأكملها».

وبالطبع، بعد ضبط «حسين جعفر»، قُبض على كل من تعاون معه ومن بينهم «السادات»، وتم إيداع الجميع في سجن الأجانب. لم ينجُ من السجن غير «السادات»، لكنه نجا منه بخسائر فادحة؛ إذ فقد وظيفته العسكرية وجُرد من رتبته. أما باقي الجواسيس، فلقد تم مساومتهم بين الإعدام أو الإفصاح عن الشفرة الخاصة، فما كان منهم إلا أن أفصحوا عن الشفرة والتي تمكن البريطانيون من خلالها خداع «رومل» مما تسبب في هزيمته.

على أي حال بعد أيام قليلة من القبض على «حسين جعفر»، وجدت «حكمت فهمي» نفسها مقبوضًا عليها أمام محقق بريطاني، وتم إلقائها في السجن. وأثناء التحقيقات، أنكرت «حكمت فهمي» معرفتها بـ «حسين جعفر»، لكنها سرعان

ما اكتشفت أن المحققين كانوا يعرفون كل شيء، حتى قصة جهاز اللاسلكي الذي استلمه «السادات» من داخل عوامتها وسرقة حقيبة الرسائل، فأصابتها الصدمة، لكنها ظلت تنكر.

بعد ذلك، قامت «حكمت فهمي» بعمل إضراب عن الطعام، وكان ذلك في سبتمبر من عام 1942. وبعدما تدهورت حالتها، نُقلت إلى مستشفى «الدمرداش» لتلقي العلاج. وأثناء وجودها في المستشفى للعلاج، حاول أشخاص من طرف «مكرم عبيد»، والذي كان على صراع في ذلك الوقت مع «مصطفى النحاس»، إقحامها في هذا الصراع بالحصول منها على معلومات ووقائع تثبت علاقة «النحاس» القوية بالإنجليز، لكنها رفضت أن تقحم نفسها في هذه الحرب، التي لا معنى لها عندها، حتى لو كان الثمن هو إخراجها من السجن. بعد ذلك، نُقلت «حكمت فهمي» إلى معتقل النساء بمدينة «المنصورة»، حيث قضت هناك ما يقرب من العامين حتى خرجت بعدها بكفالة قدرها 200 جنيه، لكنها حينما خرجت من السجن؛ خرجت محطمة بائسة حيث فقدت كل شيء.

عاشت «حكمت فهمي» سنوات من الضياع بعد خروجها من سجن الإنجليز، الذي قضت فيه عامين لاتهامها بالجاسوسية لصالح الألمان ضد الإنجليز، تتخبط بين الطرقات وتدمن الخمر وتجلس على مقاعد البارات تبحث عمن تفتنه بجمالها، بعد فشل فيلمها الأخير «المتشردة»، وإخبار أصحاب الملاهي لها بأنها لم تعد مرغوبة. فقد ماتت أسطورة الراقصة، التي خطفت الأبصار ورقصت أمام قادة العالم، منهم «هتلر» و«تشرشل» و«روزفلت»، ولم يعد لها مفر من مواجهة الفقر، ولا مهرب لها من الموت

إلا بالاحتماء داخل الكنيسة، التي ظلت تخدم فيها سنوات، دون أن يعلم حقيقتها أحد إلا طالبًا في كلية الهندسة تربطه بها صلة قرابة. فقد ظل هذا الطالب يتردد عليها ليزودها بالطعام والدواء، حتى ماتت وحيدة.

لم تترك «حكمت فهمي» له إرثًا إلا بضع صور التقطها لها المصور الصحفي «أحمد عبد العزيز»، الذي طلبت منه ألا ينشرها إلا بإذنها مع مذكراتها التي بدأت تكتبها. لكن بعد أن خطفها الموت، أصبحت تلك الصور من نصيب قريبها الشاب الذي احتفظ بها في منزله لأعوام، فلا أحد يهتم بها ولا صحف تكتب عنها حتى وفاتها. وتوفيت «حكمت فهمي» في 28 يونيو عام 1974 عن عمر يناهز 66 عامًا.

تمت

«حكمت فهمي» هي بالفعل واحدة من أكثر الشخصيات التي ظُلمت تاريخيًا. فالثابت تاريخيًا أنها قامت بفعل الكثير من الأمور المهمة لصالح مصر، كما إنها كانت تتعاون بشكل مباشر مع عدد من حركات الفدائيين والتي كانت تتربص بجنود الاحتلال الإنجليزي، وعرف عنها -كما ذكرت من قبل - أنها كانت تكره الإنجليز بشدة.

لكن مع الأسف لم يتم تناول قصة حياتها بشكل يليق بها حتى الآن، باستثناء ذلك المسلسل الإذاعي الذي تم إذاعته في ستينيات القرن الماضي عن قصة حياتها. فلا يوجد أي عمل فني حقيقي يُجسد تلك الشخصية البطولية. وقد توقفت عند هذا الأمر كثيرًا، لدينا العديد من الأسماء التي قامت بالعديد من البطولات المهمة، وكان لها أدوار في الحياة السياسية. وحتى ولو كانت هذه الأدوار بسيطة، فقد كلفت هذه الأسماء الكثير.

وفي اعتقادي الشخصي أن تقديم تلك الشخصيات للعامة في صورة كتب، أو قصص، أو حتى أفلام، أو مسلسلات سيساهم بشكل كبير في رفع الوعي القومي لدى أبنائنا بالتعرف على نماذج مشرفة خدمت وطنها دون أي تردد، ولم تندم على ما فعلته حتى لو كلفها ذلك كل ما تملك.

وربما كان أهم ما استوقفني في قصة حياة «حكمت فهمي» هو أن الرئيس الراحل «محمد أنور السادات» لم يتوقف عن ذكرها في أي كتاب قام بتأليفه، وكثيرًا ما ذكر دورها البطولي وأشاد به، وربما يكون هذا هو عزائنا الوحيد. إن رئيس مصر الأسبق قام بتخليد بطولة تلك المرأة المصرية الشجاعة في الكثير من كتبه.

لكن مع الأسف الشديد لازلنا حتى الآن نجهل الكثير عن حياة «حكمت فهمي» بعد خروجها من السجن. إن كل ما نعرفه أنها عاشت حياة الفقر والتشرد لفترة قبل أن تلتحق للعمل كخادمة وراهبة بالكنيسة لتفني عمرها هناك. كنت أتمنى أن أجد الكثير من المعلومات عن حياتها أو عن أبنائها الذين أنجبتهم من المخرج «محمد عبد الجواد»، لكني لم أجد شيئًا. وكان الوضع نفسه، وأنا أبحث عن معلومات تتعلق بتلك المرأة البطلة. لقد كان الأمر بمثابة البحث عن إبرة الخياط في كومة من القش. فلا توجد أية معلومات عنها باستثناء تلك المعلومات البسيطة المتناثرة على مواقع الإنترنت وفي بعض الكتب.

لهذا، أتمنى أن تؤتي تلك المحاولة التي قمت بها هنا لتوثيق بطولة «حكمت فهمي» بثمارها، ولو أني أرى أنها لاتزال محاولة على استحياء حتى

ولو كلفتني قراءة عشرات الكتب من أجل الحصول على سطور قليلة من المعلومات. لكن ما نخرج به من حياة «حكمت فهمي» هو أن الشعب المصري دومًا سيظل الدرع الحقيقي لهذا الوطن. فمهما كان موقعك ومهما كانت طبيعة عملك أو تعليمك، ومهما كانت شخصيتك، فإن جميع المصريين لا يترددون حينما يشعرون أن الوطن بحاجه إليهم. قد لا تختلف قصة حياة «حكمت فهمي» كثيرًا في بدايتها عن قصة حياة البطل «رفعت الجمال»، المعروف لدينا باسم «رأفت الهجان»؛ فكلاهما كان يعمل بالفن في بدايته، وكلاهما كان يعيش حياة صاخبة مترفة، لكن كلاهما لم يتردد لحظة حينما شعر أن مصر بحاجة إليه. بالطبع هناك بعض الاختلافات بين الشخصيتين. كانت «حكمت فهمي» في قمة شهرتها ومجدها، ثم فقدت كل هذا من أجل الوطن، بينما كان «رفعت الجمال» في قمة الفقر والبؤس، لكنه بالرغم من الإحباط واليأس لم يتردد في أن يجد ذاته ويضحي بنفسه في سبيل الوطن.

على أي حال، أتمنى أن نرى في الفترة المقبلة أي عمل فني يجسد شخصية تلك البطلة وحياتها، خاصةً حياتها بعد خروجها من السجن وابتعادها عن الشهرة والأضواء وابتعاد الجميع عنها حتى فقدت تمامًا من ذاكرة هذا الوطن.

والآن لننتقل إلى فصل جديد ورحلة جديدة، لكن في هذه المرة سنبتعد قليلاً عن عالم السياسة والحروب، لننتقل إلى عالم الفن.

فريدا كاهلو

الإنسانة التي حولت الألم إلى إبداع



«أتوق لأن يكون الموت بوابة خروج لحياة جميلة، حتى لا أعود مجددًا»

«فريدا كاهلو»

«كل إنسان يستطيع السيطرة على الحزن إلا الحزين». هكذا تحدث الأديب العالمي «ويليام شكسبير» عن الحزن، وربما تكون تلك الكلمات هي أفضل ما نبدأ به حكايتنا عن الرسامة المكسيكية العالمية «فريدا كاهلو»، والتي لولا لوحاتها المتميزة، لما استطاعت أن تعبر عن أحزانها وعن الألم الذي عاشته على مدار حياتها. في الواقع، لم تكن «فريدا كاهلو» مجرد رسامة مبدعة نالت شهرة عالمية، لكنها أيضًا كانت سياسية بارزة وناشطة شيوعية حتى إنها كانت على علاقة صداقة قوية مع الزعيم الشيوعي «تروتسكي»، الذي فر إلى المكسيك هربًا من بطش الطاغية «جوزيف ستالين»، الذي راح يتخلص من كل منافسيه بالقتل حتى ينفرد بالسلطة.

ولدت «فريدا كاهلو» في إحدى ضواحي مدينة «كويوكوان» المكسيكية في 6 يوليو من عام 1907، وهي أيضًا المدينة نفسها التي توفيت فيها «فريدا» في عام 1954 عن عمر يناهز 47 عامًا. كان والدها مصورًا ألمانيًّا يهوديًّا هاجر إلى المكسيك، بينما كانت أمها مكسيكية الأصل، وكان لـ «فريدا» أختان أكبر منها، اسمهما «ماتيلدا» و«أدريانا»، وأختًا أصغر منها اسمها «كريستينا»، التي كانت تصغرها بعامٍ واحد، وكانت أقرب أخواتها إلى قلبها.

في السادسة تقريبًا من عمرها، أصيبت «فريدا» بشلل الأطفال الذي تسبب في جعلها طريحة الفراش لمدة 9 أشهر. ولم تشف «فريدا» منه بالكامل حيث تسبب في إعاقة في رجلها اليمنى نتج عنه عرج في مشيها. وكان هذا الأمر شديد التأثير على نفسها، حيث كانت ترتدي دائمًا التنورات الطويلة

كي تخفي هذه الإعاقة. ومع ذلك شجعها والدها على ممارسة أنواع مختلفة من الرياضيات، مثل السباحة وكرة القدم والمصارعة، لمساعدتها على الشفاء وتحدي هذه الإعاقة، وأثبتت نفسها واتصفت بشجاعتها عندما مارست هذه الرياضات. وخلال فترة التسعة أشهر تلك وحينما كانت «فريدا» في سن السادسة من عمرها تعرفت على موهبة الرسم لديها. لقد كانت تقضي وقتها في ممارسة الرسم لكي تجد ما تفعله. لم يكن مسموحًا لها بالحركة نهائيًا خلال تلك الفترة، وهو الأمر الذي كان صعبًا على نفسية طفلة في سن السادسة من عمرها. فبينما كانت حبيسة الفراش، كانت تشاهد أقرانها من الأطفال يلعبون ويمارسون حياتهم وطفولتهم بشكل طبيعي.

في عام 1922 وبينما كانت «فريدا» في السادسة عشر من عمرها، التحقت بـ«المدرسة الوطنية الإعدادية»، وكانت إحدى الطالبات القلائل في المدرسة. واشتهرت بروحها المرحة وبحبها للملابس التقليدية والملونة والمجوهرات. وفي العام نفسه، انضم الرسام الجداري الشهير «دييجو ريفيرا» للعمل على مشروع في هذه المدرسة. كانت «فريدا» تتابعه دائمًا، وهو يرسم لوحة اسمها «الخلق» على أحد جدران المدرسة، تلك المدرسة التي تشغل ما يقرب من ألف قدم مربع، وكانت أول جدارياته بتكليف من الحكومة. عندئذٍ، أعجب بها «دييجو» وتزوجا بعد ذلك.

في تلك المرحلة أيضًا، بدأ اهتمام «فريدا» بالسياسية؛ فلقد كانت أثناء الدراسة تمضي أغلب وقتها مع مجموعة من الطلاب ذوي التفكير السياسي والذين كانوا يشبهونها أيضًا في الفكر الاجتماعي والثقافي، فتعرف جميعهم على الأفكار الشيوعية التي بدأت تنتشر في العالم في ذلك الوقت. بعد ذلك

بثلاثة أعوام، كانت «فريدا» على موعد مع كارثة جديدة ستسبب لها المزيد من الألم النفسي والاكتئاب. ففي سبتمبر من عام 1925 وبينما كانت على متن حافلة مع أصدقائها، اصطدمت الحافلة بالترام، ونتج عن ذلك دخول سيخ حديدي في فخذها وخروجه من الجهة الأخرى، بالإضافة إلى كسور في العمود الفقري والحوض، مما أدى إلى بقائها في المستشفى في مدينة «مكسيكو سيتي» لأسابيع قبل أن تعود إلى المنزل لتبقى طريحة الفراش مرة أخرى لمدة عام كامل. الجدير بالذكر أن هذا الحادث أدى إلى قيام «فريدا» بثلاثين عملية جراحية على مدار ما تبقى من حياتها.

عاشت «فريدا» في تلك الفترة أيامًا صعبة وتدهورت حالتها النفسية بشدة، مما دفع أمها للمحاولة بشتى الطرق أن تخفف عنها ألمها النفسي قبل الجسدي، فوفرت لها سريرًا متحركًا ومرآةً ضخمة في سقف غرفتها. كانت «فريدا» ترى وجهها طوال الوقت، فبدأت في استخدام ريشة الرسم والألوان، وشرعت يوميًا في رسم صورتها. أصبحت «فريدا» شغوفة بالرسم رغم عدم دراسته أكاديميًا لهذا الفن وبالحصول على بعض الدروس الخصوصية. وهو ما يجعلنا نقول بأن الفن قد نبع من تجربتها الخاصة مع المعاناة، وكان الرسم المتنفس الوحيد لآلامها وعذابها وطريقة تنقل بها الألم للواقع وتجعله محسوسًا.

تعرفت «فريدا» على «دييجو ريفييرا» في عام 1928، وتزوجا في عام 1929. ورغم أنه كان يكبرها بعشرين عامًا، فقد أحبها وشجعها على عملها الفني كثيرًا. كان «دييجو» كثير التنقل، ففي عام 1930 عاش هو و «فريدا» في «سان فرانسيسكو» بولاية «كاليفورنيا» الأمريكية. وهناك عرض «دييجو»

لوحتها لهما معًا في المعرض السنوي السادس لجمعية «سان فرانسيسكو للنساء الفنانات»، ثم انتقلا إلى مدينة «نيويورك» لحضور معرض «دييجو» في متحف «الفن الحديث» ثم انتقلا إلى مدينة «ديترويت» لارتباط «دييجو» بعمل مع معهد «ديترويت للفنون».

عاد الزوجان إلى المكسيك عام 1933، وعاشا في مدينة «سان أنجل». لكن لم تكن حياتهما مستقرة، حيث كانا شبه منفصلين ولكنهما يعيشان معًا. فقد كانت «فريدا» حزينة بسبب خياناته المتعددة، لدرجة أنه خانها مرة مع أختها الصغرى «كريستينا». يُذكر أن «فريدا» قد حملت في ذلك الوقت، لكنها تعرضت للإجهاض؛ وهو الأمر الذي أصابها بحزنٍ شديدٍ. لقد كانت ترغب بشدة في الإنجاب وفي أن تصبح أمًا. وحينما حملت «فريدا» مرة أخرى في عام 1934، فقدت مرة أخرى جنينها مما أصابها بحالة من الاكتئاب الشديد، لتضاف مأساة الإجهاض إلى رحلة الألم في حياتها.

وفي عام 1939، انتقلت «فريدا» للعيش في مدينة «باريس» لفترة، وعرضت هناك بعض لوحاتها وصادقت العديد من الرسامين، ومن ضمنهم الرسام الشهير «بابلو بيكاسو». وفي ذلك الوقت، قام متحف «اللوفر» بشراء إحدى لوحات «فريدا» لتكون بذلك أول فنانة مكسيكية في القرن العشرين تنضم لوحاتها إلى لوحات العظماء في متحف «اللوفر» الفرنسي.

لكن يبدو أن الحزن يلاحق «فريدا» دائمًا. ففي العام نفسه لم تتمكن «فريدا» من تحمل استمرار الحياة مع زوجها بسبب تكرر خيانته لها، فوقع الطلاق بينهما. لكن هذا الطلاق لم يطل كثيرًا، حيث عادا لبعضهما في العام التالي ليعيشا حالة من الانفصال الجسدي على الرغم من كونهما زوجين.

لم تتمكن «فريدا» من الحصول على الحياة الهادئة التي كانت تنشدها. لقد أصبح شجارها مع زوجها عادةً يوميةً بسبب خيانته المتكررة لها وإصراره على إقامة الكثير من العلاقات العابرة من النساء. وكثيرًا ما وصفته «فريدا» بأنه شخص غريب الأطوار.

في تلك المرحلة الزمنية من حياة «فريدا» وتحديدًا بداية من عام 1937، كانت «فريدا» على موعد مع صداقة ستؤثر كثيرًا في شخصيتها، حيث تعرفت على «ليون تروتسكي» المناضل الشيوعي الذي فر إلى مدينة «مكسيكو سيتي» ـ كما ذكرت من قبل ـ هربًا من بطش الطاغية «ستالين»، وظل يقيم في منزل «فريدا» وزوجها حتى اغتيل في عام 1940. لقد أعجبت «فريدا» كثيرًا بأفكار «تروتسكي» وبآرائه حتى إنها دافعت عنه باستماتة رغم انتمائه إلى الحزب الشيوعي المكسيكي الذي كان تابعًا بدوره للحزب الشيوعي في روسيا. وبالطبع، كان «تروتسكي» في نظر زوجها عدوًّا لأنه عدو لـ«ستالين» زعيم الاتحاد السوفيتي.

لكن إقامة «تروتسكي» في منزلهما جعل من هذا المنزل قبلةً لمثقفي العالم الذين انخرطوا في موجات من النضال من أجل التغيير ومواجهة الرأسمالية. الجدير بالذكر هنا أن كثيرًا من المصادر التاريخية تشير إلى ارتباط «فريدا كاهلو» و«تروتسكي» بعلاقة غرامية. لم تكن علاقتها به مجرد صداقة؛ بل تعدت حدود الصداقة وبات الحب هو ما يربط بينهما، حيث كان «تروتسكي» دائم الدعم لها. لكن يرى البعض أن تلك العلاقة القصيرة كان السبب فيها رغبة «فريدا» في الانتقام من زوجها بسبب خيانته لها مع أختها الصغرى.

على أي حال في أواخر عام 1939، حدث خلاف سياسي كبير بين «دييجو ريفيرا» و«تروتسكي» مما دفع الأخير إلى الرحيل عن منزل «ريفيرا» و«فريدا» والسكن في مكان آخر. في تلك الأثناء، كان الطاغية السوفيتي «ستالين» لايزال يلاحق «تروتسكي» ويدبر له العديد من محاولات الاغتيال للتخلص منه نهائيًا. وبالفعل، تعرض «تروتسكي» لمحاولة اغتيال فاشلة في مايو من عام 1940 على يد فنان مكسيكي معروف يُدعى «سيكيروس» بعد عامين فقط من خطف ابن «تروتسكي» من مشفى في «باريس»، حيث كان يعالج هناك وتم قتله باسم الثورة. بعد محاولة الاغتيال الفاشلة تلك بأيام، اندفع ما يقرب من 20 رجلاً إلى منزل «تروتسكي»، وفجروه بالديناميت ولكن لحسن حظه لم يكن «تروتسكي» هناك.

وفي النهاية، تم اغتيال «تروتسكي» على يد شاب يُدعي «جاكسون» كان قد تعرف على «تروتسكي» عن طريق إحدى صديقاته، وعرفه بنفسه على أنه من هواة تسلق الجبال. لقد نجح هذا الشاب في قتل «تروتسكي» في 20 أغسطس عام 1940 بعد أن تسلل إلى داخل منزله. وهي الواقعة التي اتهمت فيها «فريدا كاهلو» وزوجها في البداية حيث تم القبض عليهما بالإضافة إلى شقيقتها وإيداعهم السجن لحين انتهاء التحقيقات. لقد تم الاشتباه فيهم بسبب قرب «تروتسكي» منهم وبسبب الخلاف السياسي الذي نشب بين زوج «فريدا» وبين «تروتسكي». كما أن منزل «تروتسكي» الجديد كان مكانًا محاطًا بالسرية ولا يعرفه إلا عدد قليل من المقربين منه. لكن بعد فترة قليلة تم تبرئتهم وخروجهم من السجن.

على أي حال، بعد تلك الواقعة زادت حياة «فريدا كاهلو» سوءًا. فلم تعد تطيق العيش مع زوجها، وحاولت كثيرًا تحمل خيانته لها وحياته المنفلتة. انهمكت «فريدا» في عملها بمجال الرسم أكثر لتأكد أسلوبها الفني. وبفضل هذا الانهماك الفني وحده وغزارة الإنتاج تركت تاريخًا فنيًا لا يمحى. ويُفسر غرام «فريدا» بالرسم باستمرار على أنه نوع من الرغبة في أن تحظى «فريدا» بالكثير من الاهتمام. لقد قاومت «فريدا» على الدوام صور إهمالها حتى إنها لم تستسلم لفكرة «المرض»، ولم تحب أن تعيش ضحية، ولم ترغب في إحاطة نفسها بوجه «قديسة» لأنها انحازت لضعفها الشخصي وجروحها الذاتية بل حتى دافعت في يومياتها عن سلوك «ريفيرا» الأناني، وكتبت في يومياتها: «أحب أن أمنحه كل شيء، لو كان لدي شباب سيكون بوسعه أن يأخذ شبابي كله».

واستمرت حياة «فريدا» هكذا بين الرسم وبين المستشفيات لتلقي العلاج، وإجراء العمليات الجراحية حتى جاء عام 1953 حيث تم افتتاح معرضها الأول الفردي في «جاليري الفن المعاصر» بالمكسيك. لكنها مع الأسف كانت في ذلك الوقت طريحة الفراش بأوامر من الطبيب. لقد تدهورت حالتها الصحية بشدة في تلك الفترة نتيجة لكثرة العمليات الجراحية، ولم يكن أحد يتوقع حضورها إلى المعرض. لكن فرحة «فريدا» الشديدة بهذا الحدث المهم في حياتها جعلها تذهب إلى هناك في سيارة إسعاف، وحضرت المعرض وهي على سرير. وبالرغم من هذا كله، كانت «فريدا» سعيدة للغاية وغمرتها فرحة عارمة. لكن بعد ذلك ببضعة أشهر، تم بتر ساقها اليمنى بسبب إصابتها بـ «غرغرينا». وقبل أيام قليلة من وفاتها وتحديدًا في 14 يوليو

عام 1954 كتبت في يومياتها قائلة: «أتمنى أن يكون خروجي من الدنيا ممتعًا، وأتمنى ألا أعود إليها ثانية».

وبعد ذلك بعدة أيام، عُثِر على «فريدا» متوفية في منزلها. لقد أثيرت بعض الشكوك حول وفاتها، حيث قيل إن الوفاة كانت نتيجة جرعة زائدة من الدواء. أشار البعض إلى أن تناولها لتلك الجرعة لم يكن مقصودًا. وبسبب هذه الشكوك وحالتها الصحية الصعبة قبيل وفاتها، تم تشريح جثتها.

الجدير بالذكر هنا أن «دييجو ريفيرا» ـ زوج «فريدا كاهلو» والذي كان أحد أهم أسباب تدهور حالتها النفسية وتعاستها في الحياة ـ كتب في يومياته بعد وفاتها أن اليوم الذي ماتت فيه «كاهلو» كان أكثر الأيام المأساوية في حياته، مضيفًا أنه اكتشف متأخرًا أن الجزء الأفضل من حياته كان حبه لها.

وحتى هذه اللحظة لايزال رماد جثتها محفوظًا في جرة أثرية، تعود إلى فترة ما قبل الكولومبية، ومعروضًا في منزلها المعروف باسم «البيت الأزرق». لقد تحول هذا المنزل إلى متحف يضم العديد من أعمالها الفنية ومقتنيات عديدة من حياتها الخاصة، مثل الأدوات الطبية التي كانت تستخدمها. ومن بين الأعمال الفنية التي توجد في متحفها الرسومات التي رسمت فيها «فريدا» نفسها وهي تنزف وتتصدع، وتلك الأعمال الأخرى التي حوّلت فيها «فريدا» وجعها إلى فن ناطق بحس الفكاهة والفانتازيا مقاومةً منها لشعورها بأنها ضحية لمرض الشلل.

تمت

توقفت كثيرًا عند قصة حياة «فريدا كاهلو»، وبكل صراحة شعرت بحيرة كبيرة فيما سأكتبه كتعليق على تلك القصة، فحياة «فريدا» مليئة بالكثير

من الأمور التي تستحق التعليق، سواء كانت حالتها الصحية، أو النفسية ورحلة معانتها مع المرض، أو حتى علاقتها مع زوجها وخيانته المتكررة لها.

كثيرًا ما سألت نفسي، وأنا أكتب تلك القصة ما هو سر تمسك «فريدا» بالحياة مع رجل يعاملها بهذه الصورة، فكم من مرة ينتهي الوضع بهما إلى الطلاق ولكن يعودان مرة أخرى، حتى إنهما عاشا معًا لسنوات في المنزل نفسه منفصلين، وكان هذا يعد أمرًا غريبًا على نمط الحياة الغربية، أو حتى على المجتمعات والثقافة الشيوعية التي كانا يتبعها، لكني وجدت شيئًا فسر لي كل هذا التساؤل. هذا الشيء هو رسالة كتبتها «فريدا» إلى زوجها في عام 1935، حيث قالت فيها:

«هل يجب أن امتلك فعلاً رأس بغل كي لا أفهم على الإطلاق كل ما يجري من حولي.. الرسائل وقصص الفساتين ومعلمات اللغة الإنجليزية والغجريات اللواتي يعملن على الجلوس أمامك لرسمهن، وكل النساء اللواتي يظهرن اهتمامًا بفن الرسم واللواتي يحضرن من الخارج.. كل هذا تفاصيل مسلّية، وأنا أعرف أن ما بيني وبينك هو حب بالمعنى العميق للكلمة، وحتى لو عشنا كل هذه المغامرات وكل هذه الخناقات التي يليها دائمًا أبواب تقفل وشتائم، فنحن نحب بعضنا على الرغم من كل شيء، وأظن أنني بالفعل غبية إلى حدٍ ما، لأنني طوال الأعوام السبعة التي عشناها معًا وبعد كل نوبات الغضب التي كنت أمرُّ بها، أرى نفسي اليوم أنني ما توقفت عن حبك وأنني أحبك أكثر من جلدي، وحتى لو أنك لا تحبني بالقدر نفسه، فإنك على الأقل تحبني قليلاً، أليس كذلك؟ وإذا لا، فأنا احتفظ دائمًا بالأمل للوصول إلى ذلك، وهذا يكفيني.. أحبني قليلاً وأنا أعبدك».

أعتقد أنك فهمت ما فهمته من تلك الرسالة، وأن حب «فريدا» لزوجها كان السبب الرئيسي في تحملها لكل شيء والحياة معه حتى موتها، كما كان هو أحد أهم أسباب شقائها في الحياة، وهو الأمر الذي يجعلني أشك في أن «فريدا كاهلوا» قد دخلت في علاقة غرامية مع المناضل الشيوعي «تروتسكي» حتى لو كانت علاقة مؤقتة كما أشيع من بعض الكتاب. لكن الأوقع هنا هو أن صداقة قوية قد ربطت بينهما، فلو تتبعنا سيرة «فريدا» سنجد أنها كانت مؤمنة بشكل كبير بكل أفكار «تروتسكي» الشيوعية، كما كانت ترى أن الشيوعية هي الخلاص الوحيد للعالم والسبيل إلى الحرية والعدالة الاجتماعية، وهو الأمر الذي نراه بوضوح خلال رسالة كانت «فريدا» قد بعثت بها إلى أحد أصدقائها حينما كانت تقيم في أمريكا، وكانت تبدي انزعاجها من طبيعة المجتمع ونمط الحياة هناك ومن ممارسات الرأسمالية حيث قالت في رسالتها: «المجتمع المخملي هنا يضرب لي على الوتر الحسّاس، وأشعر أنني غاضبة من كل شيء من حولي، وخاصة هؤلاء الأغنياء لأنني التقيت هنا بالآلاف من الناس الذين يعيشون في بؤس أسود، من دون مأوى أو سقف ومن دون طعام، وهذا ما جعلني أتأثر كثيرًا بواقع الحال هنا، وأجد أنه أمر فظيع أن الأغنياء يقضون أيامهم ولياليهم في الحفلات الصاخبة، في حين أن الآلاف يموتون من الجوع. وعلى الرغم من كل الاهتمام الذي أوليه للتقدم الصناعي والميكانيكي في الولايات المتحدة الأمريكية، إلاّ إنني أجد أن الشعب الأمريكي يفتقد إلى الذوق والحسّ الرفيع بشكل فاضح، والأمريكيون يعيشون كما لو أنهم في مزرعة دجاج كبيرة، وسخة ومقرفة، ومنازلهم شبيهة بأفران الخبز وما يتحدثون عنه من رفاهية في منازلهم، ليس

سوى مجرد أسطورة ووهم، ربما أنا مخطئة لكنني أقول بكل بساطة وجهة نظري وما أثر في قلبي».

وهو ما يعني أن «فريدا كاهلو» كانت مؤمنة بشكل كبير بكل الأفكار الشيوعية والاشتراكية، والتي تفرض كل ممارسات الرأسمالية العالمية، وهو الأمر نفسه الذي كان ينادي به «تروتسكي»، لهذا كان من الطبيعي أن تنشأ صداقة قوية بينهم.

على أي حال، بعد وفاة «فريدا كاهلو» تحولت إلى رمز للنضال من أجل الحرية ومن أجل الاستقلال ورفض الاحتلال الإسباني لبلادها. لكن اللافت للنظر أنه بالرغم من الشهرة التي عليها «فريدا كاهلو» الآن، فإنها لم تنل هذه الشهرة أثناء حياتها، لأن الشهرة التي هي عليها الآن قد اكتسبتها بعد وفاتها بسنوات عديدة، وهو ما يعني أن «فريدا كاهلو» التي نتحدث عنها الآن كأحد أيقونات الفن والسياسية لم تكن كذلك أثناء حياتها، لكنها نالت كل التقدير وحصلت على المكانة الرفيعة التي تستحقها بعد وفاتها وبعد حياة طويلة مع المعاناة و الألم والحزن.

الأميرة ديانا

الملكة غير المتوجة على عرش إنجلترا



«عندما أدخل إلى غرفة مستشفى، كل ما أوده هو أن أنقذ الناس من الموت، أو أداوي الأطفال المرضى، وأشعر أنهم بحاجة إلي. أريد أن أحدث فرقًا، وليس أن أكون موجودة فقط».

من أقوال الأميرة «ديانا»

الشخصية التي نحن بصدد الحديث عنها الآن، هي شخصية استثنائية بكل المقاييس؛ ليس فقط بسبب قصة حياتها، أو نهايتها المؤلمة، ولاحتى بسبب ما قدمته للمجتمع من أعمال إنسانية وخيرية جليلة، لكن الأمر أكبر من هذا. فالشخصية، التي سنتحدث عنها الآن، هي أول شخصية منذ ما يقرب من ثلاثة قرون تنجح في كسر حالة الجمود والبرود التي أصابت القصر الملكي البريطاني، بل ويمكننا أن نقول أنها نجحت في كسر حالة البرودة التي تكسو الحياة والمشاعر في لندن ـ عاصمة الضباب ـ صاحبة هذه القصة هي الأميرة «ديانا» أميرة «ويلز». ولدت «ديانا فرانسيس سبنسر»، في 1 يوليو من عام 1961، لأسرة نبيلة وهي عائلة «سبنسر» الإنجليزية والتي تعود لأصول ملكية، كما كان والدها يحمل لقب «لورد». كانت «ديانا» المولدة الرابعة لـ «جون سبنسر الثامن»، والشريفة «فرانسيس شاند»، وترعرعت في منزل «بارك» بالقرب من مقاطعة «ساندرينجهام»، وتعلمت في إنجلترا وسويسرا وحصلت على لقب «ليدي» في عام 1975 بعد أن ورث والدها لقب «إيرل سبنسر».

لم تكن طفولة «ديانا» سعيدة بالمرة حيث قالت عن تلك المرحلة في مذكراتها، التي سُجلت بمعرفة صديق صحفي مقرب لها: «كانت طفولتي تعيسة للغاية، كنت أرى أبي وهو يصفع أمي، فكنت أختبئ خلف الباب».

طغت مشكلات الوالدين على سنوات طفولة «ديانا»، وجعلت منها أيامًا قاسية، حتى حدث الانفصال وهي بعمر الثامنة، مما كان له تأثيره على حياتها وأضر بنظرتها لنفسها، وهز ثقتها بها، خاصةً وأن هذا الانفصال حدث نتيجة هروب أمها من المنزل برفقة رجل آخر أحبته وهربت معه من جحيم العيش مع والد «ديانا»، حيث تحكي «ديانا» في مذكراتها عن تلك الواقعة قائلة: «كنت في الثامنة من عمري حين انفصل والداي، بعد أن أقامت أمي علاقة مع «بيتر شاند كايد». رأيت أمي وهي تعبر فناء المنزل حاملة حقائبها الكبيرة ومتجهة إلى السيارة، ثم ابتعدت بغضب عن بوابات منزل «بارك». لم أجد ما أفعله، فجلست على أحد الدرجات الخلفية للمنزل أبكي بمفردي».

بعد واقعة الهروب هذه، حصل والد «ديانا» على حق حضانتها بمساعدة من جدتها «روث روتشى» بارونة «فيرموني». بعد ذلك، ألحقها والدها بمدرسة داخلية اسمها «المدرسة الجديدة بوست هيث». وقد عُرِف عن «ديانا» أثناء طفولتها الخجل الشديد، فلم تكن «ديانا» كثيرة الاختلاط بالأطفال. وقد استمر هذا الخجل معها حتى فترة مراهقتها.

أحبت «ديانا» الموسيقى والباليه الكلاسيكي اللذين مارستهما في مدرستها. وبعد أن أنهت دراستها التجهيزية في معهد «إلفين فيديهانت» في سويسرا، بدأت العمل مع الأطفال إلى أن أصبحت معلمة حضانة في مدرسة «يونج إنجلاند» بعد أن استقرت في «لندن» بشكل نهائي في الشقة التي كان والدها قد أهداها لها في وسط «لندن»، تلك التي بلغت قيمتها 100 ألف جنيه إسترليني، وهو ما كان مبلغًا كبيرًا للغاية في ذلك الوقت.

في الواقع، عَمِلت «ديانا» في فترة مراهقتها في العديد من الوظائف الغريبة أثناء إقامتها في «لندن». في البداية، عَمِلت مدربة للأطفال في أكاديمية للرقص، لكن تعرضها لحادث أثناء التزلج أدى إلى إنهاء عملها كمدربة. كما عملت كمربية أطفال لعائلة أمريكية تقطن في «لندن».

إلى هنا، كانت «ديانا» مثلها مثل أية فتاة نبيلة تنتمي إلى أسرة ذات أصول ملكية، بل يمكن أن نقول أن «ديانا» كانت أقل من كل أولئك الفتيات أهمية نظرًا لخجلها الشديد، وابتعادها عن كل مظاهر الحياة النبيلة التي اعتادت مثيلاتها من الفتيات الأخيريات. لكن في عام 1977، تغير كل شيء. كانت «ديانا» على موعد مع مصيرها المحتوم لتصبح واحدة من الشخصيات المعروفة في تاريخ الإنسانية كلها، وليس في تاريخ إنجلترا فقط.

في ذلك العام، تعرفت «ديانا» على الأمير «تشارلز» - أمير «ويلز» وولي العهد البريطاني - حيث كان الأمير «تشارلز» يرتبط بالشقيقة الكبرى لـ «ديانا» الليدي «سارة». لكن علاقة الارتباط تلك لم تدم طويلاً؛ لقد كان «تشارلز» شخصًا متقلب المزاج ومعروفًا عنه أنه كثير الارتباط بالفتيات وكانت له علاقات متعددة. وبعد فترة ليست بطويلة من انتهاء علاقة «تشارلز» بـ «سارة»، كانت الأسرة الملكية؛ وبخاصة الملكة «إليزابيث» تضغط عليه من أجل أن يتزوج ويستقر. لقد كان «تشارلز» في ذلك الوقت قد بلغ الثلاثين من عمره. وفي عُرف الأسرة الملكية الإنجليزية، كان عليه أن يتزوج ويستقر بصفته ولي العهد المستقبلي.

وبالطبع، كان على الأمير «تشارلز» أن يجد الزوجة المناسبة له. في ذلك الوقت، بدأ «تشارلز» يبدي اهتمامًا خاصًا بـ «ديانا» التي كانت في الثامنة عشر من عمرها. وفي عام 1980، نزلت كلٌ من «ديانا» و«سارة» ضيفتين على أمير «ويلز» في إحدى العطلات الريفية. وعندئذٍ، تعرف «تشارلز» أكثر على «ديانا» التي بدالته أطراف الحديث أثناء لعبة «البولو». وسرعان ما تطورت العلاقة بينهما، فصار «تشارلز» يتقرب منها ويحدثها بشكل يومي يهتم بها أكثر، حتى إنه دعاها بعد ذلك لقضاء عطلة بحرية معه على متن اليخت الملكي البريطاني، ثم اتبع تلك الدعوة بدعوة أخرى لها في إسكتلندا لتقابل عائلته أثناء إحدى العطلات بالعام نفسه. وتقول «ديانا» في مذكراتها عن تلك العطلة وعن لقائها بالأسرة الملكية: «لقد حظيت بعطلة رائعة، وحظيت بترحابٍ بالغٍ من الجميع، خاصةً الملكة ودوق «إدنبرة» والملكة «إليزابيث الأم»».

بعد تلك الزيارة، تطورت علاقة «تشارلز» و«ديانا» بسرعة؛ خاصة وأن تلك العلاقة قد لاقت ترحيبًا كبيرًا من الملكة التي كانت تعرف «ديانا» جيدًا منذ أن كانت طفلة، وكانت ترى فيها العروس المناسبة لابنها «تشارلز»، ولي عهد بريطانيا. صار «تشارلز» يتودد إلى «ديانا» ويتقرب منها أكثر. وفي يوم 6 فبراير من عام 1981، تقدم بطلب رسمي لخطبتها. وافقت «ديانا»، وبعد أسابيع قليلة تمت الخطبة سرًا، وتحديدًا في 24 فبراير من العام نفسه.

وبعد الخطبة، تركت «ديانا» بالطبع عملها في الحضانة وعاشت في منزلها لفترة. بعد ذلك، انتقلت للعيش في منزل الملكة الأم لفترة قصيرة، حيث أهدتها الأخيرة ياقوتة زرقاء نادرة تعود إلى العصور الوسطى، ودبوسًا من

الماس هدية الخطوبة. بعدها، انتقلت«ديانا» للعيش في قصر «باكنجهام» الذي تعيش فيه الأسرة الملكية حتى تم الزفاف في 29 يوليو من عام 1981 في حفل زفاف أسطوري تابعه العالم أجمع في بث مباشر على مختلف قنوات التلفاز العالمية والإنجليزية، حيث تؤكد الصحف أن هذا الزفاف تابعه ما يقرب من 750 مليون مشاهد حول العالم، بالإضافة إلى ما يقرب من 600 ألف شخص بريطاني خرجوا إلى الشوارع لمشاهدة هذا الزفاف الأسطوري .

لكن قبل أن نتعمق أكثر في حياة «ديانا» ما بعد الزواج، وما شاهدته وما حدث معها، اسمحوا لي أن أتوقف هنا قليلاً لنتحدث عن بعض الأمور التي حدثت أثناء الفترة القصيرة للخطوبة؛ ذلك لما كان لتلك الأمور من انعكاسات مهمة على حياة «ديانا» بعد الزواج. فبعد الإعلان الرسمي عن الخطوبة، بدأت الصحافة ووسائل الإعلام المختلفة تلاحق «ديانا» بشكل كبير. وفي الواقع كان تعامل «ديانا» مع الصحافة مختلفًا جدًا عن تعامل باقي أفراد الأسرة الملكية، الذين عُرِف عنهم التحفظ في التعامل مع الصحافة. نستطيع أن نقول إن علاقة أفراد الأسرة الملكية بالصحافة تكاد تكون معدومة، وهو ما خلق حالة من الشعبية المبكرة لـ «ديانا» في الشارع الإنجليزي، وجعل لها أهمية كبيرة لدى الصحافة نظرًا لأنها قد أزالت بعضًا من الغموض الذي يحيط بالعائلة الملكية.

على أي حال، لم تشهد تلك المرحلة بداية بزوغ نجم «ديانا»، لكنها شهدت أيضًا بداية تعاستها وخيبة أملها وانكسار قلبها. أثناء فترة الخطوبة، اكتشفت «ديانا» أن «تشارلز» الذي يدعي حبه لها على علاقة بامرأة أخرى. كتبت «ديانا» في مذكراتها تؤكد أنها سمعته ذات مرة يتحدث إلى امرأة

ويقول: «مهما حدث سنظل معًا، وسأظل أحبك للأبد». كانت تلك المرأة هي «كاميلا باركر» - حبيبته الأولى. وبالطبع حينما عرفت «ديانا» بهذا واجهت «تشارلز» وأرادت التراجع عن الزواج منه. لقد فات الأوان وما كانت العائلة الملكية ـ وبخاصة الملكة الأم ـ لتسمح لها بهذا الأمر. فلو تم فسخ الخطوبة، كانت ستطول العائلة الملكية الكثير من الأقاويل الذين هم في غنى عنها.

نتيجة كل هذه الضغوط والحالة النفسية السيئة التي عانتها «ديانا» أصيبت بمرض «النهام العصبي»، وهو مرض نفسي يصيب المراهقين عادةً نتيجة الضغوط النفسية والعصبية، ويؤدي بهم إلى نوبات نهم تجاه الطعام لأن ذلك يمنحهم شعورًا بالعزاء لما هم فيه من حزن، لكنه في الوقت ذاته يجعلهم يشعرون أنهم قد خرجوا عن السيطرة، وبعد انتهاء تلك النوبات يشعرون بالخزي والعار ويتملكهم شعور بالذنب والخوف من زيادة الوزن.

بالطبع، أصيبت «ديانا» بحالة من انعدام الثقة في النفس نتيجة معرفتها بأن خطيبها لازال على علاقة بحبيبته السابقة «كاميلا باركر». ومع الأسف الشديد، لم تكن «ديانا» لديها الجرأة لتتحدث عما اكتشفته وعلمت به، ولم تكن لديها رفاهية العودة في قرار الزواج، فعاشت أيامًا صعبة عانت خلالها من فقدان الوزن، الذي فسره كثيرون بأنه مرتبط بالانشغال في ترتيبات الزواج، لكنها كانت تعاني من نوبات متكررة من «النهام العصبي» التي تأتيها بسبب الخوف والقلق من عدم القدرة على الوفاء بمهامها الجديدة كفرد من العائلة الملكية البريطانية.

ولكي نتعرف على الصورة كاملة ومدى مأساة «ديانا»، يجب أن نضع في اعتبارانا أنها في ذلك الوقت كانت لا تزال في العشرين من عمرها وخبرتها في الحياة تكاد تكون معدومة، بالإضافة إلى أنها كانت ـ كما ذكرت في مذكراتها ـ شعرت بأنها تواجه مصيرًا جديدًا بدا مخيفًا ومرعبًا بالنسبة لها، حتى إنها حينما قررت التحدث في هذا الأمر وفي مخاوفها مع أختها «سارة» سخرت منها وطالبتها بأن تطردهما ر من عقلها، فما كان من «ديانا» إلا الاستسلام للأمر الواقع والاستعداد لحفل الزفاف الأسطوري وليوم زفافها، وهو اليوم الذي قالت عنه «ديانا» في مذكراتها: «شعرت بأنني حمل يساق إلى الذبح، أظنه كان أسوأ يومٍ في حياتي كلها».

على أي حال تم الزواج، وفي صباح اليوم التالي استيقظت «ديانا» لتجد نفسها بمفردها. لقد تم استدعاء زوجها من أجل عمله. تصف «ديانا» في مذكراتها تلك الليلة قائلة: «قضيت ليلة الزفاف أحلم بـ «كاميلا»، وأبكي. شعرت بأن العالم ينهار حولي، ولم أجد أو أعرف ما كان يتوجب علي فعله».

وبالفعل كان الأمر شديد الصعوبة على «ديانا»، فهذه الفتاة المراهقة ابنة العشرين من عمرها وذات الخبرة المحدودة في الحياة، لا تعي الكثير من المهام الملكية، ولا تجد من يرفق بها ويدعمها. لقد شعرت أنها وحيدة، خاصةً وأن الأمير «تشارلز» كان لا يعيرها الاهتمام الكافي. ظلت أيامها تمر وهي تحاول أن تجد سبيلاً للعيش في راحة، حتى علمت بخبر حملها الأول. وقد غيّر هذا الحادث السعيد حياة «ديانا» إلى الأفضل. لقد شعرت «ديانا» بسعادة بالغة لأنها سترزق بطفلها الأول، خاصةً أنها كانت تحب بشدة الأطفال. لكن مع الأسف الشديد تعرضت «ديانا» بسبب الحمل لحالة من الإعياء،

أو ما يمكن وصفه بأنه اكتئاب الحمل الذي تزايد نتيجة إهمال زوجها لها وخيانته المستمرة لها. ونتيجة تدهور حالتها الصحية، سقطت «ديانا» من على درجات السلم وهي في الأسبوع الثاني عشر من الحمل. وتذكر «ديانا» تلك الواقعة في مذكراتها، وتذكر مدى تجاهل الأمير «تشارلز» لها قائلة: «كان يرى ألمي وحالة الإعياء الشديدة والبكاء المستمر أثناء حملي بأنه إدعاء مني، حتى إنني حينما طلبت منه ذات مرة أن يظل إلى جواري فضّل أن يذهب ليركب حصانه. وحينما سقطت من على السلم كنت أحدثه محاولة إقناعه بالبقاء، فظن أنني فعلت هذا من أجل لفت انتباهه، فلم يهتم وتركني ورحل».

بسبب حادثة السقوط هذه، أصيبت «ديانا» بعدة كدمات، لكن لم يصب الجنين بسوء. وفي 21 يونيو عام 1982، رُزِقت «ديانا» بابنها «ويليام آرثر فيليب لويس»، الذي أسمته بنفسها وتمت ولادته في المستشفى. وكان في ذلك التصرف كسر لتقليد ملكي. بعدها، أصيبت «ديانا» باكتئاب ما بعد الولادة، وكانت دائمة الخوف والهلع، وفي حالة اضطراب شديدة، لكنها تعافت من هذه الحالة، وأصبح وجود الطفل الجديد له أثره في استقرار حياتها الزوجية إلى حدٍ ما.

وبعد عامين، أنجبت الأميرة «ديانا» ابنها الثاني «هاري» في 15 سبتمبر 1984، الذي أصر الأمير «تشارلز» على أن يسجله باسم «هنري تشارلز ألبرت ديفيد»، وكان يتمنى أن يكون بنتًا. رغم ذلك، كان الطفل الجديد سبب بهجة كبيرة وكان قريبًا من والده. عُرِف عن «ديانا» أنها أم محبة وحنونة جعلت طفليها يعيشان بطبيعة وبتلقائية، غير عابئة بتقاليد العائلة المالكة وبالبروتوكولات الحاكمة. لقد جعلتهما يذهبان إلى مدينة الملاهي، ويجربان

أطعمة الوجبات السريعة، وحرصت على أن تصحبهما لمدارسهما التي اختارتها بنفسها. اهتمت «ديانا» بشئون طفليها بنفسها بعد أن تخلت عن المربية الملكية، وأصرت على أن يكونا معها في جولاتها حول العالم. وبالطبع، كان كل ذلك يزيد من اهتمام الصحافة بها وبأبنائها ويزيد من غضب الملكة التي لم تكن مرحبة بتلك التصرفات، لكنها لم يكن بيدها شيء لفعله سوى مشاهدة تصرفات «ديانا».

يمكن القول بأنه على مدار سنوات زواجها التي امتدت إلى 11 عامًا، كانت «ديانا» في معاناة دائمة. كانت مشاعرها تُقابل بالاستنكار والاستهزاء، ويتم عرضها على أطباء نفسيين لم تجد راحة معهم. كان انعدام الثقة بالنفس هو الشعور العام لديها. وكان تعبيرها عن هذا الشعور يُنظر إليه على أنه تعبير طفولي، وعدم تقدير منها لمهامها الملكية ولدورها كأميرة. وتقول «ديانا» إنها بعد سنوات كثيرة من المتابعة مع أطباء مختلفين، اعترفت لأحدهم ذات مرة بمحاولتها الانتحار، لكن الطبيب أخبرها أن المشكلة ليست فيها؛ فهي إنسانة طبيعة للغاية، لكن المشكلة في طبيعة الحياة التي تعيشها وفي الوسط الذي تعيش فيه العائلة الملكية. وبعد هذه المقابلة، توقفت «ديانا» عن الشعور بالذنب، بل وبدأت مرحلة من الانطلاق في حياتها العامة.

لكن يبدو أن الأمير «تشارلز» لم يكن ينوي أن يجعل «ديانا» تسعد في حياتها أبدًا، أو أن يجعلها تستعيد ثقتها بنفسها. لقد قام «تشارلز» بدعوة حبيبته «كاميلا» إلى حدثٍ يضم أفراد العائلة الملكية. عندها، قررت «ديانا» التخلي عن صمتها ومواجهة «كاميلا». تقول «ديانا» في مذكراتها أنها باتت

على يقينٍ تامٍ بتلك العلاقة حتى إنها واجهت «كاميلا» قائلة: «أعرف كل شيء، ولا تعامليني كالحمقاء».

بالطبع، لم يتوقف الأمر عند هذا الحد. لقد غضبت «ديانا» بشدة، و تذكرت المحادثة التي سمعتها بين «تشارلز» و«كاميلا»، وقول «تشارلز» «مهما حدث، سأظل أحبك إلى الأبد»، الأمر الذي دفعها لأن تخبره بما فعلته مع «كاميلا»، وأنها لم تعد تطيق الحياة بتلك الصورة، وأنها قررت بشكل نهائي أن تعيش حياتها بطريقتها الخاصة. ما زاد الأمر سوءًا وقوع حدث هزّ أرجاء القصر الملكي بشدة، وأثار غضب الملكة «إليزابيث» بشكل مبالغ فيه.

ففي تلك الأثناء وتحديدًا في مايو من عام 1992، قام الصحفي البريطاني الشهير «أندرو مورتون» بنشر حلقات عن حياة «ديانا» في جريدة «صنداي تايمز» البريطانية الشهيرة، تلك الحلقات التي جمعها بعد ذلك في كتاب «ديانا: القصة الحقيقة». وقد عرض في هذه الحلقات حجم الخلافات بين «ديانا» و«تشارلز» وعلاقة «تشارلز» بـ «كاميلا». لقد كشف في تلك الحلقات أنه اعتمد في كتابتها على تسجيلات صوتية وصلته توضح كل هذه الأمور. وبالطبع، أدت هذه الحلقات إلى حدوث توترات كبيرة داخل القصر الملكي. كان الجميع يتسأل عن ماهية الشخص الذي سرب تلك المعلومات من داخل القصر الملكي، وبالطبع، أشارت أصابع الاتهام إلى «ديانا». لكن الغريب في الأمر أن الصحفي أشار في حلقاته تلك إلى علاقة غرامية جمعت بين الأميرة «ديانا» وبين الرائد «جيمس هيويت» معلم ركوب الخيل الخاص بأبنائها، مما زاد الطين بَلَّة ـ كما يقولون ـ ودفع القصر الملكي لاتخاذ تصرف عاجل. أعلن القصر الملكي رسميًا عن انفصال «ديانا» و«تشارلز»، لكن

من دون طلاق، وأن مرض «ديانا» جعلها تبني الكثير من الأشياء غير الصحيحة في ذهنها. وهو ما يعني أن القصر الملكي كان يُلمح إلى اضطراب «ديانا» العقلي، أو بمعنى أوضح يتهمها بالجنون.

بعد تلك الواقعة وتحديدًا في 3 ديسمبر من عام 1993، قررت «ديانا» أن تتحدى القصر الملكي وخرجت عن صمتها، حيث أعلنت في خطاب رسمي للجماهير أنها تريد أن تبتعد عن الحياة العامة لأنها تفضل في تلك المرحلة أن تكرس وقتًا أطول لحياتها وأمورها الشخصية. وبالطبع لم تنس «ديانا» أن تشكر الجماهير التي أحبتها حيث قالت: «لقد ساعدني عطفكم ومحبتكم في اجتياز بعض أصعب فترات حياتي، ودائمًا كان حبكم واهتمامكم يُسهل تلك الرحلة، وأشكركم على كل ذلك من أعماق قلبي».

يمكننا أن نُسمي المرحلة المقبلة من حياة «ديانا» أنها مرحلة الصراع مع الملكة «إليزابيث». إن الصراع بين هذين الطرفين في تلك المرحلة سيخرج من نطاق القصر الملكي وأسراره لينتقل إلى العامة، وليصبح حديث الناس في الشوارع والصحف، الأمر الذي أغضب الملكة «إليزابيث» كثيرًا. ففي الوقت الذي كانت فيه الملكة ترفض الكثير من تصرفات «ديانا» ونمط حياتها وطريقة تعاملها مع الصحافة، كانت في الوقت نفسه ترفض فكرة الطلاق قطعيًا، وترى أنها كارثة تحاول أن تدفعها بعيدًا عن عائلتها.

في مقابلة تلفزيونية أجريت في يونيو من عام 1994، أكد الأمير «تشارلز» صحة المعلومات المتداولة في تلك الفترة عن علاقته بـ «كاميلا باركر» وصرح أن ارتباطهما بدأ في عام 1986 بعدما بدأ زواجه من الأميرة «ديانا» في الانهيار. انزعجت الأميرة «ديانا» من تصرفات زوجها الأمير «تشارلز» رغم

انفصالهما، وكانت ترفض قيامه بإلقاء اللوم عليها في فشل زواجهما. على ما يبدو أن «ديانا» قد سئمت كل تصرفات «تشارلز» في تلك الفترة حتى إنها قد بعثت برسالة مكتوبة لصديقة لها قالت فيها إن «تشارلز» ليس على علاقة بـ «كاميلا باركر» فقط، لكنه على علاقة مع نساء أخريات، وأوضحت أنه كان على علاقة أيضًا بفتاة تُدعى «ليج بورك»، وهي فتاة عينها الأمير «تشارلز» لمرافقة الأميرين الصغيرين عندما كانا برفقته، لافتةً إلى أنها قد علمت أن الأمير «تشارلز» قد عرض الزواج على تلك الفتاة، وأنها كانت في غاية الاستياء من علاقة «ليج بورك» بالأمراء الصغار.

الجدير بالذكر هنا أن الفترة فيما بين عامي1993و1994 كانت فترة الخطابات، حيث قامت الأميرة «ديانا» بتبادل الكثير من الخطابات المكتوبة مع الملكة الأم تشكو فيها من سوء وضعها، ومن علاقات الأمير «تشارلز» المتعددة مع النساء. لكن الأميرة «مارجريت» كونتيسة «سنودون»، التي تعد بمثابة العمة القانونية للأميرة «ديانا»، أحرقت كل تلك الخطابات التي وصفتها بأنها شديدة الخصوصية؛ ذلك لحماية أفراد العائلة من أي أذى قد يتعرضون له حال تسرب أي من تلك الخطابات.

في ذلك الوقت، كانت «ديانا» على موعد جديد من تحدي الملكة «إليزابيث». فبعد أن سيطر الإحباط واليأس على حياتها، قررت «ديانا» أن تفعل مثلما يفعل باقي أفراد العائلة الملكية. وجهت «ديانا» اهتمامها صوب الأعمال الخيرية وركزت اهتمامها عليها. لكنها اختارت قضية كانت في ذلك الوقت شائكة جدًا بالنسبة للعائلة الملكية. اختارت «ديانا» أن تمارس عملاً خيريًا لصالح مرضى «الإيدز»، وهو المرض الذي كان يرتبط في ذلك الوقت

في أذهان الناس بالمثلية الجنسية. وبالطبع، رفضت الملكة هذا النشاط الخيري وطلبت من «ديانا» أن تبحث عن أي نشاط آخر. لكن «ديانا» تجاوزت طلب الملكة وأشركت نفسها بالكامل في الأمر أمام الصحفيين ووسائل الإعلام، حتى إنها قررت زيارة جناح خاص بمرضى «الإيدز» افتتح حديثًا في أحد المستشفيات. وقامت بجولة هناك وصافحت جميع الأطباء والممرضين والمرضى بيدها دون أن ترتدي أي قفازات، وهو الأمر الذي أثار حالة من الهلع بداخل القصر الحاكم. وما زاد الأمر سوءًا هو خروج أحد الصحف البريطانية وهي تحمل في صدر صفحتها الأولى صورة لـ «ديانا» وتحتها عنوان «الأميرة ديانا رمز المثلية».

ولكن لا شيء في ذلك الوقت كان من الممكن أن يُوقف «ديانا»، لا التأنيب من القصر، ولا حتى هجمات الصحافة والإعلام عليها؛ حتى إن «ديانا» انتقدت ضمنيًا في خطاب لها سلوك الملكة المحافظ قائلةً: «جميعًا سنعرف قريبًا أشخاصًا مصابين بالإيدز، فالتالي قد يكون أبًا أو أمًا أو أخًا أو أختًا أو ابنًا، أو ابنةً، كيف سوف نعالجهم بالشفقة والرعاية أم بالخوف والرفض».

بهذا تكون الملكة «ديانا» قد وجدت شيئًا يجعل حياتها أفضل، ويخرجها من رتابة الحياة في القصر الملكي. في تلك المرحلة أصبحت «ديانا» تسافر بلا انقطاع، ولم تتوقف عند مساندة مرضى «الإيدز»، بل أصبحت تهتم بالكثير من الأمور التي يتحفظ عليها القصر الملكي، مثل مرض «الجذام»والألغام الأرضية التي تهدد حياة ملايين البشر. وبعد فترة ليست بكبيرة أظهرت الصحافة دعمها لـ «ديانا» بدلاً من الهجوم عليها، وبدأت تقارن بين «ديانا»

التي باتت تُلقب بـ «أميرة الشعب» وبين الملكة التي تحافظ على مسافة واضحة بينها وبين الشعب. وبالطبع، كان كل ما تفعله «ديانا» لا يرضي الملكة ولا أفراد العائلة أبدًا.

في تلك المرحلة، كان الصراع بين «ديانا» و«تشارلز» قد بلغ أشده، وكانا على وشك اتخاذ القرار النهائي بالطلاق. لكن الملكة تدخلت مرة أخرى وعقدت ما يشبه بمعاهدة مع «ديانا» تتضمن سماح الملكة لها بمواصلة أعمالها الخيرية، ودعمها بشكل كامل مقابل أن تظل «ديانا» محافظة على صورة العائلة المترابطة أمام الرأي العام، وهو ما حاولت «ديانا» فعله، لكن يبدو أن الوضع كان أكبر من قدرات «ديانا» على التحمل. ففي عام 1993 وبعد مرور ما يقرب من 12 عامًا على زواج «ديانا» و«تشارلز» ذهبا في زيارة رسمية إلى الهند، وتخللت تلك الزيارة الرسمية زيارة إلى مزار «تاج محل». المفاجأة هنا هي أن «ديانا» قد التقطت بعفوية صورة لها بمفردها أمام هذا المزار. تصدرت هذه الصورة معظم الصحف العالمية، وحملت عناوين بها دلالات على الإشارات التي تحملها تلك الصورة من انتهاء العلاقة بين «ديانا» و«تشارلز».

وبالرغم من غضب الملكة، فإنها لم تصدر أي رد فعل تجاه ذلك التصرف. لكن مستشاري القصر طلبوا منها أن تفعل شيئًا بطريقة غير مباشرة يكون من شأنه إظهار العلاقة بين «ديانا» و«تشارلز» على أنها علاقة طبيعية وأن تلك الصورة كانت مجرد صدفة. في اليوم التالي، أُبلغت «ديانا» بوجوب مرافقتها للأمير «تشارلز» في أحد مباريات «البولو». لكن «ديانا» كانت من الذكاء لتفهم الهدف من هذه الصحبة، فأفسدت كل شيء عليهم. أثناء مصافحة

الأمير لها أمام عدسات الصحافة ووسائل الإعلام، تجنبت «ديانا» قبلة منه. وقد كشفت «ديانا» لأحد المقربين أنها فعلت ذلك عن قصد، وأنها قصدت أن تلتقط عدسات وسائل الإعلام صورة لها وهي تتجنب قبلة الأمير لأنها كانت تدرك أن كل ما يريده القصر هو أن يتم التقاط هذه الصورة لها مع «تشارلز» ليظهر الأمر على أنه على ما يرام بينهما.

هنا، ندخل المرحلة الأخيرة من مرحلة الصراع بين «ديانا» من جانب، والأمير «تشارلز» والملكة من جانب آخر. لقد استغل القصر الملكي كل وسائل الإعلام التابعة له لمدة سنتين تقريبًا لتجميل صورة ولي العهد، وللهجوم على «ديانا»، وإظهارها في صورة الشخص العاطل الذي لا يفعل أي شيء مفيد في حياته على عكس «تشارلز» التي أخذت وسائل الإعلام في إظهاره في صورة الشخص الطيب الذي يفعل كل ما هو جيد لصالح الشعب. لكن «ديانا» ـ بعد عامين من التحمل ـ قررت توجيه الضربة القاضية لخصومها في هذه اللعبة، واختارت توقيتًا دقيقًا جدًا لهذه الضربة.

في العشرين من نوفمبر من عام 1995 وأثناء الاحتفال بالعيد السنوي لزواج الملكة «إليزابيث»، وبينما كانت الملكة في احتفال شديد الفخامة جلب لها أحد مستشاريها أخبارًا تفيد بخروج «ديانا» في حديث مباشر عبر أكبر وسائل الاعلام في البلاد وهو تليفزيون الـ «بي بي سي». تحدثت «ديانا» فيه عن الكثير من الأمور الشخصية الخاصة جدًا، منها علاقتها العاطفية مع الرائد «هيويت» التي قالت إنها أحبته لكنه خذلها كثيرًا. كما تحدثت عن علاقة زوجها بـ «كاميلا باركر» بشكل ساخر، حيث قالت: «كنا ثلاثة في هذا الزواج، لذلك كانَ مزدحمًا بعض الشيء». وفي ختام اللقاء وعند سؤال

«ديانا» عن أحلامها المستقبلية، قالت: «إنها لا تحلم بشيء سوى أن تكون فقط أميرة القلوب».

لم يكن هذا الحديث هو الكارثة الوحيدة في حوار «ديانا» مع أكبر شبكة إعلامية وطنية إنجليزية، لكن كان ردها عن سؤال بخصوص صلاحية وأهلية الأمير «تشارلز»- أمير «ويلز» وولي العهد البريطاني- لتولي عرش المملكة، هنا كانت القنبلة التي ألقتها «ديانا» في وجه العائلة المالكة حيث قالت نصًا: «بسبب معرفتي الجيدة للشخص، فإن هذه المهنة العُليا ـ كما أطلق عليها ـ ستكبح جماحه، وهو الأمر الذي ارتاب في أن يتكيف الأمير معه».

بالطبع، كان هذا الحوار بمثابة الكارثة التي وقعت على رأس القصر الملكي والملكة «إليزابيث»، حتى إن القصر اضطر للانتظار شهرًا كاملاً حتى يبحث عن الحل السليم الذي يُمكنه من الخروج من هذه الورطة. وفي العشرين من ديسمبر من عام 1995، أعلن قصر «باكنجهام» رسميًا أن الملكة قد أرسلت عدة خطابات لكل من «ديانا» و«تشارلز» تنصحهما فيها بالطلاق، ومما يوضح خطورة الموقف في ذلك الوقت أن هذه الخطوة بالرغم من أنها شأن شخصي، فإنها لاقت تأييدًا رسميًا من رئيس الوزراء ومجلس «بريفي» في المملكة المتحدة بعد مشاورات استمرت لما يقرب من الأسبوعين.

وفي فبراير من عام 1996، أعلنت «ديانا» موافقتها على الطلاق بعد مفاوضات طويلة مع الأمير وممثلي الملكة. وفي العشرين من

أغسطس من العام نفسه، اكتملت إجراءات الطلاق كليةً. خرجت «ديانا» منتصرة في حربها، حيث حصلت على مبلغ 17 مليون يورو، كما وضعت شرطًا يمنع العائلة الملكية من مناقشة أي تفاصيل في حياتها بعد الطلاق، بالإضافة إلى احتفاظها بلقب «أميرة ويلز»، وتخليها عن لقب «صاحبة السمو الملكي» الذي كان لا يفرق كثيرًا مع «ديانا». بالطبع كانت ستحصل على لقب «الملكة الأم» و«صاحبة السمو الملكي» في حال أنها عاشت حتى تولي ابنها السلطة رسميًا؛ فابنها الأمير «ويليام» هو الثالث في ترتيب العرش البريطاني حتى هذه اللحظة بعد الملكة «إليزابيث»، وزوجها الأمير «تشارلز». كما أعلن القصر الملكي بشكل رسمي أنه بالرغم من الطلاق، فإن «ديانا» لاتزال فردًا من أفراد العائلة الملكية لكونها والدة ولي العهد الثاني وولي العهد الثالث على التوالي.

بالطبع، اعتقدت الملكة وقصر «باكنجهام» أنهم تخلصوا نهائيًا من الصداع الذي أصاب رأسهم بسبب «ديانا»، لكن هذا الاعتقاد ما كان إلا أحلام واهية. بعد الطلاق، قررت «ديانا» أن تتحرر من كل قيودها وأن تعيش حياتها بالصورة التي تحبها، وليست بالصورة المفروضة عليها. بعد أقل من عام من طلاقها، انتشرت أخبار وصور تفيد عن علاقة حب تجمع بين الأميرة «ديانا» وبين رجل الأعمال المصري الشاب «دودي الفايد» ـ ابن الملياردير المصري الإنجليزي «محمد الفايد» ـ وهو ما يعني أن «ديانا» تسببت في كارثة جديدة للعائلة الملكية. لو كانت اكتملت تلك العلاقة، لشكلت

صفعة قوية على وجه قصر «باكنجهام»، وأصبحت حدثًا تاريخيًا يحدث لأول مرة في تاريخ بريطانيا كلها. فلم يسبق أن تزوجت إحدى أفراد العائلة الملكية من شخص عربي شرقي مسلم، حتى لو كان هذا الشخص ملياردير، ويتمتع بشهرة ومكانة عالميتين.

ورغم كل التحذيرات والمطالبات لـ «ديانا» بإنهاء تلك العلاقة، رفضت كل الضغوط واستمرت في علاقتها مع «دودي الفايد»، حتى جاء يوم 30 أغسطس من عام 1997. وبينما كانت «ديانا» بصحبة «دودي» في فندق «ريتز»، المملوك له في «باريس»، لتناول وجبة العشاء قبل أن يخرجا إلى منزل «الفايد» القريب من الفندق والموجودة بشارع «أرسين هوساي»، كان الكثير من الصحفيين قد تجمعوا أمام الفندق لتتبع أخبار تلك العلاقة، مما جعل «دودي» يرتب لأكثر من مناورة لخداع الصحفيين والتمكن من الهرب من عدساتهم، لكن محاولاته باءت بالفشل واستمر تواجد الصحفيين في ساحة الفندق.

وبعد منتصف الليل، خرجا «دودي» و«ديانا» من الباب الخلفي للفندق والمؤدي إلى شارع «كمبون» ولم يركبا السيارة المرسيدس، لكنهما ركبا سيارة أخرى. كان السائق الذي سيقود هذه السيارة هو الرجل الثاني المسئول عن أمن الفندق «هنري بول»، وجلس بجواره الحارس الشخصي «تريفور ريس جونز»، وجلس كل من «ديانا» و«دودي» في الخلف وانطلقت السيارة. وفي

ميدان «الكونكورد»، لاحقت أعداد كبيرة من المصورين السيارة لالتقاط الصور لـ«ديانا» و«دودي»، فانطلق «هنري» بالسيارة بعيدًا عنهم، وهو يقود بسرعة عالية وأخذ الطريق السريع الموازي لنهر «السين»، ومنه إلى نفق جسر «ألما» بسرعة عالية تعدت الـ 100 كم/ س، على الرغم من أن أقصى سرعة مصرح بها بالنفق هي 65 كم/ س. ولم يمض القليل من الوقت بعد دخول السيارة النفق حتى فقد السائق السيطرة تمامًا على السيارة، وأخذت تترنح يمينًا ويسارًا إلى أن اصطدمت بالعمود الثالث عشر داخل النفق.

وقع هذا الحادث في تمام الساعة الثانية عشر وخمسة وعشرين دقيقة بعد منتصف الليل، وتوفي كل من السائق و«دودي» عقب الحادث مباشرةً، وكان الحارس الشخصي في حالة حرجة وفاقدًا للوعي، وكانت «ديانا» في حالة خطيرة جدًا وعلى وشك الوفاة. تم نقلها إلى مستشفى «بيتي سالبيتريير» في «باريس»، حيث دخلت غرفة الطوارئ وأجرى لها الجراحون عملية لإيقاف النزيف. وفي أثناء العملية توقف القلب عن النبض فجأة، فحاول الأطباء إعادتها للحياة مرة أخرى عن طريق إنعاش القلب. لكن فشلت كل المحاولات، وماتت «ديانا» في تمام الساعة الثالثة وسبعة وخمسون دقيقة من صباح يوم الأحد الموافق 31 أغسطس من عام 1997 وهي في السادسة والثلاثين من عمرها، وشيعت جنازتها في 6 سبتمبر من العام نفسه وسط حالة من الصدمة والحزن التي أصابت العالم أجمع.

تمت

في سبتمبر من عام 1997 كنت لا أزال طفلاً صغيرًا في الثالثة عشر من عمري، وكنت بصحبة أسرتي لقضاء العطلة الصيفية في «الإسكندرية»، على ما أتذكر، وبينما كنت ألهو مع أخي الأصغر «معتز»- رحمه الله- وبقية أبناء العائلة الذين كنا برفقتهم، حدث ما يشبه بالضجة على الشاطئ؛ حالة من الهرج والمرج والحركة المفاجئة لمعظم الناس. وحينما انتبهت لما يحدث، رأيت أحد بائعي الصحف، الذي تجمع حوله معظم من كانوا على الشاطئ تقريبًا، لشراء الصحف منه. كان البائع ينادي بأعلى صوته قائلاً: «اقرأ الحادثة.. موت الأميرة «ديانا» و«دودي الفايد»».

لم أكن في ذلك العمر أعرف من هي الأميرة «ديانا»، لكنني عرفت مما رأيته من اهتمام الناس بها أنها شخصية عظيمة ومحببة للجميع، حتى إني لازلت أتذكر نظرات الحزن الحقيقة في عيون الجميع، فالشاطئ، الذي كان مفعمًا بالحياة، توقف فجاءة، وعم الصمت عليه لدقائق. أتذكر أيضًا أني سمعت أمي تقول لأبي أن ما حدث لـ«ديانا» كان متوقعًا، وأن القصر الملكي البريطاني لم يكن أبدًا ليرضى عن تلك العلاقة.

على أي حال، لازال حادث وفاة «ديانا» و«دودي الفايد» حتى هذه اللحظة يمثل لغزًا غامضًا، خاصة بعدما أعلن رجل الأعمال المصري «محمد الفايد»- والد «دودي»- أن الحادث لم يكن صدفه قدرية، لكنه كان مرتبًا خاصةً بعد إعلان ابنه و«ديانا» خطبتهما

وإعلانهما عن نيتهما في إتمام الزواج في أسرع وقت، حتى إن رجل الأعمال «محمد الفايد» كان قد اتهم صراحة وبشكل مباشر الأجهزة الأمنية البريطانية في تدبير ذلك الحادث، ويمكننا القول هنا إن هذا الحادث المأساوي الذي لم ينج منه سوى الحارس الشخصي لـ «دودي»، الذي نجا بمعجزة إلهية، لازال يثير التساؤلات حول مدى إن كان حادث قدريًا، أم مدبرًا.

وربما كان من الغريب أيضًا ما حدث بعد تلك الحادثة. فعلى الرغم من تجمع الكثير من المواطنين الذين ملئوا الساحة أمام قصر «باكنجهام» بالورود وبصور «ديانا»، فإن الملكة «إليزابيث» لم تظهر، ولم تتحدث عن شيءٍ لمدة أسبوع كامل. لقد خرجت إحدى الصحف البريطانية تطالبها بالتحدث لدرجة أن عنوان صحيفة «ذا صن» الشهيرة خرج في ذلك الوقت يقول «أظهري لنا بعض الاهتمام». وتشير الوثائق إلى أن الملكة كانت لا ترغب في الظهور، أو التعليق على وفاة «ديانا» لولا ضغوط من رئيس الوزراء «توني بلير»، وأنها كانت ترفض إقامة جنازة ملكية لها، لكن الأمير «تشارلز» أصر على ذلك بصفتها أحد أفراد العائلة الملكية وأميرة «ويلز»، كما إنها أم ملك إنجلترا المستقبلي. وبالفعل، أقيمت جنازة مهيبة لـ «ديانا» شاهدها أكثر من 2 مليار شخص حول العالم.

وبعيدًا عن ماهية الحادث وعن كونه قدريًا، أم مدبرًا، فالمؤكد هنا أن «ديانا» كانت بمثابة الهم الذي تخلصت منه الملكة

«إليزابيث»، فتلك الملكة التي نجحت في التغلب على الكثير من الصعاب في حياتها، لم تتمكن قط من التغلب على «ديانا»، أو كبح جماحها؛ خاصةً مع الشعبية الجارفة التي كانت تتمتع بها «ديانا» ليس في إنجلترا فقط، لكن في العالم أجمع.

لازلت أتذكر أيضًا تلك الزيارة التي قامت بها الملكة «ديانا» إلى مصر في عام 1992؛ وهي الزيارة التي لاقت احتفاءً رسميًا وشعبيًا كبيرين. لقد كان الشعب المصري يتوق إلى رؤية «أميرة القلوب» والتعرف عليها عن قرب، ولاشك أن «ديانا» قد غازلت قلوب المصريين ومشاعرهم أيضًا في تلك الزيارة، حتى زاد حبهم وارتباطهم العاطفي بها. لقد كانت تلك الزيارة هي الزيارة الثانية لـ «ديانا» إلى مصر، حيث سبقتها زيارة لها إلى مصر في أغسطس من عام 1981 قبل استشهاد الرئيس «محمد أنور السادات» بشهرين فقط. وقد كانت الزيارة الثانية لها بدعوة مباشرة من الرئيس الأسبق «محمد حسني مبارك» وزوجته السيدة «سوزان».

وخلال تلك الزيارة، قامت «ديانا» بعدة زيارات وأنشطة، حيث زارت بعض المدارس الحكومية والمراكز الطبية للأطفال المعاقين في «القاهرة». كما زارت بعض المناطق السياحية والأثرية، منها الأهرام والمتحف المصري، والتقطت صور لها مع الأهرام و«توت عنخ آمون»، واستكملت رحلتها في مصر بزيارة «الأقصر» و«أسوان» للتعرف على الحضارة المصرية العريقة. لكن اللقطة الأهم في زيارتها كانت زيارتها للجامع «الأزهر»، وهي اللقطة التي تعد لقطة تاريخية

بحد ذاتها. فعند زيارتها إلى الجامع «الأزهر» حرصت «ديانا» على ارتداء ملابس محتشمة جدًا، كما أنها أصرت على خلع حذائها على الباب ورفضت ارتداء أي واقي فوقه. كما ارتدت الحجاب أثناء تجولها داخل المسجد، وكانت هذه هي المرة الأولى في التاريخ التي تظهر فيها سيدة تابعة للأسرة الحاكمة البريطانية وهي ترتدي حجابًا حتى لو كان ضروريًا لزيارة مسجد. ولقد انتشرت تلك الصورة بشكل واسع النطاق في كل وسائل الإعلام العالمية، وهي الصورة التي جعلت «ديانا» تكسب حب ملايين المسلمين حول العالم.

على أي حال، لا يمكننا القول هنا سوى أن «ديانا» كانت بالفعل شخصية استثنائية وكانت شديدة الذكاء، كما إنها كانت تتعامل على طبيعتها، ولم تكن يومًا شخصًا متكلفًا. لذلك، استحقت بالفعل أن تكون «أميرة القلوب».

مارينا نعمت

سجينة طهران



«إن الاعتقاد بأن أحدهم شرير لا يعطينا الحق في فعل ما نشاء به، أو ارتكاب الشر بدورنا، فالخطأ يظل خطأً مهما كانت الزاوية التي ننظر إليه منها».

«مارينا نعمت»

ها قد وصلنا إلى آخر محطة في رحلتنا الطويلة. ستكون هذه المحطة في «طهران» عاصمة إيران. إن بطلة هذه المغامرة شخصية نالت الكثير من التعذيب على يد رجال الثورة الإيرانية. وما شهدته في حياتها يمكننا وصفه بأنه يفوق قدرات البشر على التحمل، وكونها لا تزال قادرة على العيش، بل وعلى النضال من أجل الحرية والقيم الإنسانية يعد أمرًا خارقًا للعادة.

إن بطلة هذه المغامرة هي الإيرانية «مارينا نعمت»، أو «مارينا مرادي بخت» كما يُنطق اسمها باللغة الفارسية. ولدت «مارينا نعمت» في 22 من أبريل من عام 1965، وهي مسيحية أرثوذكسية من أصول روسية. تزوجت جدتها الروسية من رجل إيراني كان يعمل في روسيا القيصرية قبيل اندلاع الثورة «البلشفية» عام 1917. وبعد الثورة وتأسيس الاتحاد السوفيتي، أُجبر جدها على مغادرة البلاد لأنه لا يحمل الجنسية الروسية، مما اضطر العائلة بأكملها للاستقرار في إيران.

والد «مارينا» هو «غلام رضا نيكولاي مرادي بخت»، صاحب استديو لتعليم الرقص المعاصر وسط العاصمة الإيرانية «طهران».

أما أمها فاسمها «رقية» وهي صاحبة صالون تجميل في «طهران». كان لـ «مارينا» أخ يكبرها بأعوام هاجر إلى كندا ولحقت به «مارينا» فيما بعد. تحكي «مارينا» عن طفولتها في الرواية التي تتضمن سيرتها الذاتية وتحمل اسم «سجينة طهران» قائلة: «عندما كنت طفلة صغيرة كنت أحب سكون «طهران» وألوانها الزاهية في الصباح الباكر؛ إذ كنت أشعر بالحرية والخفة وكأنني محجوبة عن الأنظار. ولدت في الثاني والعشرين من أبريل عام 1965. ومنذ عام 1941، أصبح «محمد رضا شاه بهلوي» الحاكم المستبد الموالي للغرب ملكًا على إيران. وقبل أربعة أشهر من مولدي اغتيل رئيس الوزراء الإيراني «حسن على منصور» على يد أتباع الزعيم الشيعي الأصولي «آية الله الخميني» الذي كان يطالب بإقامة دولة دينية في إيران. وفي عام 1971، أقام «أمير عباس هويدا» ـ رئيس الوزراء ـ آنذاك احتفالاً ضخمًا عند أطلال مدينة «برسيبوليس» العتيقة لإحياء الذكرى السنوية الخمسمائة بعد الألفين لتأسيس الإمبراطورية الفارسية. حضر الاحتفال خمسة وعشرون ألفًا من المدعوين من كل أنحاء العالم، بينهم ملوك وملكات ورؤساء دول ووزارات ودبلوماسيون. بلغت تكلفة هذا الاحتفال 300 مليون دولار، وأعلن «الشاه» أنه أراد بهذا الاحتفال أن يُظهر للعالم مدى التقدم الذي أحرزته إيران في السنوات الأخيرة».

عاشت «مارينا نعمت» في إيران في مرحلة دقيقة من تاريخها الحديث. لقد شهدت «مارينا» نهايات عصر شاه إيران «محمد رضا بهلوي»، كما شهدت اندلاع الثورة عليه وتولي «آية الله الخميني» ورجاله الحكم بعد إعلان النظام الإسلامي الشيعي نظامًا رسميًا للبلاد، وهي الثورة التي ألحقت ضررًا كبيرًا بـ «مارينا نعمت» وبأسرتها كما سنعرف فيما بعد. تروي «مارينا» في روايتها بعنوان «سجينة طهران» عن مرحلة إرهاصات تلك الثورة وموقف الشعب منها قائلة:

«بينما كنا نبيت في منزل خالتي «زينيا» قالت لي: «لا ترتكبي أفعالاً حمقاء .. لست متورطة في تلك الثورة أليس كذلك؟»».

فأجبتها: «ما الذي تتحدثين عنه؟ أية ثورة؟».

قالت: «أتحاولين خداعي».

هززت رأسي نفيًا. لم يكن لدي أدنى فكرة عما تتحدث عنه بالفعل.

قالت خالتي: «أنا سعيدة لأنك تسمعين هذا الكلام مني، فأنا أعلم الكثير عن الثورات، والآن اسمعيني جيدًا. هناك شيء مفزع يحدث في هذا البلد، يمكنني أن استشعره، فهو يفوح برائحة الدم والكوارث، هناك احتجاجات ومظاهرات ضد «الشاه» منذ فترة، منذ سنوات و«آية الله» الذي لا أذكر اسمه هذا يعارض الحكومة وأؤكد أنه لا ينوي خيرًا، فسوف يرحل نظام ديكتاتوري كي يحل

محله نظام ديكتاتوري آخر أسوأ مثلما حدث في روسيا مع اختلاف الأسماء، بل إن الأمر سيكون أكثر خطورة، لأن تلك الثورة تتخذ من الدين قناعًا تختبئ خلفه، المثقفون يتبعون «آية الله» هذا. لا تنسي ما حدث في روسيا، لقد قتلوا القيصر ولكن هل تظنين أنهم أصبحوا أفضل حالاً الآن؟ هل تعتقدين أن أهل روسيا أصبحوا جميعًا أحرارًا سعداءً أغنياء؟».

حينما اندلعت الثورة الإسلامية في إيران في عام 1979 كانت «مارينا نعمت» لاتزال في مرحلة الدراسة الإعدادية وكانت تبلغ من العمر 14 عامًا فقط. بدأت «مارينا» تشعر خلال الفترة ما بين عامي 1978 و 1979 أن كل شيء حولها يتغير. إن «الشاه» الذي أصابه الاضطراب في تلك الفترة من شدة التظاهرات ظل يقيل رئيس وزراء ويعين آخر مكانه محاولاً استعادة السيطرة على البلاد. وأخذ يلقي الخطب ويخبر الشعب بإنه قد سمع صرختهم من أجل تحقيق العدالة وإنه سيعمل على إحداث بعض التغييرات. لكن، لم يكن لكل هذه المحاولات أية فائدة. لقد تزايدت التجمعات والاحتجاجات ضد «الشاه» يومًا بعد يوم. لقد كانت بحق فترة عصيبة في تاريخ البلاد وصفتها «مارينا» قائلة: «العالم الذي نشأت فيه والقواعد التي كنت أحيا وفقها وأظن أنها ثابته كما الصخر بدأت تتهاوى أمام عيني. كرهت الثورة فقد تسببت في العنف وإراقة الدماء وكنت واثقة أن هذه مجرد البداية فقط. سرعان ما

فُرض حظر التجوال العسكري وظهر الجنود والشاحنات العسكرية في كل الشوارع .. هكذا أصبحت غريبة في عالمي».

مع مرور الأيام والأسابيع، أصبح الخوف يزداد لدى «مارينا» الطفلة ابنة الرابعة عشر من عمرها. لقد كان يُرعبها الصوت المرتفع والمخيف للدبابات وللشاحنات العسكرية وهي تتحرك في الشوارع. كان كل عالمها يتهاوى بحق. بدأت «مارينا» تتعرف على عالم السياسة وهي في سن مبكرة جدًا، وبدلًا من أن تقضي تلك المرحلة من طفولتها في التعلم، أو حتى في اللعب كبقية من هم في مثل سنها، أخذت تتابع أخبار رحيل أصحاب العديد من المناصب الحكومية، أو العسكري المهمة عن البلاد. وأغلقت المدارس في أواخر خريف عام 1978. ونظرًا للاضطرابات التي وقعت في معامل تكرير النفط وعدم الاستقرار السياسي والاقتصادي، حدث نقص في وقود السيارات ومواد التدفئة حتى أصبح الشتاء المقبل على الأبواب باردًا جدًا ومخيفًا. لم تتمكن معظم الأسر من تدفئة سوى حجرة واحدة فقط في منازلها. كانت الحياة بحق مرعبة ومخيفة، وكان المستقبل مجهولاً. وهذا هو أسوأ شيء يمكن أن يواجه أي إنسان. ومرت الأيام بين مشاعر الرعب والخوف وبين التظاهرات والاضطرابات السياسية إلى أن تم نفي «الشاه» من إيران في 16 يناير من عام 1979. وعن تلك المرحلة تقول «مارينا» في روايتها «سجينة طهران»: «نفي «الشاه» من إيران في السادس عشر من يناير 1979،

وأطلق صراح السجناء السياسيين وأقيمت الحفلات في الشوارع. راقبت من نافذتي الناس وهم يرقصون والسيارات وهي تطلق أبواقها ابتهاجًا. عاد «الخميني» إلى البلاد في الأول من فبراير بعد رحلته الطويلة في المنفى ما بين تركيا والعراق وفرنسا. ومع إقتراب طائرته من إيران سأله أحد الصحفيين عن شعوره تجاه العودة إلى الديار، فأجاب إنه لا يشعر بشيء .. أصابني الاشمئزاز من كلماته، كيف لا يشعر بشيء وقد فقد الكثيرون حياتهم ليمهدوا له الطريق لعودته أملاً في أن تصبح إيران بلدًا أفضل؟ بدا لي وكأن ماءً باردًا يجري في عروقه بدلاً من الدم».

بالطبع، لم ينته الأمر بمجرد رحيل «الشاه» وعودة «الخميني» إلى البلاد. كان الجيش مازال مخلصًا إلى «الشاه». بقيت الدبابات والشاحنات العسكرية منتشرة في الشوارع، وظل مستقبل البلاد غامضًا تمامًا لمدة شهر، أو نحو ذلك. تولت حكومة الطوارئ العسكرية إدارة معظم المدن، واستمر حظر التجوال العسكري، بينما طلب «الخميني» من الناس أن يصعدوا إلى أسطح المنازل في الساعة التاسعة من كل ليلة ويصيحوا «الله أكبر» لمدة نصف ساعة متواصلة تعبيرًا عن تأييدهم للثورة. اشترك معظم الناس في التكبير حتى أولئك الذين لم يكونوا داعمين حقيقيين للثورة. ساد شعور بالتضامن وبتطلع الشعب إلى مستقبل أفضل ترفرف فيه أعلام الديمقراطية والحرية، حتى جاء يوم العاشر من فبراير 1979 ونزل الجيش على إرادة الشعب

الإيراني. وفي الحادي عشر من فبراير، أعلن «الخميني» عن قيام حكومة مؤقته يرأسها «مهدي بازركان».

سرعان ما انتشر الحرس الثوري المسلح وأفراد الجماعات الإسلامية في كل مكان في البلاد ينظرون في ارتياب إلى الجميع. وألقى القبض على مئات الأشخاص بتهمة انتمائهم إلى «السافاك» - البوليس السري التابع للشاه - والزج بهم في السجون ومصادرة متعلقاتهم وأموالهم، وإعدام البعض بدءًا من كبار المسئولين في النظام السابق الذين لم يغادروا البلاد، ونشر صور مفزعة للجثث المغطاة بالدماء في الصحف. ولم يمر وقت طويل على اندلاع الثورة حتى تم تحريم كل شيء تقريبًا وصارت البلاد أشبه بسجن كبير يعيش فيه الإيرانيون.

على أي حال، مرت الأيام وصار كل شيء يتغير ويتبدل في إيران. باتت «مارينا نعمت» وغيرها من الأطفال والمراهقين والشباب في مثل سنها يشعرون أن هناك شيئًا مفزعًا يحدث حولهم، فحياتهم وعالمهم كله يتبدل. واستمر الوضع هكذا حتى جاء يوم الخامس عشر من يناير عام 1982، وهو اليوم الذي ألقي القبض فيه على «مارينا نعمت» وهي لاتزال في السادسة عشر من عمرها. بعدها، تم إيداعها سجن «إيفين»، وهو واحد من أشرس السجون في إيران. لقد تم القبض عليها لأنها طلبت من مدرسة التفاضل بالمدرسة أن تدرس مادة التفاضل بدلاً من الحديث في السياسة. فقامت المدرسة

بطرد «مارينا» من الفصل، وعندما خرجت «مارينا» أنضم إليها زملاؤها، ثم معظم طلاب المدرسة ورفضوا العودة إلى الفصول. استمر الإضراب لمدة يومين وفي اليوم الثالث استدعت مديرة المدرسة «محمودي خانم» مندوبات عن الطلاب وكانت منهن «مارينا» وأخبرتهن بخطورة ما يقومن به وإن لم ينهين الإضراب ويعودن إلى الفصول فسوف تقوم بالاتصال بالحرس الثوري وتوجيه تهمة معاداة الحكومة الإسلامية لهن وأن عقوبة تلك التهمة هي الإعدام. وبالفعل، تم إنهاء الإضراب. ولكن بعد شهرين من تلك الواقعة علمت «مارينا» من مدرسة الكيمياء أنها رأت قائمة تضم بعض الأسماء ومن بينهم اسمها على مكتب مديرة المدرسة التي تنتمي إلى الحرس الثوري. وبعد اندلاع الحرب بين إيران والعراق في عام 1980 انضمت «مارينا» إلى مظاهرة احتجاجية تمت تفرقتها عن طريق الحرس الثوري وتم قتل الكثير من المتظاهرين. في اليوم التالي، كتبت «مارينا» على لافتة عن هجوم الحرس الثوري على مظاهرة سلمية وعلقتها على أحد جدران المدرسة. وفي الخامس عشر من يناير عام 1982 ألقي القبض عليها واتهامها بمعاداة الثورة الإسلامية وأنها على صلة بالجماعات الشيوعية وطُلب منها الإدلاء بأسماء زملائها المعادين للثورة وزملائها الشيوعين في مدرستها. كما طُلب منها الإفصاح عن مكان إحدى زميلاتها المنضمات لجماعة شيوعية تعرف باسم «فدائيين خلق». ولما قالت

إنها لا تعلم بمكانها ورفضت الاعتراف على زملائها قاموا بتعذيبها وحُكم عليها بالإعدام.

ومن هنا، تبدأ مأساة «مارينا» الحقيقة وهي المأساة التي سأرويها لكم عن طريق ما كتبته «مارينا» نفسها في روايتها التي ذكرتها من قبل. ولتكن البداية من يوم الاعتقال، حيث كتبت مارينا: «ألقي القبض علي في الساعة التاسعة مساءً يوم الخامس عشر من يناير 1982، كنت وقتها في السادسة عشر من العمر. في صباح ذلك اليوم استيقظت قبل الفجر، ولم أستطع أن أخلد إلى النوم ثانية، بدت لي غرفتي أكثر ظلامًا وبرودةً من المعتاد، فظللت متدثرة بالغطاء المصنوع من وبر الجمال، وانتظرت شروق الشمس، ولكن بدا لي أن شمس ذلك اليوم لن تشرق أبدًا .. وكنت أتمنى في مثل تلك الأيام الباردة لو كان نظام التدفئة في بيتنا أفضل من ذلك، فلم تكن مدفأتا «الكيروسين» كافيتين، لكن والداي كانا دائًما يؤكدان لي أنني الوحيدة التي تشعر بأن البرودة في منزلنا لا تطاق في الشتاء.

مر اليوم بين الدراسة والزيارات وفي التاسعة مساءً ذهبت كي استحم، وفور أن فتحت الصنبور وبدأت المياه الساخنة تتدفق، دق جرس الباب فأنقبض قلبي لم يكن أحد يطرق باب منزلنا في تلك الساعة، أغلقت الصنبور وجلست على حافة المغطس، وسمعت والدي يفتح الباب، بعد مرور بضع ثوانٍ نادتني أمي، فخرجت

من الحمام لأرى رجلين ملتحيين من الحرس الثوري يرتديان زيًا عسكريًا داكن الخضرة ويقفان في الردهة، صوب أحدهما السلاح نحوي، شعرت أنني انفصلت عن جسدي تمامًا وأني أشاهد فيلمًا سينمائيًا، لم يكن هذا يحدث لي، بل يحدث لأخرى لا أعرفها. قال الحارس الثاني لزميله: ابق هنا ريثما أفتش البيت، ثم التفت نحوي متسائلاً: أين غرفتك ؟ .. أخبرته عن مكانها، وكانت أمي ترتجف وشحب وجهها تمامًا، وغطت فمها بيدها وكأنها تكتم صرخة مدوية، أما أبي فقد ظل يحدق إلي كأنني أحتضر من مرض مفاجئ لا شفاء منه وهو عاجز عن فعل أي شيء لإنقاذي، وانهمرت الدموع على وجهه، سرعان ما عاد الحارس الآخر وفي يده مجموعة من كتبي وكلها روايات أجنبية وسألني:

- هل هذه الكتب تخصك؟

- نعم.

- سنأخذ بعضها دليلاً.

- دليل على أي شيء؟

- على أنشطتك المعادية للحكومة الإسلامية.

- أنا لا أتفق مع الحكومة لكنني لم أفعل أي شيء ضدها.

- لست هنا لأقرر إن كنت مذنبة أم لا، بل أتيت لإلقاء القبض عليك هيا ارتدي «الشادور».

- أنا مسيحية ولا يوجد عندي «شادور».

فوجئا بسماع ذلك، فقال أحدهم: «حسنا، ارتدي غطاء رأس وهيا بنا، تساءلت أمي إلى أين تأخذانها، أجابا: إلى «إيفين»».

بعد أن تم القبض على «مارينا» انطلقت السيارة التي تم وضعها فيها باتجاه الشمال نحو جبال «ألبرز». وبعد مرور ما يقرب من النصف ساعة وصلت «مارينا» إلى سجن «إيفين» ذي الأسوار الملتوية التي تتخذ خطًا متعرجًا وسط التلال. وقبل أن تعبر السيارة التي تقل «مارينا» إلى داخل السجن أعطاها أحد الحارسين شريطًا سميكًا من القماش الأسود، وطلب منها أن تعصب عينيها وأن تحكم العصابة جيدًا كي لا تجلب إلى نفسها المتاعب. بعد وصولها إلى السجن جلست «مارينا» إلى جوار فتاة لم تكن تراها بالطبع. كانت الفتاة تبكي من شدة الخوف، فحاولت «مارينا» طمئنتها. وبعد دقائق جاء أحدهما وأقتاد «مارينا» إلى غرفة التحقيق، حيث تقول «مارينا»: «سمعت صوت رجل يقول: «مارينا» تعالِ معي تقدمي عشر خطوات للأمام، ثم استديري يمينًا، ثم أمرني بالجلوس على أحد المقاعد وقال لي: أنت شجاعة جدًا، وهي صفة نادرة الوجود في «إيفين»، رأيت العديد من الرجال الأشداء ينهارون هنا .. هل أنت أرمنية؟

- كلا

- لكنكِ أخبرتِ الحارس بأنك مسيحية؟

- أنا مسيحية

- إذًا، فأنت أشورية

- كلا

- لا أفهم. المسيحيون هنا إما أرمن أو أشوريون

- معظم المسيحيين الإيرانيين كذلك، لكن ليس جميعهم».

استمر التحقيق مع «مارينا»، ووقتها تعرفت على أحد المحققين الذي يُدعى «علي»، وهو الشخص الذي كان يستجوبها وفي أحيان أكثر كان يعذبها وهي مقيدة بالأصفاد حتى ينتزع منها أية معلومات تفيده في التحقيق. لقد كان يريد معرفة بعض الأسماء منها. كان يريد منها أن تشي بزملائها في المدرسة وبأصدقائها في الحياة. في البداية، تم تقيدها في الفراش وخلع حذائها وضربها بسلك أسود على قدميها ضربات عديدة حتى تعترف بما يريد «علي» سماعه منها. لم تكن «مارينا» تملك أية معلومات عن تلك الموضوعات التي يسألها عنها. لقد كان يسألها عن فتاة تُدعى «شهرزاد»، لكن «مارينا» لم تكن تعرفها معرفة شخصية. كانت فقط تسمع عنها ولكنها لم تكن تعلم عنها شيئًا. وتصف «مارينا» حالتها بعد تعذيبها في أول يوم قائلة: «عندما توقف عن الضرب وحرر قدماي من القيد، كانت قدماي تؤلماني ولكن العذاب قد اختفى وحل محله الشعور بفراغ أخذ ينتشر في جسدي وعروقي، مرت دقيقة قبل أن أفقد الشعور بجسدي وأشعر بسقف جفوني .. بدأت أفقد الوعي».

في الواقع، كان «علي» متعاطفًا مع «مارينا»، وكان أكثر إشفاقًا عليها من زميله الآخر في التحقيق معها، ذلك الذي يُدعى «حامد». كان «علي» يصدق أن «مارينا» لا تعرف «شهرزاد» هذه، وكان يصدق أنها لا تنتمي إلى جماعة «الفدائيين» المناهضة للحكم الإسلامي في إيران. لكن هذا التعاطف لم يُحسّن من وضع «مارينا» في شيء. لقد استمر «حامد» في تعذيبها دون رأفة، أو شفقة. وعلى ما يبدو أن إعجاب «علي» بها كان يتزايد يومًا بعد يوم، حتى إنه ذهب بنفسه إلى «آية الله الخميني» الذي كان صديقًا مقربًا لوالده ليطلب منه تخفيف الحكم عن «مارينا» من الإعدام إلى السجن مدى الحياة. وبالفعل، نجح «علي» في إلغاء حكم الإعدام الصادر بحقها. وتقول «مارينا» إنه حينما كان «علي» يساعدها، كانت تشعر بصدق مشاعره ولكنها كانت تجهل أسباب تعاطفه معها ومساعدته لها دونًا عن غيرها من الفتيات اللواتي صدر بحقهن أحكام بالإعدام وتم تنفيذها بالفعل.

وبعد بضعة أيام ساعدها «علي» مرة أخرى. لقد حصل على أمر بنقلها من الحبس الإنفرادي إلى عنبر رقم 246 بسجن النساء في «إيفين» حتى تكون على مقربة من أصدقائها الفتيات اللواتي تم القبض عليهن. ليس هذا فحسب، بل أصدر أوامر بمعاملتها بشكل أفضل مما كانت تعامل به من قبل. مرت شهور على وجود «مارينا» داخل سجن «إيفين»، فقدت خلالها الإحساس بكل شيء

حتى الإحساس بالزمن. لم تكن تعرف في أي يوم هي. وبعد نحو أربعة أشهر من القبض عليها، كانت «مارينا» على موعد مع مفاجأة جديدة كان القدر يخفيها لها، تلك التي تحكي عنها «مارينا» قائلة: «بعد نحو أربعة أشهر ونصف على اعتقالي نودي اسمي في مكبر الصوت: «مارينا مرادي بخت» .. ارتدي الحجاب وتعالِ إلى المكتب. لم أدرِ سبب استدعائي، لكني حينما ذهبت استقبلتني الأخت «مريم» المسئولة عن السجن قائلة: «لقد عاد الأخ «علي» وسأل عنك. حينما ذهبوا بي إلى الغرفة حيث «علي» ورفعت العصابة عن عيني، ونظرت حولي كنا في غرفة بلا نوافذ وبلا فراش للتعذيب، وعلي أحد الحوائط صور «آية الله الخميني»».

وقتها، قال لها «على» إن السبب الرئيسي الذي دعاه لمغادرة سجن «إيفين» والذهاب إلى الجبهة للقتال ضد العراقيين هو رغبته في الابتعاد عنها. كان يظن أن عدم رؤيتها سيغير مشاعره تجاهها، لكن ذلك لم يحدث، وأخبرها أيضًا أن مشاعره تحركت نحوها منذ اللحظة الأولى التي ألتقاها فيها، وأنه حاول كثيرًا تجاهل تلك المشاعر لكنه فشل. لهذا، شعر أنه عليه إنقاذها من هذا السجن بأي ثمن، ولهذا ذهب إلى «آية الله الخميني» وتوسل إليه كي يعفو عنها، وتحدث معه مرة أخرى كي يرسلها إلى سجن 246. وبعد أن أطمئن عليها بحصولها على عفو «الخميني» أصر على أن يرحل بعيدًا عنها. لقد أدرك أن لا زميله «حامد» ولا غيره يستطيعون

إيذائها لأنها باتت مشمولة بعفو الإمام. ثم أخبرها إنه حاول كثيرًا أن ينساها لكنه فشل. طلب «علي» من مارينا أن يتزوجها ووعدها بأن يكون زوجًا صالحًا لها وأن يعتني بها، وطلب منها ألا ترد عليه في الحال، وأن تمنح نفسها فرصة كي تفكر. لكن «مارينا» أخبرته وقتها أنها لا تستطيع الزواج منه لأسباب عديدة منها إنها لا تحبه. لكنه أخبرها أن الحب سيأتي مع الوقت بعد الزواج. وحينما حاولت «مارينا» مرة أخرى أن تخبره برفضها، هددها بشكل غير مباشر بإيذاء حبيبها «أندريه» والقبض على والديها والزج بهما في السجن.

كانت «مارينا» بالفعل في ورطة كبيرة. لقد كانت ما بين القبول بالزواج من شخص لا تحبه وتعرفت عليه في ظروف قاسيه ويهددها بإعدام حبيبها وسجن والديها، وما بين الرفض وتعريض كل هؤلاء للخطر. لم تعرف «مارينا» تلك الفتاة الصغيرة قليلة الخبرة والحيلة ماذا عساها أن تفعل. لهذا، طلبت منه مهلة للتفكير. وبالفعل، أمهلها «علي» ثلاثة أيام فقط للتفكير.

وبعد انتهاء الأيام الثلاثة، عاد «علي» إلى سجن «إيفين» لسماع ردها. والمفاجأة أن «علي» قرر اصطحاب «مارينا» في جولة بسيارته إلى خارج سجن «إيفين». وعندما سألها عن ردها، لم يكن من «مارينا» إلا أن أخبرته أنها توافق على طلبه. وتصف «مارينا» شعورها في ذلك الوقت بأنها وافقت وهي تشعر أنها ستدفن حية

بهذا الزواج. سعد «علي» كثيرًا بقرارها ووعدها أنها لن تندم على هذا القرار. طلبت «مارينا» منه ألا يُعلم أهلها بأمر هذا الزواج الآن خوفًا عليهم من الأذى النفسي الذي سيتعرضون له. وبالطبع، تم نقل «مارينا» إلى زنزانة أفضل بها فراش أفضل وتمت معاملتها بشكل مختلف كليةً عما كانت تعامل به من قبل. وبعد فترة، تم الإفراج الجزئي عن «مارينا». لكنها ظلت تسأل نفسها لماذا اختارها «علي». لقد كانت تجسيدًا لكل ما يعارضه؛ فهي مسيحية ومعارضة للثورة وسجينة. لماذا كان عليه أن يصارع من أجل إنقاذ حياتها أكثر من مرة؟ ولماذا كان عليه أن يصارع من أجل إتمام الزواج بها. لقد كانت لا تعرف حقًا لماذا يفعل كل هذا؟

وبالطبع، لم تنته المفاجأت عند هذا الحد. ففي يوم، أخبرها «علي» أنه يتوجب عليها الدخول في الإسلام لأن ذلك سيسهل من أمر زواجهما. شعرت «مارينا» وقتها بالضياع التام. لقد فقدت عائلتها والرجل الذي تحبه وحريتها وبيتها وآمالها في الحياة وأحلامها والآن بات يتوجب عليها أن تفقد دينها أيضًا. وحينما طلبت منه «مارينا» أن يدعها وشأنها أخبرها أن ذلك مستحيل وأنه لا سبيل لديها سوى اعتناق الإسلام. لم تدرك «مارينا» التي كانت في السابعة عشر من عمرها آنذاك ماذا تفعل، أو بالأحرى لم يكن لديها وقت لأي اختيار. لم يكن أمامها سوى الموافقة على كل شيء من أجل حماية حبيبها ووالديها من الموت والتعذيب. وبالرغم

من كل هذا السوء الذي أحاط بـ «مارينا»، فإنها تعترف إنها أحبت والد «علي» واحترمته. لقد كان هذا الرجل الذي يُدعى «موسوي» يبذل الكثير من الجهد من أجل طمأنتها والتقرب إليها، حتى إنها شعرت أنه يعاملها كابنة بالفعل. لقد كان يعاملها بحنو كبير ساهم بشكل، أو بآخر في تخفيف وطأة الألم والحزن اللذين كانت «مارينا» تعاني منهما وقتها. وهنا تقول مارينا في روايتها: «كنت أتوقع أن تعاملني أسرته معاملة قاسية دونية، لكنهم كانوا ودودين للغاية، بل كانوا تجسيدًا لكل ما أفتقده في أسرتي. لقد رأيت بعيني وقتها ما ناله «علي» من محبة في منزله .. وسواء أحببت ذلك، أم لا فقد أصبحت جزءًا من عائلة «علي» ولا أنكر أني شعرت معهم بالحب والاهتمام أكثر مما شعرت به في حياتي السابقة، وجعلني حبهم أشعر بالإثم، لأنني أدركت أني أحبهم بدوري. لا يفترض بالحب أن يورث المرء الشعور بالإثم، فهو ليس خطيئة، لكنه أصبح كذلك من وجهة نظري، لأنني بدأت أسأل نفسي هل سأحب «علي»يومًا؟ وهل يعني ذلك أني خنت أهلي و«أندريه»؟».

على أي حال، اعتنقت «مارينا» الإسلام وغيرت اسمها إلى «فاطمة». وكان هذا الاسم هو اسم أم «علي». تزوجت «مارينا» و«علي» في 23 يوليو من عام 1982. وبالرغم من هذا الزواج، ظلت «مارينا» رسميًا سجينة من سجناء سجن «إيفين». فلم تكن «مارينا» قد حصلت على عفو نهائي بعد. لهذا، توجب عليها

العـودة إلى السـجن بعـد فـترة مـن الـزواج. وبعـد عودتهـا إلى السـجن، أبقاهـا «عـلي» في زنزانـة فرديـة تتمتـع فيهـا بالعديـد مـن وسـائل الرفاهيـة، مثـل الكتـب الكثـيرة التـي أحضرهـا لهـا. وبعـد فـترة عُقـدت المحكمـة الإسـلامية، وتـم تخفيـف الحكـم عـلى «مارينـا» مـن السـجن مـدى الحيـاة إلى السـجن ثـلاث سـنوات فقـط. كانـت «مارينـا» قـد قضـت منهـا بالفعـل ثمانيـة أشـهر داخـل السـجن. وبعـد مـرور عـام عـلى زواج «مارينـا» مـن «عـلي»، حملـت «مارينـا» وهـو الخـبر الـذي أسـعد زوجهـا كثـيرًا وجعلـه يطـير فرحًـا.

ولكـن بعـد فـترة، اغتيـل «عـلي» بينـما كانـت «مارينـا» بصحبتـه في زيـارة إلى منـزل والـده عـلى يـد بعـض رجـال الحـرس الثـوري الإيـراني الـذي كان بينـه وبينهـم خـلاف فكـري شـديد. وتقـول مارينـا أن أخـر كلـمات قالهـا «عـلي» لوالـده قبـل أن يفـارق الحيـاة هـي أن يعيدهـا إلى أهلهـا. وفي هـذه الحادثـة أيضًـا فقـدت «مارينـا» الجنـين نتيجـة سـقوطها أرضًـا بعـد أن دفعهـا «عـلي» بعيـدًا عن طلقـات الرصـاص التـي أصابتـه. وبعـد مـوت «عـلي» بعـدة أشـهر نجـح والـده في الوفـاء بالوعـد الـذي قطعـه عـلى نفسـه لـه وحصـل عـلى قـرار بالعفـو النهائـي والإفـراج عـن «مارينـا». خرجـت «مارينـا» مـن السـجن وعـادت إلى منـزل عائلتهـا بعـد أن قضـت داخـل سـجن «إيفـين» عامـين وشـهرين واثنـي عـشر يومًـا.

لكن بعد أن عادت «مارينا» إلى حياتها الطبيعية وإلى أسرتها وحبيبها «أندريه»، ظلت تواجهها مشكلة كبيرة. فهي حتى لو كانت قد أُجبرت على الدخول في الإسلام، فإنها لاتزال وفقًا للأوراق الرسمية امرأة مسلمة، ومن ثم لا يحق لها الزواج من رجل مسيحي. وبالرغم من كل التهديدات والصعوبات التي واجهتها، قررت «مارينا» في شهر يوليو من عام 1985؛ أي بعد خروجها من السجن بعام ونصف فقط، أن تتزوج من «أندريه» الأمر الذي اعتبره كل من حولها دربًا من الجنون. فهذا القرار يعني تعرضها لتطبيق عقوبة الإعدام عليها. وعلى الجانب الآخر، كان والد «مارينا» الذي لم تكن تربطها به علاقه جيدة من الأساس يعاملها بقسوة وجفاء، حتى إن أمها أخبرتها ذات يوم أنه قد تبرأ منها بعد أن اعتنقت الإسلام من دون أن ينظر إلى الظروف التي أجبرتها على ذلك. وهنا، شعرت «مارينا» بالفارق بين الحب والاهتمام الذي وجدته في منزل عائلة «علي»؛ و بخاصة من والده وبين ما يفعله والدها معها.

وبالفعل، تزوجت «مارينا» من «أندريه» وسافرا إلى كندا، حيث لاتزال «مارينا» تعيش هناك برفقة زوجها وابنها، وتعمل في مجال حقوق الإنسان وتلقي الكثير من المحاضرات وتناضل من أجل حرية الشعب الإيراني. ولقد كانت روايتها «سجينة طهران» بمثابة صفعة قوية على وجه النظام الإيراني أمام العالم أجمع.

تمت

لقد تعرفت على «مارينا نعمت» بشكل شخصي في عام 2016. وقتها، كنت أعمل مدير تحرير مجلة «7 أيام»، وهي المجلة التي شرفت برئاسة تحريرها فيما بعد خلفًا للكاتب الصحفي الكبير الدكتور «ياسر أيوب». في تلك الفترة، كنت قد قرأت رواية «سجينة طهران»، وأثرت فيَّ بشدة التجربة الإنسانية التي بداخلها. لقد تعاطفت مع «مارينا نعمت»، ورغبت في التواصل معها وعمل حوار صحفي معها يكون هو الأول في الصحافة العربية. بالرغم من النجاح الكبير الذي حققته روايتها حول العالم، لم تكن «مارينا» في ذلك الوقت شخصية معروفة في مصر بالقدر الكافي.

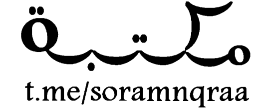
حينها، دخلت إلى مكتب الدكتور «ياسر أيوب»، الذي كان دائمًا بمثابة الأب والمعلم لنا أكثر من كونه رئيس تحرير المجلة، وطرحت عليه الأمر برمته. قام الدكتور «ياسر» بتوجيهي ونصحي، وطلب مني البدء في التواصل مع «مارينا نعمت» عبر وسائل التواصل الاجتماعي. وهنا كانت المشكلة لأني أكره بالفعل وسائل التواصل الاجتماعي بشدة ولا أحب استخدامها، ولكن لم يكن أمامي سوى التواصل معها عبر «تويتر». وبالفعل، بحثت عن الصفحة الشخصية لها، وأرسلت لها رسالة باللغة الإنجليزية أُعرِّفها فيها بنفسي وبالمجلة وطلبت إجراء حوار صحفي معها.

في الواقع، لم أتوقع ردًا منها على تلك الرسالة. لقد تخيلت أن شخصية بهذه المكانة العالمية لن تلتفت إلى رسالة مرسلة لها عبر

«تويتر». لكن المفاجأة أنه في اليوم نفسه ردت «مارينا» بنفسها على الرسالة وأرسلت لي البريد الإلكتروني الخاص بها لكي يتم التواصل بيننا بشكل أفضل. وقتها، ذهبت مسرعًا فرحًا إلى مكتب الدكتور «ياسر أيوب» لأخبره بما حدث. وقتها، جلس معي ووضعنا جميع الأسئلة معًا. وإنني استغل هذه الفرصة لأتوجه بالشكر إلى هذا الرجل العظيم الذي اعتبره في مكانة الأخ الكبير، بل وفي مكانة الوالد أحيانًا. إن الحقيقة التي يجب أن أعترف بها هي أن الدكتور «ياسر أيوب» كان ولا يزال حتى هذه اللحظة داعمًا لي، وإنني أُكن له كل الحب والتقدير والاحترام. إن هذا الرجل لم يبخل يومًا بعلمه، أو بمعلومة على أحد. لقد علّم الكثير من الصحفيين، وكان ولا يزال داعمًا للشباب، فهو شخص متجدد في أفكاره وصديق وحبيب للجميع.

وبالفعل، أجريت حوارًا مع «مارينا» عبر البريد الإلكتروني وعبر «سكايب». ومن خلال هذا الحوار، تعرفت عليها أكثر. لقد كانت بحق شخصية مؤمنة بكل ما تقوله. وبالرغم من أن تلك الأحداث التي عرضتها في روايتها «سجينة طهران» كان قد مر عليها سنوات، فهي كانت لا تزال تشعر بالمرارة والألم والمعاناة التي عاشتهم أثناء هذه الأحداث. لكن «مارينا» كانت أقوى من كل هذه المعاناة وتمكنت من النجاة بنفسها، حتى إنها تعمل حاليًا على تأهيل الأشخاص وبخاصة النساء، الذين يعانون من اضطرابات نفسية نتيجة التعذيب بشكل عام.

يمكنني القول إن قصة حياة «مارينا نعمت»، ومأساتها مع النظام الإيراني هي وزوجها السابق «علي» الذي اغتيل لأنه لم يكن يوافق على التعذيب، ولاختلافه مع بعض الأفكار الظاهرية لبعض قيادات النظام الإيراني تفضح وتكشف الوجه الحقيقي لتلك الأنظمة الاستبدادية التي تتخذ من الدين قناعًا لها.



كواليس صناعة هذا الكتاب

خرج هذا الكتاب إلى النور في وقت حالك الظلام في تاريخ البشرية أجمع. ففي الوقت الذي كانت ولا تزال جائحة «كورونا» تهدد فيه حياة البشرية، وأغلقت فيه البلدان أبوابها على أنفسها، وتوقفت الحياة بشكل كامل في العالم أجمع، وبينما كنت أنا شخصيًا أعاني من اليأس والاكتئاب، جاء هذا الكتاب ليمثل مشعل النور الذي أضاء لي الطريق بين اليأس والرجاء.

في الواقع، ساهم هذا الكتاب في تخفيف وطأة الأحداث على نفسي. لكي أقوم بكتابته، توجب علي قراءة المئات من الكتب والمصادر ومشاهدة مثلها من الأفلام الوثائقية كي أستطيع الكتابة بشكل حقيقي عن تلك الشخصيات التي تضمنها هذا الكتاب، وهو الأمر الذي عكفت عليه لفترة طويلة. أتذكر أني قضيت أيامًا طويلة بلا نوم أعمل فيها على البحث عن المعلومات اللازمة التي أستطيع بها أن أقدم محتوى جيد يليق بالقارئ ويفيده و في الوقت نفسه لا يشعره بالملل.

أعترف أني شعرت بالحيرة في بداية الأمر. لم أكن أعرف ما هي الصيغة الأفضل التي يمكنني بها طرح هذا المحتوى. لكني في النهاية اخترت الصيغة القصصية، لأننا في مجتمعاتنا العربية نحب كثيرًا القصص والحكايات، وننجذب إليها، ونستمع اليها، ونستمتع بقراءتها، وتؤثر فينا بشدة. لهذا، كان الأسلوب القصصي هو أفضل أسلوب أطرح به محتوى هذا الكتاب، وهو ما قد كان بالفعل.

لهذا، اسأل الله العلي العظيم أن يجعل هذا الكتاب علمًا ينتفع به وأن يؤجرني به خيرًا وأن يجعله يوم لقاه حجة لي لا عليَّ.

المؤلف

فاروق الجمل

- كاتب صحفي وباحث وروائي مصري
- حاصل على ليسانس الآداب قسم التاريخ
- عمل بعدد كبير من الصحف المصرية والعربية
- عمل مذيعًا بقناة «روتانا مصرية» في الفترة من ٢٠١١ حتى ٢٠١٦
- نُشر له من قبل:
- رواية «العام الثالث» عام ٢٠٠٨
- كتاب ساخر بعنوان «أهي ماشية وبتعدي الشارع» عام ٢٠١٠
- رواية «خطوط وهمية» عام ٢٠١١
- نُشر له العديد من الأبحاث المتعلقة بعلوم التاريخ والباراسيكولجي وعلوم ما وراء الطبيعية والمقالات بعدد من الصحف المصرية والعربية.
- نُشر له عدد من القصص القصيرة بعدد من الصحف المصرية والعربية.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

مغامرات النساء
عبر التاريخ

ربما يبهرهم مظهرها الجذاب، أو أنوثتها الطاغية أو كلامها المعسول، لكن التاريخ لا ينسى ولا يرضخ لكل تلك المغريات، هو فقط يكتب ويسجل ويدوّن بين ثنايا صفحاته كلَّ شيء، دون أن يغفل أيَّ شيءٍ...؛ لهذا إذا أردنا حقا أن نعرف أكثر عن المرأة فما علينا سوى القيام برحلة عميقة عبر التاريخ.

و هذا ما سنفعله الآن...؛ ففي هذا الكتاب سنخوض معًا رحلة في عالم مليء بالأسرار والتجارب والحكايات المشوقة... تلك الحكايات التي كانت بطولتها المطلقة للنساء.

سننتقل معًا في سرد قصصي تاريخي عبر الأزمنة والبلاد والعصور المختلفة لنتتبع سيرهن ومغامرتهن التي سجلها التاريخ في شتى المجالات... سنتجول معًا في رحلة تتضمن قصصًا حقيقة في السياسة والحب و العلم و الوفاء و الخيانة و الخير و الشر.


ISBN 978-9777545495





